روايات الهلال

ف.س. نايبول

جائزة نوبل ٢٠٠١



منعطف النهر

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول: يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة - الأردن ٣ دينارات الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالا- البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا- دبي / أبو ظبى ٢٠ درهما - سلطة عمان ٢ ريال المغرب ٥٠ درهما - فلسطين ٤ دولارات - سويسرا ٧ فرنكات

العدد ٦٣٤
أكتوبر ٢٠٠١ ● رجب ١٤٢٢هـ
No - 634 - octo - 2001

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٢٤١١١٦٤
الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب به (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

عنوان البريد الإلكترونى ●
aarhilal@idsc . gov . eg

منعطف النهر

تأليف
ف . س . نايبول

ترجمة
محمد أحمد الجوادى

الطبعة الثانية

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

A BEND IN THE RIVER

تـألـيــف :

V.S. NAIPAUL

الغلاف بريشة الفنانة :

سـمـيـحـة حسـنـين

قبـل أن تقـرأ

هذه الرواية نشرناها منذ تسع سنوات ..

وجاء فى مقدمة الرواية، إنها «مرشحة للحصول على جائزة نوبل فى أحد الأعوام القادمة».

وبالفعل ، فازت الرواية بجائزة نوبل هذا العام، وهى العمل الوحيد المترجم للكاتب إلى اللغة العربية، ويبدونا كأننا نسبق الأحداث فى تقديم هذه الرواية المهمة.

وتبدو جودة هذا العمل ليس فقط فى الموضوع الإنسانى الذى اختاره الكاتب.. ولكن أيضا فى أسلوب معالجته، ولأن ف. س. نايبول كاتب مقروء فى لغات عديدة، فإنه من الأهمية أن نقدمه فى روايات الهلال.. فهو كاتب ينتمى إلى أربع حضارات.. فهو من مواليد ترينداد.. وهى منطقة فى أمريكا الجنوبية يعيش فيها الهنود وكأنهم فى شبه القارة الهندية.. اختار أن ينتقل إلى شرق افريقيا ويقيم هناك مع الأسر العربية التى جاءت من الجزيرة العربية.. وذلك فى فترة انحسار الاستعمار عن افريقيا.. ومن افريقيا انتقل إلى بريطانيا ليعيش هناك ويكتب عن جذوره الأربعة المقطوعة أو عن خليطه الغريب الذى لم يسبق لكاتب أن عبر عنه فيما قبل.

ولد ڤيدياضهاد سوراج برساد فى عام ١٩٣٢.. وهو ابن لأحد البراهمة النازحين من شمال الهند إلى جزر الهند الغربية.. وفى عام ١٩٥٠ سافر إلى إنجلترا من أجل استكمال دراسته الجامعية: «عندما وصلت إلى بريطانيا شعرت أننى بلا ملابس.. وأننى شخص قبيح.. أسود.. أخلو من أى محاسن.. وليست لدى خلفيات، ولا أمتلك سوى الوحدة وذكائى».

وفى عام ١٩٥٤ بدأ فى كتابة القصص والروايات باللغة الإنجليزية التى يكتب بها كل رواياته.. حيث ظهر له حتى الآن قرابة عشرين كتابا

منها خمس عشرة رواية وخمسة كتب فى أدب الرحلات والدراسات الدينية.. وكان قد زار مصر فى عام ١٩٧٧ وكتب عنها كتابا تحت عنوان «سيرك فى الأقصر».

أما أهم روايات نايبول فهناك «عامل التدلل المتصوف» ١٩٥٧ و«شارع ميجيل» ١٩٥٩.. و«منزل السيد بيسواش» ١٩٦١، ثم «رجال من قش» ١٩٦٦، و«المحاربون» ١٩٧٥.. أما «منعطف النهر» التى نقدمها اليوم فى ترجمتها الكاملة فقد انتهى من تأليفها عام ١٩٧٨ ونشرت بعد ذلك بعامين.. ثم نشر رواية «لغز الوصول» عام ١٩٨٦، و«وهم الظلام» عام ١٩٨٩، وقد نال نايبول جائزة بوكر أهم جائزة أدبية فى إنجلترا عن احدى هذه الروايات.

ورغم أهمية نايبول الروائية، إلا أن الآراء تضاربت حوله، فحسب عدد مجلة بانوراما.. الإيطالية - ٧ ديسمبر ١٩٨١ - فان نايبول رجل بلا جذور.. وأنه رغم أصله الهندى إلا أنه متعلق بالغرب.. أما مجلة الاكسبرس الفرنسية فترى - ١٦ سبتمبر ١٩٨٣ - أنه صحفى أكثر منه أديبا.. لكن تايم الأمريكية ترى أنه الروائى الأول فى عصرنا وتحاول أن تشبهه بجوزيف كونراد فى بريطانيا، وقد دفع هذا مجلة «نيوزويك» إلى أن تصدر عنه ملفا فى ١٨ أغسطس ١٩٨٢ وتصدر صورته غلاف المجلة كأنه واحد من نجوم السينما.

وفى الرواية التى نقدمها اليوم لنايبول نرى افريقيا المعاصرة من خلال وجهة نظر سالم الراوية .. يعيش فى الساحل الشرقى منذ سنوات.. هذا الساحل العربى الذى يسكن فيه الهندوس والبرتغاليون ومن الصعب فيه تحديد الهوية الافريقية.. وهو مجتمع ملىء بالاضطرابات السياسية.

وسالم رجل بسيط يعيش فى هذا البلد الذى لا يسميه الكاتب .. لكنه أقرب إلى زائير، ويقول نايبول إن الناس فى هذه البلاد لا يتغيرون بسهولة، يعيشون نفس النمط من الحياة.. ولا يعرفون الثورة أو التمرد، وسالم البطل هنا الذى اشترى مكانا فى افريقيا ليس افريقيا بالمرة.. انه رجل عشق الحضارة الغربية، وهو يبيح لنفسه امرأة صديقه، ويرى نايبول أن مثل هذه العلاقة مشروعة فى هذه البلاد، وإذا كان سالم يفعل

ذلك فهو يرى أن حفاظ الشرق على تراثه وفكره وأصالته هو نوع من التحالف الحضارى.

وأبطال نايبول دائما أشبه به يجمعون بين حضارات عديدة مثل الزعيم جيمى أحمد فى رواية «المحاربون» فهو زعيم هندى، ينحدر من أصل صينى.. عاش سنوات عديدة فى بريطانيا.. إنه صورة حية لزعيم هندى عرفه يدعى ميشيل عبدالملك ثم شنقه بعد أن قتل زوجته البيضاء عام ١٩٧٥ فى ترينداد.. لقد قتل امرأته من خلال مفاهيمه لعادات وطنه رغم أنه تلقى تعليمه فى الغرب.. وفى هذه الرواية لم يحدد نايبول مكان الأحداث كالعادة.. فهو يرحل إلى بلد هو أقرب إلى جامايكا.. وينغمس وسط الفقراء ويدير مؤسسة صناعية شعارها «العودة إلى الأرض» لكن السكان يرفضون استمرار المؤسسة، ولأنه مشدود إلى النوذج الغربى فيقابل الصحفى البريطانى بيتر روش وعشيقته چين والتى يستبيحها أيضا لنفسه مثلما فعل سالم فى «منعطف النهر».

أما البطل الهندى فى رواية «أخبرنى من أقتل» فقد رحل من منطقة الكاريبى إلى لندن.. لقد رحل مع أخيه سانتوس - الراوية - إلى المملكة المتحدة .. ثم يسافر وحده إلى الولايات المتحدة.. وهناك ينام فوق الأرصفة ويعانى من نفس المعاناة التى يعانيها الزوج هناك.. يظل الأمريكيون بالنسبة له مجرد مخلوقات غير حقيقية.. إنهم أناس تائهون فى التليفزيون ويتحولون إلى قطعة منه.. وهناك يتزوج من امرأة زنجية ويحس أن عليه أن يفكر مثل الزنوج.. ولذا فإنه يشترك فى ثورة الزنج عام ١٩٦٨ ويقوم بحرق العديد من المنازل التى يمتلكها البيض.. إنه رجل - كما يقول الكاتب - يبحث عن حريته .. ولكن ما هى الحرية فى هذا المجتمع الأمريكى؟ بلا شك يصبح معنى الحرية مرنا عند الكاتب وله مناظير مختلفة .

والبطل فى روايات نايبول يتسم دائما بأنه ضائع الهوية.. ويحس أنه فى الغرب أقل هوية.. لذا فهو يبحث عن مخرج من البلاد التى لم تضق به أبدا.. لكنه هو الذى ضاق بها.. لكن البلاد التى يذهب إليها لا تتقبله بسهولة .

❑❑❑

يهمنا ونحن نقدم هذه التجربة الروائية التى لا يجب تجاوزها، أن نرسل تحية إلى روح المترجم محمد أحمد الجوادى التى رحلت إلى بارئها بعد أسبوعين من تسليمه مخطوط هذه الرواية لنا، والتى بدا فيها مدى تمكنه من لغته العربية واللغة الإنجليزية.. من المحزن أن روايات الهلال التى لم تلبث أن اكتشفت مترجماً متميزاً قد فقدته بعد أن ترجم لها روايتين.. الأولى يحصل كاتبها على جائزة نوبل وهى «منعطف النهر» أما الرواية الثانية فهى «الصيف الأخير» لهيرمان هيسه الذى فاز بجائزة نوبل عام ١٩٣٤.

وقد عمل محمد الجوادى - ٥١ سنة - مترجما فى الأهرام .. كما كان شاعراً متميزا .. واختطفه الموت فجأة وهو فى حالة عمل لا ينتهى.

روايات الهلال

الفصل الأول :

التمرد الثانى

- ١ -

العالم هو مايكون دائماً . الرجال الذين لايملكون شيئاً والذين يسمحون لانفسهم بألا يكونوا شيئاً ليس لهم مكان فيه .

وهكذا شأن "نصر الدين" الذى باع لى المحل فى صفقة رخيصة لم يفكر أننى سوف أدبر أمورى على مهل حينما اتسلم إدارة المحل من بعده . وللبلد شأنه شأن البلدان الأخرى من أفريقيا التى حصلت على استقلالها ، وتعانى من المتاعب والمدنية التى تقع فى مناطق الداخل عند منحنى النهر العظيم تكاد أن تكون قد توقفت عن الوجود مما حدا بـ "نصر الدين" أن يقول إننى سوف يتعين علىّ أن أبدأ من الصفر تماماً .

قمت بركوب سيارتى البيچو من الساحل ، ولم تكن هذه هى الرحلة التى تستطيع أن تقوم بها الآن فى أفريقيا قادماً من الساحل الشرقى لتدخل تماما إلى مناطق الوسط من القارة . ولقد غدا الكثير من الأماكن على طول الطريق مغلقاً مقفراً أو مليئاً بالدماء . وحتى فى هذا الوقت حينما كانت الطرق مفتوحة بصورة أو بأخرى فلقد أخذت الرحلة منى بالعربة مايزيد على أسبوع كامل .

لم يقتصر الأمر على ركام الرمال أو الطين أو الطرق الضيقة الملتوية والمحطمة داخل ممرات الجبال ولكن كانت هناك كل هذه الأشياء عند مراكز الحدود وكل هذه المساومات فى الغابة خارج الأكواخ الخشبية التي ترتفع

فوقها أعلام غريبة . كان يتعين عليّ أن أخذ نفسي وعربتي البيچو بعيداً عن الرجال المسلحين بالبنادق والرشاشات حتى أسوق سيارتي داخل الأدغال الكثيفة في الغابة . وكان عليّ أيضاً أن أمضي بصعوبة وأن ألقي ببعض الأوراق النقدية وأن أترك بعض المعلبات من الأغذية التي أحملها كي أستطيع أن أمضي أنا وسيارتي البيچو خارج هذه الأماكن التي وصلت إليها .

وكانت بعض هذه المماحكات والمشاحنات تستغرق نصف يوم بأكمله وذلك عندما يطلب الزعيم شيئاً مثيراً للسخرية وهو مبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف دولار . فإذا ماقلت لا ، إنسحب هو إلى داخل كوخه كما لو لم يكن هناك شيء أخر يمكن أن يقوله ثم أظل متسكعا حول المكان بالخارج ، ذلك لأنه لايوجد شيء أخر أستطيع أن أعمله . ثم أقرر بعد ساعة أو ساعتين أن أدخل إلى الكوخ أو يخرج هو منه كي نتفق على مبلغ دولارين أو ثلاثة دولارات !! وكان الموضوع كما قال لي "نصر الدين" حينما سألته عن تأشيرات الدخول ، فقال لي إن الأوراق النقدية أفضل الطرق للدخول : "إنك تستطيع أن تدخل إلى هذه الأماكن ولكن الصعوبة الحقيقية هي في كيفية الخروج منها فهذه معركة خاصة ولكل انسان أن يجد لنفسه طريقاً خاصاً به .

وكنت كلما توغلت في افريقيا داخل الأشجار والصحراء والمنحدرات الصخرية والجبال والبحيرات والمطر في فترات مابعد الظهيرة والطين بالإضافة إلى الجانب المبتل من الجبال وغابات السرخس وغابات الغوريللا أقول لنفسي : ان هذا جنون مطلق فأنا أمشي في الاتجاه الخاطيء وأنه لاتوجد أية حياة جديدة في نهاية هذا الطريق .

استمررت في قيادة سيارتي ، وكانت كل مرحلة من القيادة التي اقطعها كل يوم تمثل لي إنجازاً ، وكان كل إنجاز أحققه يجعل رجوعي للوراء مسألة صعبة . ولم استطع أن أقاوم الإحساس بأنه هكذا كانت الأمور في الأيام القديمة مع جموع العبيد حيث إنهم كانوا يقومون بنفس الرحلة ، ولكن على الأقدام بطبيعة الحال وفي الاتجاه المعاكس قادمين من وسط القارة إلى الساحل الشرقي ، وكانت كلما بعدت بهم الشقة من منطقة الوسط حيث

توجد مناطق القبائل التابعين لها كانت إمكانية تحررهم من القوافل التى تقودهم اقل إحتمالاً واصعب فى محاولة عودتهم إلى أوطانهم ، وكانوا يزدادون ضيقاً بالافريكان الغرباء الذين يرونهم حولهم . ثم تأتى النهاية عند الشاطىء حيث تختفى المتاعب حينئذ ويصبحون متلهفين للنزول إلى القوارب كى يؤخذوا إلى المنازل الآمنة عبر البحر .

وحينما وصلت تأكدت أن "نصر الدين" لم يكن يكذب علىّ فكان للمكان متاعبه ، وكانت المدينة عند منحنى النهر أكثر من نصف مدمرة وكانت المناطق التى كان الأوربيون قد اتخذوها كضاحية لهم عند الشلالات قد احترقت تماما ونمت أشجار الغابة فوق الخرائب الباقية وأصبح من الصعب التمييز بين ماكان حدائق وماكان شوارع هناك . ولقد بقيت المنطقة الادارية والتجارية بالقرب من رصيف الشحن ومبنى الجمارك بالإضافة إلى بعض الشوارع السكنية فى وسط المدينة ، لم يكن هناك شىء أكثر من ذلك . وكانت مساكن الأفريكان قد عمرت فى الأركان البعيدة فحسب بينما كان هناك الخراب فيما عدا ذلك ، وكانت معظم المنازل الحجرية المنخفضة التى تشبه الصناديق والملونة بالأزرق الباهت أو الأخضر الباهت مهجورة تماما بينما كانت تكسوها أشجار الكروم الاستوائية السريعة النمو والسريعة الذبول مثل الحصر المجدولة من اللونين البنى والأخضر .

وكان دكان "نصر الدين" فى ميدان السوق فى المنطقة التجارية تشم فيه رائحة الفئران وكان يملؤه الروث ولكنه كان سليم البنيان . وكنت قد اشتريت ضمن مااشتريت مخزون المحل من "نصر الدين" ولكنه لم يكن هناك أى شىء من ذلك . كما أننى اشتريت شهرة المحل ولكن ذلك لم يكن له معنى لأن كثيراً من الأفريكان كانوا قد ذهبوا إلى الغابة مرة ثانية عائدين إلى قراهم الآمنة والتى تقع فى مضايق صعبة ومختفية .

ولم يكن هناك ما أعمله بعد قلقى على الوصول غير أنى لم أكن وحدى . فلقد كان هناك التجار وغيرهم من الأجانب وكان بعضهم قد مر بمتاعب صعبة ولقد انتظرت معهم . واستقر السلام وبدأ الناس فى العودة إلى

المدينة وامتلأت أحواش المحلات وبدأ الناس يترددون على طلب البضائع التى كنا نقدمها وهكذا بدأ النشاط التجارى لنا يعود ببطء .

وكانت "زابت" من بين أوائل عملائى المنتظمين وكانت تاجرة أو بائعة تجزئة ، ولم تكن إمرأة من نساء السوق فحسب . بل كانت تنتسب إلى عشيرة من صائدى الأسماك تكاد تكون قبيلة صغيرة . وكانت "زابت" تأتى كل شهر تقريباً من قريتها إلى المدينة لتشترى حاجاتها بالجملة . وكانت تشترى منى الأقلام الرصاص والكراسات وأمواس الحلاقة والصابون ومعجون الأسنان وفرش الأسنان والملابس واللعب البلاستيك والقدور الحديدية والأوانى الألومنيوم والأطباق الخزفية والأحواض . وكانت هذه بعض الحاجيات البسيطة التى كانت عشيرة "زابت" تطلبها من العالم الخارجى وكانت قد توقفت عن شرائها أثناء الاضطرابات . ولم تكن هذه الحاجات ضرورات أو أدوات رفاهية بقدر ماكانت أشياء تجعل الحياة العادية أكثر سهولة . وللناس هنا العديد من المهارات حتى أنهم يستطيعون العيش اعتمادا على أنفسهم حيث يقومون بدبغ الجلود ونسج الملابس وطرق الحديد وتحويل جذوع الأشجار الضخمة إلى قوارب ، وتحويل الأشجار الصغيرة إلى أدوات للمطبخ ، وبالنسبة للناس الذين يحلمون بحوض كبير لايلوث المياه أو الغذاء ولايتسرب منه الماء فلك أن تتخيل أى قدر من السعادة يحسونه لشراء حوض خزفى .

وكانت "زابت" تعرف تماما مايحتاجه أهل قريتها وكم من النقود يستطيعون أو يقدرون على دفعها فى مقابل هذه الأشياء . ويحلو للتجار الذين يعملون على الشاطىء - بما فيهم والدى - أن يقولوا وبخاصة حينما يعزون أنفسهم فى أعقاب صفقة خاسرة أن هناك لكل شىء فى نهاية المطاف من يطلبه ويشتريه . ولكن الأمر مختلف بعض الشىء هنا حيث إن الناس يهتمون بشراء الأشياء الجديدة مثل الحقن الفارغة وهو ما أصابنى بالدهشة ، كما أنهم يهتمون بالأشياء الحديثة ولكن ذوقهم يتوقف عند النماذج الأولى لهذه الأشياء التى استعملوها حيث يثقون فى نمط بعينه أو علامة تجارية بعينها . وكان من غير المجدى أن أحاول أن "أبيع" أى

شىء لـ "زابت" وكان علىّ أن أبقى على تقديم الأشياء المعتادة قدر المستطاع ولقد كان ذلك نمطاً مملاً من العمل لكن فيه تجنبت التعقيدات ، كما ساعد ذلك على جعل "زابت" أحسن العميلات وأكثرهن استقامة وهو ماكان شيئاً غير عادى بالنسبة لها كأفريقية .

ولم تكن "زابت" تعرف القراءة أو الكتابة ولكنها كانت تحمل قائمة مشترياتها المعقدة فى رأسها وكانت تتذكر ماذا دفعت كثمن لحاجاتها من المرات السابقة . ولم يحدث أبدا أن طلبت "زابت" الشراء بالأجل لأنها كانت تكره مجرد الفكرة ذاتها فكانت تشترى نقداً ، وكانت تأخذ نقودها من حقيبة صغيرة تحملها معها إلى المدينة . وكان كل تاجر يعرف موضوع الحقيبة الصغيرة "زابت" . ولم يكن الموضوع هو أنها لاتثق فى البنوك ولكنه كان عدم فهمها لهذه البنوك .

وكنت أقول لها فى هذه اللغة المختلطة لسكان النهر والتى كنا نستعملها : "يوما من الأيام يا"بيت" سوف يخطف شخص ما حقيبة النقود منك . فهذا شىء غير مضمون أن تحملى وأنت مسافرة مثل هذه النقود" وكانت ترد علىّ بقولها : "حينما يأتى هذا اليوم يا مس "سالم" فسوف أعرف أنه قد جاء اليوم كى أبقى فى المنزل" .

ولقد كان هذا شكلاً غريبا من أشكال التفكير ولكن "زابت" كانت إمرأة غريبة كذلك .

وكانت كلمة "مس" هى اختصار لكلمة "مستر" كما كانت "زابت" وغيرها يستخدمون هذا اللفظ . وكنت القب أنا بلفظ "مستر" لأننى أجنبى من هؤلاء القادمين من الساحل البعيد كما أننى ممن يتكلمون الإنجليزية ، كذلك فأنا مستر لكى أميز عن بقية الأجانب المقيمن الذين يحملون لقب "مسيو" . حدث ذلك قبل أن يأتى "الرجل الكبير" ليجعل منا جميعا مواطنين ومواطنات . وكان هذا شيئاً لا غبار عليه حتى جاء الوقت الذى جعل فيه الأكاذيب التى صنعها لنا شيئاً معاشا ، وجعل الشعب يعيش

مضطربا خائفا حتى إذا جاء معبود آخر أكثر قوة منه جعل الشعب يقرر أن تنتهى هذه الأشياء وتعود الأمور إلى بدايتها كما كانت من قبل .

وكانت قرية "زابت" لاتبعد أكثر من ستين ميلاً ولكنها بعيدة عن الطريق العام الذى لايتجاوز سكة ضيقة كما تبعد عن مسار النهر الرئيسى بعدة أميال . ولهذا فالرحلة سواء بالبر أو بالنهر رحلة شاقة تأخذ ما لايقل عن يومين كاملين وكانت فى موسم الأمطار تستغرق ثلاثة أيام . وفى البداية كانت "زابت" تأتى بالطريق البرى وترتحل معها بعض السيدات اللاتى يساعدنها فى الطريق حيث ينتظرن قدوم عربة للنقل أو أتوبيس . وحينما بدأت السفن البخارية فى العمل من جديد عادت "زابت" إلى استخدام النهر ، ولم يكن ذلك اسهل من الطريق البرى بأى حال .

وكانت القنوات السرية التى تربط القرية بالنهر ضحلة مليئة بالعراقيل وتطن فيها حشرات الناموس . وعبر هذه القنوات كانت "زابت" والنسوة معها يدفعن قواربهن إلى الممر الرئيسى للنهر . وهناك بالقرب من الشاطىء ينتظرن السفينة البخارية . بينما القوارب مملوءة بالبضائع وهى غالبا مواد غذائية تباع للناس على ظهر السفينة والصندل الذى تجره وراءها . وكان الغذاء فى معظم الأحوال عبارة عن أسماك أو لحم القرود طازجا أو مقددا مدخنا على الطريقة التى تعرفها البلاد بطبقة سوداء سميكة . وفى بعض الأحيان يكون هناك ثعبان مدخن أو تمساح صغير مدخن ، تغطيه قشرة سوداء يصعب تمييزها ولكن مع وجود اللحم الأبيض أو المشرب بالحمرة تحت القشرة المتفحمة .

وحينما تظهر السفينة البخارية وهى تقطر وراءها الصندل الذى يحمل المسافرين تقوم "زابت" والنسوة التابعات لها بالتجديف إلى وسط النهر ثم يقفن على حافة السفينة محمولات مع حركة التيار . وتمضى السفينة بينما تتأرجح القوارب فوق سطح المد حتى تأتى اللحظة الحاسمة حينما يقترب الصندل والقوارب من بعض . ثم تقوم "زابت" والنسوة التابعات لها بإلقاء الحبال على السطح الحديدى للصندل حيث تتلقفها الأيدى لتربطها بالحاجز الفولاذى ثم تبدأ القوارب بالتحرك فى الاتجاه الآخر بعد أن كانت

تطفو على سطح الماء على جانب الصندل بينما يلقى الركاب الذين على السطح بقطع الورق أو القماش على الأسماك أو لحم القردة الذين يريدون شراءه .

والحق أن عملية ربط القوارب بالسفينة المتحركة أو الصندل رغم انها مناورة معروفة للعاملين بالنهر إلا أنها خطيرة كذلك وفي كل رحلة تقوم بها السفينة فإن هناك حوادث لانقلاب أحد القوارب على الطريق النهرى الذى يمتد لمسافة ألف ميل وغرق العديد من الركاب والناس . ومع ذلك فالمغامرة جديرة بالمحاولة حيث تقوم "زابت" كتاجرة لبيع البضائع بعد ذلك بربط النهر بالحد النهائى للمدينة ثم تقوم بفك قواربها عند خرائب الكاتدرائية قليلا قبل أرصفة الشحن كي تتجنب الموظفين هناك والذين يلحون بالجهد طلبا لبعض الرسوم على البضائع . أى رحلة هذه وأى جهد جهيد وأى خطر من أجل أن تبيع بعض الأشياء البسيطة التى تحتاجها القرية ولكى تأخذ بعض البضائع الأخرى إلى سكان قريتها فى نهاية المطاف .

وعلى مدى يوم أو يومين قبل أن تأتى السفينة البخارية يقام هناك سوق أو معسكر فى الفضاء المفتوح خارج بوابة الرصيف الخاص بالشحن . ولقد أصبحت "زابت" جزءا لا يتجزأ من هذا السوق كلما ذهبت إلى المدينة . أما إذا أمطرت الدنيا فإنها تنام فى ردهة أحد محلات البقالة أو أحد البارات وفيما بعد تأوى إلى أحد بيوت الإقامة الافريقية إلا أن مثل هذه الأماكن لم تكن موجودة فى أول الأمر . وحينما جاءت "زابت" إلى المحل لم يبد هناك فى مظهرها ما ينم عن رحلتها الشاقة أو نومها فى العراء . كانت تلبس ملابس رسمية ملفوفة فى رداء قطنى على النمط الأفريقى حيث كانت الثنايا والتعاريج تبرز ضخامة أردافها . كما تلبس عمامة للرأس على نمط سكان النهر وتحمل حقيبة نقودها التى تضم أوراق النقد المجعدة التى تجمعها من أهالى قريتها والركاب الذين كانوا على متن السفينة ، والصندل وكانت تشترى حاجياتها من السوق وتدفع الثمن وقبل وصول السفينة البخارية بعدة ساعات وقبل إبحارها ثانية كانت مجموعة النساء التابعات لها نحيلات قصيرات ساذجات فى منظرهن وهن لابسات ملابس مهلهلة يجئن لأخذ البضائع بعيدا .

وكانت هذه أقصر رحلة عبر النهر ولكنها على نفس درجة الخطورة التى تحدث أثناء ربط وفك القوارب بصندل السفينة . وفى هذه الأيام كانت السفينة تغادر المدينة فى الرابعة بعد الظهر حيث يحط الليل حينما تكون "زابت" ومجموعة النساء التابعات لها قد جئن لإلقاء بضاعتهن عبر السفينة البخارية ثم تنتظر "زابت" حتى تغيب السفينة البخارية والصندل ثم تختفى الأنوار . حينئذ تقوم هى ومساعداتها بالإبحار عبر قناتهم السرية ويمضى عملهن الليلى فى التجديف تحت الأشجار الملتفة أما عن الذهاب إلى المنزل بالليل وبالنسبة لى فلم يكن هناك الكثير من الرحلات النهرية بالليل ، فلم أحبها حيث لم أكن فى وضع السيطرة على الموقف . ففى ظلام النهر والغابة لايكون فى وسعك أن تتأكد من أى شىء إلا إذا كنت تراه . وفى الليالى حتى المقمرة منها فإنك لاتستطيع أن ترى شيئاً كثيراً . وحينما تحدث صوتا أو تغمس المجداف فى الماء فإنك تستمع إلى نفسك كما لو كنت شخصاً آخر ، وفى النهر والغابة تحس بوجودهما على أنهما أشياء أكثر قوة منك حينئذ تحس بأنك بلا حماية كما لو كنت شخصاً دخيلاً على المكان .

أما فى ضوء النهار رغم أن الألوان قد تبدو باهتة وشبحية ومع الضباب الحار الذى قد يوحى فى بعض الأوقات ببرودة الجو تستطيع أن تتخيل المدينة وهى تنتشر ويعاد بناؤها وتستطيع أن تتخيل الغابات وقد تم إجتثاثها والطرق وقد عبدت عبر الجداول والمستنقعات . كما تستطيع أن تتخيل الأرض وقد أصبحت جزءا من الحاضر وهذا هو ما حاول "الرجل الكبير" أن يصوغه فيما بعد مانحا إيانا رؤية لمائتى ميل من المنتزه الصناعى على طول النهر (ولكنه لم يكن يعنى هذا فى حقيقة الأمر وإنما كان ذلك مجرد رغبته فى أن يبدو كأنه ساحر عظيم أكثر قوة من أى شخص آخر عرف من قبل) . وفى النهار رغما عن كل شىء فإنك تستطيع أن تؤمن بذلك الحلم فى المستقبل . وحينئذ تستطيع أن تتخيل الأرض وقد أصبحت شيئاً عاديا جاهزة لأناس مثلك على أنها قطع صغيرة وهو ماحدث لفترة وجيزة قبل الاستقلال وهى نفس القطع التى تحولت الآن إلى حطام .

أما بالليل وإذا ماكنت على النهر فالأشياء تبدو بشكل آخر . حينئذ تحس أنت أن الأرض تأخذك إلى الوراء نحو شيء تعرفه جيدا ، شيء عرفته فى وقت ما لكنك نسيته أو تجاهلته لكنه ظل هناك على الدوام . وتحس بأن الأرض تأخذك إلى الوراء لما كان هناك منذ مائة عام وإلى ما كان دائماً هناك .

وأى رحلات كانت تقوم بها "زابت" !! تبدو كما لو كانت تأتى كل مرة من مكانها الخبىء لتخطف من الحاضر أو من المستقبل بعض البضاعة الثمينة لتأخذها هناك إلى أهلها فى القرية ، ومثلا هذه الشفرات للحلاقة التى تؤخذ من علبتها لتباع واحدة واحدة على أنها معجزات من المعدن وتبدو هذه البضاعة التى تصبح أغلى ثمناً وقيمة كلما بعدت عن المدينة واقتربت من قرية الصيادين التى أتت منها والتى تعيش كعالم حقيقى آمن فى حماية الغابة وممرات المياه الموحلة من قدوم أى رجال غرباء . كما أنها محمية بطرق أخرى كذلك . ويعرف كل رجل هنا أنه يعيش تحت رقابة أسلافه من فوق والذين يعيشون إلى الأبد فى مجال أكثر علوا كما أن مرورهم فوق الأرض ليس شيئا منسيا ولكنه محفوظ بالضرورة كجزء من حاضر الغابة . وفى أعمق أعماق الغابة يوجد الأمن بصورة عظيمة وهو الأمن الذى تخلفه "زابت" وراءها من أجل أن تأتى ببضاعتها الثمينة وهو الأمن الذى تعود إليه بعد كل رحلة .

لا أحد يحب الذهاب خارج أرضه ، ولكن "زابت" كانت تسافر دونما خوف وكانت تروح وتجيء بحقيبة نقودها ولم يتعرض لها أحد . ولهذا فلم تكن "زابت" شخصا عاديا كما أن مظهرها لم يكن يشبه أبدا مظهر بقية الناس فى منطقتنا الذين كانوا صغيرى البدن والبنية ولونهم أسود جدا . أما "زابت" فكانت إمرأة ضخمة ذات لون نحاسى وكانت تبدو هناك فى بعض الأوقات هذه المسحة النحاسية وخاصة على عظام وجنتيها كأنها مساحيق صناعية . وكان هناك شيء آخر بالنسبة لـ "زابت" وهو رائحة خاصة تفوح منها ، إنها رائحة قوية غير محببة وكنت أعتقد فى بادىء الأمر نظرا لأنها تأتى من قرية تشتغل بصيد السمك أن هذه الرائحة هى رائحة قديمة وثابتة للسمك أو أنها رائحة ناتجة عن نظام الطعام المحدود الذى

تعيش عليه القرية لكن رائحة بقية أهالى قرية "زابت" الذين التقيت بهم لم تكن كرائحة "زابت" . وكان الأفريكان يلاحظون رائحتها حتى أنهم كانوا يشمخون بأنوفهم أو يتركون المكان إذا ما حدث وجاءوا إلى المحل أثناء وجود "زابت" .

وكان "ميتى" الصبى نصف الأفريقى الذى شب فى منزل عائلتى عند الشاطىء والذى جاء ليلحق بى يقول ان رائحة "زابت" كانت من القوة بحيث تستطيع أن تطرد الناموس !! وفى رأيى أنا أن هذه الرائحة هى التى أبعدت الرجال عن "زابت" رغم إمتلاء جسمها وهو الامتلاء الذى يحبه الرجال هنا ، ورغم حقيبة النقود التى تحملها ، ذلك أن "زابت" لم تكن متزوجة كما أنها لاتعيش مع رجل وذلك على حد علمى بأحوالها .

ولكن هذه الرائحة كانت مقصودة لابقاء الناس على درجة من البعد . ولقد كان "ميتى" الذى تعلم التقاليد المحلية سريعا هو الذى أخبرنى أن "زابت" كانت ساحرة وأنها معروفة فى منطقتنا بأنها تشتغل بالسحر وأن رائحتها هى رائحة الدهانات الطبية الحارسة لها . وبينما تقوم النساء الأخريات بوضع الروائح الطبية والعطور ليكن جذابات كانت "زابت" تضع الدهانات كى تطرد وتحذر إنها تعلم هذا كما يعلمه الأخرون كذلك .

ومن ناحيتى فلقد تعاملت مع "زابت" على أنها تاجرة وعميلة جيدة . ولكن بعد ما علمت أنها شخص قوى ونبيه فى منطقتنا لم استطع أن أنسى ذلك أبدا وهكذا عمل السحر عمله علىّ كذلك .

■ ٢ ■

لقد كانت أفريقيا هى وطنى وكانت وطن عائلتى منذ عدة قرون . ولكننا جئنا من الساحل الشرقى وهو ماجعل الأمر يختلف . والساحل لم يكن افريقيا فى حقيقة الأمر ولكنه كان مكانا عربيا هنديا فارسيا وبرتغاليا كذلك ، وكنا نحن الذين نعيش هناك شعبا من المحيط الهندى فى الواقع . وكانت افريقيا الحقة وراء ظهرنا تفصلنا مئات الأميال من الرمال عن أهالى الداخل ، وكنا نتطلع بأبصارنا إلى الشرق نحو البلدان التى كنا نتبادل التجارة معها مثل الجزيرة العربية والهند وايران وكانت هذه البلدان هى بلاد أسلافنا أيضا . ولكننا لم يكن بوسعنا بعد أن نقول إننا عرب أو هنود أو ايرانيون ، وكنا حينما نقارن أنفسنا بهذه الشعوب نميل إلى أن نكون تابعين لشعب افريقيا .

كنا مجموعة خاصة مستقلة عن الآخرين وكنا فى عاداتنا واتجاهاتنا أقرب إلى الهندوس التابعين لشمال غربى الهند وهى المناطق التى جئنا أصلا منها . ولم يخبرنى أحد متى أتينا من هناك ولم نكن نحن ذلك النوع من الشعب ولكننا كنا نعيش ببساطة وكنا نعمل ما كان متوقعا منا أن نفعله ومارأينا الجيل السابق كان يفعله . ولم نسأل أبدا لماذا ولم نسجل أحوالنا وإن كنا نحس فى عظامنا أننا كنا شعبا عريقا جدا لكننا كنا نبدو وكأننا بلا وسيلة لقياس مرور الزمن . ولم يكن والدى أو جدى يستطيعان وضع التواريخ فى قصصهم وذلك ليس لأنهم قد نسوا أو أن الأمر اختلط عليهم ولكن الموضوع هو أن الماضى كان هو الماضى ولا شىء غير ذلك .

واتذكر أننى سمعت من جدى أنه قام بشحن قارب من العبيد على أنها شحنة من المطاط . ولم يستطع أن يخبرنى متى فعل ذلك ولايزيد الأمر على

أنه كان هكذا فى ذاكرته شيئا يطفو حواليها بدون تاريخ أو أى ارتباطات أخرى مثل حدث غير عادى فى حياة غير مهمة . ولم يكن يروى هذه الواقعة على أنها حادث وضيع أو مخادع أو أنه مجرد نكتة ولكنه كان يرويها على أنها شىء غير عادى قام به وليس لأنه شحن بعض العبيد ولكن لأنه وصفهم كشحنة من المطاط . وبغير ذاكرتى الشخصية عن قصة هذا الرجل العجوز فإننى افترض أنها قطعة من التاريخ التى فقدت وإلى الأبد . وأعتقد نتيجة لقراءاتى المتأخرة أن فكرة المطاط لم تخطر على بال جدى إلا فى الفترة قبل الحرب العالمية الأولى بعد ما أصبح المطاط تجارة واسعة النطاق كما أصبح فضيحة كبرى فى افريقيا الوسطى . وهكذا تعرفت على بعض الحقائق التى كانت قد بقيت مختفية أو غير هامة بالنسبة لجدى .

وعن هذه الفترة الكاملة من الاضطرابات فى افريقيا ـ وهى طرد العرب وتوسع أوربا وتقسيم القارة . كانت هذه هى قصة العائلة الوحيدة التى أعرفها ، وهذا هو نمط الشعب الذى كنا منه حيث أن كل ما عرفته عن تاريخنا وعن تاريخ المحيط الهندى حصلت عليه من الكتب التى كتبها أوربيون وإذا كنت أقول إن العرب الذين عرفناهم كانوا فى وقتهم مغامرين وكتابا عظماء وأن بحارتنا هم الذين أعطوا للبحر الأبيض المتوسط الشراع المثلث الذى جعل اكتشاف الأمريكتين شيئا ممكنا وأن بحارا هنديا هو الذى قاد "فاسكودى جاما" من شرق افريقيا إلى مدينة كلكتا وأن كلمة "شيك" نفسها قد استعملت أول ما استعملت بمعرفة تجارنا الايرانيين ـ وإذا كنت أقول كل هذه الأشياء فذلك لأننى حصلت عليها من الكتب الأوربية ولم تكن هذه الحقائق تشكل جزءا من معرفتنا أو كبريائنا وبدون الأوربيين فأنا أحس أن كل ماضينا كان سيندثر ويمحى مثل العلامات التى يضعها الصيادون على الشاطىء خارج مدينتنا .

وكان هناك سياج على هذا الشاطىء وكانت الحيطان من الطوب الأحمر . وكان هذا السياج حطاما مدمرا حينما كنت صبيا وفى افريقيا الأستوائية أرض المباني المؤقتة كان ذلك بمثابة قطعة نادرة من التاريخ ، وفى هذا

السياج يتم الاحتفاظ بالعبيد بعد نقلهم من داخل القارة على هيئة قوافل وهناك كانوا ينتظرون السفن لتأخذهم عبر البحر . وإن كنت لاتعرف فإن هذا المكان لم يكن شيئا وإنما مجرد حيطان أربعة متهدمة مثل هذه التى تراها فى صورة بطاقات البريد التى تحتوى الشاطىء وأشجار جوز الهند .

وكان العرب قد حكموا هنا فى فترة ما ثم جاء الأوربيون الذين يستعدون الآن للرحيل . ومع ذلك فلم يتغير فى أساليب الرجال وعقولهم الشىء الكثير فمازالت قوارب الصيادين على هذا الشاطىء وقد رسمت عليها عيون كبيرة فوق مقدمة القارب جلبا لحسن الحظ ويغضب الصيادون بشدة حتى أنهم يصبحون مستعدين للقتل إذا ما حاول بعض الزوار تصويرهم كما لو كان سوف يسرق منهم أرواحهم ، ومازال الناس يعيشون كما كانوا دائما دون أن تحس بأن هناك فاصلا بين الماضى والحاضر . وكل الذى حدث فى الماضى قد تم محوه ولم يعد يوجد غير الحاضر ويبدو أن ضوء الصباح المبكر كان دائما يتراجع داخل الظلام حتى أن الناس كانوا يعيشون على مايبدو - بسبب اضطرابات فى الفلك - فى فجر دائم .

ولم تكن عبودية الشاطىء الشرقى مثل عبودية الشاطىء الغربى ذلك أنه لم يكن هناك من يتم شحنهم إلى المزارع . ولقد ذهب معظم العبيد الذين غادروا شاطئنا إلى البيوت العربية ليعملوا كخدم فى المنازل . وأصبح بعضهم أعضاء في الأسرة التى التحقوا بها وأصبح القليل منهم رجالا أقوياء على طريقتهم الخاصة . وبالنسبة للأفريقى فإن طفل الغابة الذى مشى عدة مئات من الأميال قادما من داخل القارة وبعد ما أصبح بعيدا عن قريته وقبيلته فإن قيامه بعمل حماية أسرة أجنبية كان أفضل لديه من أن يظل وحيدا بين افريقيين غرباء عليه وغير أصدقاء له . ولعل هذا أحد الأسباب التى من أجلها ظلت تجارة العبيد تجرى لزمن طويل بعد ما تم تحريمها بمعرفة الدول الأوربية ، كما أن ذلك يعد سببا فى أن يقوم جدى - فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون يتعاملون فى نوع واحد من المطاط - بالتعامل بعض الوقت وبين الحين والحين فى نوع آخر منه . كما أن هذا هو السبب فى أن التجارة السرية للعبيد استمرت على الساحل حتى عن قريب

والعبيد أو الناس الذين كانوا يعتبرون عبيدا كانوا يرغبون فى البقاء كما هم وعلى حالهم .

وفى دار عائلتى الكبير كانت هناك عائلتان من العبيد واستمرتا هناك لفترة ثلاثة أجيال على الأقل وآخر ما يريدون سماعه هو أن يطلب منهم أن يخرجوا من الخدمة . ومن الناحية الرسمية كان هؤلاء مجرد خدم لكنهم يريدون أن يعرفوا بالنسبة لغيرهم عن الافريقيين وفقراء العرب والهنود أنهم عبيد فى حقيقة الأمر ، ولم يكن ذلك لأنهم كانوا فخورين بكونهم عبيدا ولكن ما يثير غضبهم هو ارتباطهم الخاص بعائلة ذات اسم كبير ويصبحون شديدى الخشونة مع الناس الذين يكونون أقل شأنا من العائلة .

وعندما كنت صغيرا كانوا يأخذوننى للتنزه فى الحارات الضيقة ذات الجدران البيضاء فى الجزء القديم من المدينة حيث يقع منزلنا هناك . وكانوا يجعلوننى استحم والبس ملابسى ثم يضعون الكحل فى عينى ويضعون تميمة الحظ حول عنقى ثم يقوم "مصطفى" أحد الرجال الكبار فى السن فى منزلنا برفعى فوق كتفيه . وهكذا كنت أتنزه : وأنا فوق كتفى "مصطفى" يستعرضنى ويستعرض قيمة العائلة كما يستعرض مكانته المرموقة داخل عائلتنا . وكان هناك بعض الصبية الذين يشتموننا حينئذ كان "مصطفى" ينزلنى من على كتفيه إذا ما قابلنا هؤلاء الصبية ويحرضنى على أن أنطق بالشتائم والإهانات لهم ويقوم هو ببعض الشتائم بنفسه ثم يحرضنى على عراكهم حتى إذا وجد أن الاشتباك قد أصبح عنيفا علىّ يقوم بانتشالى من بين أقدامهم وأيديهم ثم يضعنى على كتفيه من جديد كى نواصل رحلة التنزه .

ويبدو الحديث عن "مصطفى" والجزيرة العربية والمراكب ذات الأشرعة الثلاثية كأنه بعض قصص "ألف ليلة" ، ولكن حينما أفكر فى شأن "مصطفى" وحتى حينما أسمع كلمة "عبد" فإننى أتذكر على الفور بيت أسرتنا كمزيج من حوش المدرسة وحوش المنزل وكل هؤلاء الناس الذين يصرخ بعضهم دائما وكميات من الغسيل المعلقة على الحبال أو المنشورة فوق الحجارة البيضاء والرائحة الحمضية لهذه الحجارة تتداخل

مع رائحة المرحاض وركن التبول المعزول واكوام من الأطباق الخزفية النحاسية فوق منصة الغسيل فى منتصف الحوش والأطفال الذين يجرون هنا وهناك وعمليات طهو الطعام التى لاتنتهى فى المبنى المسود للمطبخ . ثم اتذكر أيضا فجيج النسوة والأطفال من إخوتى وعائلاتهم والخدم من النساء وعائلاتهن كذلك ، وكل منهم فى صراع مستمر كما أتذكر المعارك فى حجرات العائلة ومثيلاتها فى حجرات الخدم . وكان هناك الكثيرون منا فى هذه الدار الصغيرة . ولم نكن نحتاج كل هؤلاء فى حجرات الخدم ولكنهم ليسوا خدما عاديين ولم يكن هناك امكانية التفكير فى التخلص منهم بعد ما أصبحنا ملتصقين بهم .

وهذا هو الحال فى الساحل الشرقى حيث كان بوسع العبيد أن يسيطروا وباكثر من طريقة واحدة . وكان الناس فى منازل الخدم قد أصبحوا غير افريقيين تماما . ولم يكن هذا شيئا معترفا به فى داخل العائلة ولكن هناك فى بعض تسلسل خط العائلة امتزاج الدم الأسيوى بدماء هؤلاء الناس ، وكان "مصطفى" قد حصل على دم "جوجورات" فى عروقه وكذلك "ميتى" الذى قطع طريق القارة وجاء ليلحق بى بعد ذلك ، وكان هذا هو إنتقال الدم من السيد إلى العبد .

ولقد حكم العرب بوصفهم مكتشفين ومحاربين عظماء . ولقد اقتحموا القارة حتى أعماق الداخل وأقاموا المدن وزرعوا البساتين فى الغابات واستمروا كذلك حتى تحطمت قوتهم على يدى الأوربيين . ولم يعد العرب يتحركون بدافع فكرتهم عن وضعهم فى العالم وضاعت طاقاتهم ونسوا ماكانوا عليه ومن أين جاءوا ، كانت رحلتهم بالجزيرة العربية وجذورهم هناك قد انقطعت وأصبحوا يتزوجون النساء الأفريقيات اللاتى كن عبيدهم من قبل وسرعان ما أصبح العرب أو الناس الذين يسمون أنفسهم عربا غير متميزين عن الافريقيين ولم يبق لهم سوى فكرة ما عن حضارتهم الأصلية . ولم تعد لديهم غير فكرة ضئيلة عما فعله أسلافهم فى افريقيا .. ولم يبق لهم غير عادة السلطة بدون الطاقة او التعليم الذى يدعم هذه السلطة . وسلطة العرب والتى كانت سلطة حقيقية حينما كنت صبيا لم تعد الآن غير مجرد تقليد ويمكن أن تنفجر فى أى وقت فالعالم هو ما هو .

ولقد كنت قلقا على العرب مثلما كنت قلقا علينا كذلك . وبالنسبة لفكرة القوة فإنه ليس هناك فرق بين العرب وبيننا فنحن كلينا مجموعات صغيرة تعيش تحت سلطة العلم الأوربى عند حافة القارة . وفى منزل عائلتنا حينما كنت طفلا لم أسمع أبدا مناقشة حول مستقبلنا أو مستقبل الساحل وكان الافتراض هو أن الأشياء سوف تستمر وأن الزيجات سوف تستمر فى الأعداد بين الفرقاء المتفقين وأن التجارة والعمل سوف يستمران وأن افريقيا سوف تستمر ملكا لنا كما كانت دائما .

ولقد تزوجت شقيقاتى على الطريقة التقليدية وكان من المفروض أننى سوف أتزوج كذلك حينما يأتى الوقت وأقوم بامتداد الحياة فى منزل العائلة ولكن فرصة الزواج جاءت حينما كنت صغيرا جدا وبينما كنت فى المدرسة وهو مايشير إلى أن طريقتنا فى الحياة قد عفا عليها الزمن ووصلت إلى نهايتها .

وهناك من الأمور الصغيرة مايمكن أن يوقظنا على طرائق أخرى فى التفكير وكان ما أيقظنى أنا هو طوابع البريد لمنطقتنا وكانت الادارة الانجليزية قد اعطتنا طوابع جميلة وكانت تصور المناظر المحلية والأشياء المحلية ، منها طابع يسمى "القارب العربى ذو الأشرعة الثلاثة" . وهذا كما لو أن أحد الأجانب يقول عن هذه الطوابع "هذا هو أكثر الأشياء إثارة فى هذا المكان" وبدون هذا الطابع عن القارب العربى فلقد كنت سوف أتخذ هذا القارب شيئا مسلما به . وكما حدث فلقد تعلمت النظر إلى هذه القوارب كلما وجدتها وهى ثابتة فى مدخل المياه وكنت أرى أنها شىء غريب فى منطقتنا يتسم بأنه غير مألوف ويدفع الأجانب إلى التعليق عليه رغم أنه شىء غير حديث مثل البواخر وسفن الشحن التى ترسو فى أرصفة الموانىء الحديثة عندنا .

وهكذا وفى سن مبكرة ترسبت لدىّ عادة النظر بعد أن أنزع نفسى من المنظر المألوف محاولا المنظر إليه من على بعد ومن هذه العادة للنظر جاءت إلىّ فكرة أننا كمجتمع قد تخلفنا إلى الوراء وهو ماشكل لى بداية الإحساس بعدم الأمان .

ولقد تعودت النظر إلى هذا الإحساس بعدم الأمان على أنه ضعف أو فشل فى مزاجى الخاص وكنت أحس بالخجل كلما اكتشف أحد هذا الموضوع . ولقد احتفظت بأفكارى عن المستقبل لنفسى وكان هذا شيئا سهلا فى منزلنا الذى - وكما قلت من قبل - لم يعرف شيئا مثل النقاش السياسى داخله . ولم تكن عائلتى من الأغبياء فلقد كان والدى وأخوته تجارا ورجال أعمال وكانوا يحاولون مجاراة العصر وكانوا يستطيعون تقدير المواقف وأن يتخذوا قرارات بالمخاطرة وفى بعض الأحيان يتسم سلوكهم بالجرأة البالغة . ومع ذلك فلقد كانوا مدفونين عميقا فى حياتهم ولم يكن بوسعهم أن يقفوا وينظروا فى طبيعة حياتهم هذه ، وكانوا يفعلون ما كان يتحتم عليهم عمله حتى إذا ساءت الأمور حينئذ يبقى لهم عزاء الدين ولم يكن هذا العزاء مجرد استعداد لقبول القدر ولكنه كان اعتقادا هادئا وعميقا بتفاهة عمل الانسان على اطلاقه .

وليس بوسعى أن أعلو إلى هذا المستوى فلقد كان تشاؤمى وإحساسى بعدم الأمان تجربة أرضية . فلقد كنت أفتقد الحس الذى كان متوافرا فى عائلتى . وكان الإحساس بعدم الأمان عندى ناتجا عن عدم ايمانى الحقيقى وكان شبيها بالتغير البسيط فى التشاؤمية السامية فى اعتقادنا وهى التشاؤمية التى تدفع الانسان إلى عمل المعجزات . وكان ذلك ثمنا لاتجاهى المادى ومحاولتى لامتلاك المسافة الوسط بين الاستغراق فى الحياة والترفع عن اهتمامات الأرض .

وإذا ما كانت مشاعر عدم الأمان بخصوص وضعنا على الساحل كانت بسبب مزاجى الخاص فإن شيئا كثيرا لم يحدث لإزالة هذا الشعور . ولقد بدأت الأحداث فى هذا الجزء من افريقيا تتحرك سراعا . ففى الشمال كان هناك التمرد الدموى الذى تقوم به إحدى قبائل الداخل والتى لم تستطع الادارة البريطانية اخمادها كما كانت هناك انفجارات للتمرد والثورة فى غيرها من الأماكن كذلك . ولم أكن أظن أن عصبيتى وحدها هى التى تجعلنى أحس أن النظام السياسى الذى عرفناه قد وصل إلى نهايته وأن النظام الذى سوف يخلفه سوف يكون طيبا . وكنت أخاف الأكاذيب ذلك أن السود كانوا ينتحلون أكاذيب البيض .

ولقد كانت أوروبا هى التى أعطتنا على الساحل فكرة ما عن تاريخنا وهى أيضا التى قدمتنا إلى الأكذوبة . كنا نحن الذين عشنا فى هذا الجزء من افريقيا قبل الأوربيين لانعرف الكذب على أنفسنا . ولم يكن هذا لأننا أكثر أخلاقية ولكننا لم نكذب لأننا لم نقيّم أنفسنا ولم نفكر فى أن هناك شيئا يدعونا للكذب وكنا شعبا نفعل ببساطة مايتعين علينا أن نفعله . ولكن الأوربيين كانوا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ويقولوا شيئا مخالفا له تماما وهم يفعلون هذا لأن لديهم فكرة عما هم مدينون به إلى حضارتهم وكان هذا هو امتيازهم العظيم علينا . ويريد الأوربيون الذهب والعبيد مثل أى انسان آخر ولكنهم يريدون فى نفس الوقت رفع التماثيل باسمهم على أنهم شعب فعل أشياء طيبة للعبيد . ولأنهم شعب ذكى وقوى يعيش ذروة إحساسه بالقوة فإنهم يستطيعون أن يعبروا عن الوجهين الأثنين لحضارتهم ويحصلوا فى نهاية المطاف على العبيد والتماثيل .

ولأن الأوربيين يستطيعون تقييم أنفسهم فإنهم مسلحون بشكل أفضل لمواجهة التغييرات أكثر منا . وأنا أرى حينما أقارن بين الأوربيين وبيننا أننا توقفنا عن أن نكون شيئا ما فى افريقيا وأنه لم يعد لدينا مانعطيه . والأوربيون مستعدون للخروج من افريقيا أو الحرب أو ملاقاة الافريقيين فى منتصف الطريق بينما نستمر نحن فى الحياة كما فعلنا دائما . وحتى فى مثل هذه المرحلة الأخيرة فإنه لايوجد أبدا شىء ينتسب إلى المناقشة السياسية فى منزلنا أو منازل الأسر التى أعرفها ولأن الموضوع يتم تجنبه فإنى اتجنبه بدورى .

تعودت أن أقوم مرتين فى الأسبوع بلعب الاسكواش فى ملعب الأسكواش عند صديقى "اندار" . جاء جده من البنجاب فى الهند كى يعمل عامل يومية ونجح هذا البنجابى العجوز فى عمله . وعندما عمل خارج العقد المقرر له استقر فى الساحل وأخذ يعمل فى إقراض النقود داخل السوق حيث يقوم بإقراض عشرين أو ثلاثين شلنا فى المرة الواحدة لأصحاب الأكشاك الذين يحتاجون المال ويعتمدون على هذه السلف لشراء بضائعهم . وكان جده يستعيد الشلنات العشرة التى يقرضها هذا الأسبوع

اثنى عشر أو خمسة عشر فى الأسبوع الذى يليه . ورغم أن هذا لم يكن أحسن نماذج العمل إلا أنه كان رجلا نشطاً وقويا ، بهذا يستطيع أن يضاعف رأسماله عدة مرات فى السنة الواحدة . ولقد كان ذلك خدمة وعملا وأكثر من وظيفة لكسب العيش . وأصبحت الأسرة كبيرة جدا وأصبحوا تجارا ورجال بنوك بطريقة غير رسمية يراهنون على شركات صغيرة رابحة ومشروعات تجارية مع الهند والجزيرة العربية والخليج الفارسى .

وكانت العائلة تعيش فى دار كبيرة فى حوش يغطيه الأسفلت أما المنزل الرئيسى فيقع على الطرف البعيد ، وهناك منازل صغيرة لأعضاء العائلة الذين يريدون أن يعيشوا بمفردهم بالاضافة إلى منازل الخدم بأنواعهم وكان هناك أيضا ملعب الأسكواش . كل شىء محاط بحيطان عالية مطلية باللون الداكن وهناك بوابة عليها أحد الحراس . وكانت الدار تقع فى الجزء الجديد من المدينة ولا أظن أنه من الممكن أن يكون هناك مكان أكثر أمنا أو خصوصية من هذا المكان .

الأغنياء لاينسون ابدا أنهم أغنياء وهكذا كنت أنظر إلى "اندار" على أنه ابن طيب لعائلته التى تعمل بالبنوك وإقراض المال . وكان "اندار" وسيما ومهتما بمظهره ومخنثا بعض الشىء وعليه سمات تعبير خاص وهو ماكنت أفسره بأنه إحساس بثروته مضافا إلى ذلك قلقه الجنسى . وكنت أظن أنه يعمل فى بيت دعارة سرى ويعيش فى خوف من اكتشاف أمره أو الاصابة بمرض جنسى .

وكنا نشرب عصير برتقال بارد وشايا أسود ساخنا بعد أن انتهينا من شوط الأسكواش وكان "اندار" شديد الحرص على وزنه ـ حينما أخبرنى بأنه قرر السفر . وقال إنه سوف يمضى بعيدا الى بريطانيا ليلتحق بجامعة شهيرة وفى دراسة تستمر ثلاث سنوات . وكان من خصائص "اندار" وعائلته أن يعلنوا الأخبار الهامة بمثل هذه الطريقة العارضة . وقد أصابتنى هذه الأنباء بالغم بصورة ما ذلك أن "اندار" يستطيع أن يفعل مايفعله وليس لأنه غنى فحسب ـ وأنا أربط بين الذهاب للخارج للدراسة وبين الغنى الشديد ـ ولكن لأنه ايضا استمر فى الجامعة المحلية للغة الانجليزية

حتى سن الثامنة عشرة بينما تركت الجامعة وأنا فى السادسة عشرة . ولم يحدث ذلك لأننى لم أكن ذكياً بالقدر الكافى أو أننى لم أكن أمتلك الرغبة فى الدراسة ولكن لأنه لم يوجد أحد فى عائلتى استمر فى المدرسة بعد سن السادسة عشرة .

وكنا نجلس على عتبات ملعب الاسكواش فى الظل حينما قال لى "اندار" بطريقته الهادئة : "إننا بلا قيمة هنا وأنت تعلم أنه لكى تعيش فى افريقيا فإنه يتعين عليك أن تكون قويا ونحن لسنا أقوياء وأننا مازلنا حتى الأن بلا علم نرفعه" .

ولقد ذكر "اندار" ما لاينبغى ذكره وفور نطقه بالكلام رأيت حائط داره الكبيرة بلا قيمة ورأيت مافعله "جيلين" من جهد واحسست بالرثاء لهذا الجهد الضائع . ولقد أحسست كذلك فور نطق "اندار" بهذه الكلمات أننى استطيع أن أدخل الى عقله وأن أرى مايراه وهو الصفة الساخرة من العظمة وهذه البوابة الضخمة والحارس الذى لايستطيع أن يدرأ خطرا حقيقيا .

لكننى لم أبد أية إشارة توحى بأننى فهمت ما كان يتحدث عنه . ولقد تعرفت مثل هؤلاء الذين اثاروا غضبى وحزنى حينما رفضوا الاعتراف بأن التغيير كان قادما لهذا الجزء من العالم الذى نعيش فيه . وحينما قال "اندار" (ماذا سوف تفعل أنت ؟) قلت له كما لو كنت لا أرى أية مشكلة (إننى سوف أبقى للعمل فى التجارة) .

ولم يكن هذا حقيقيا على الإطلاق فلقد كان عكس ما أحسه تماما ولكنى وجدت أننى لست راغبا - حينما تم توجيه السؤال الىّ - فى أن أعترف بعجزى ووجدت أننى أسقط غريزيا فى اتجاهات عائلتى . ولكن الايمان بالقدر كان بالنسبة لى غير حقيقى ذلك اننى أهتم كثيرا بالعالم ، أتمنى الا اترك أى شىء . وكان كل ما أستطيع أن أفعله هو الاختفاء بعيدا عن الحقيقة ولقد جعلنى هذا الاكتشاف عن خبيئة نفسى أحس بأن المشى عائدا فى هذه المدينة الحارة شىء مزعج جدا .

وكانت شمس ما بعد الظهيرة تسقط على الطريق الأسفلتى الأسود الناعم وسياج النباتات وهذا شىء عادى ، لم يكن هناك أى خطر فى الزحام والشوارع المحطمة والحارات ذات الحيطان البيضاء ولكن المكان كان مصمما بالنسبة لى .

وكانت لى حجرة فى الدور الثانى فى منزل العائلة ، وكان النهار مازال هناك حينما عدت للمنزل . ونظرت للخارج من دارنا الكبيرة ورايت الأشجار والخضرة فى الأفنية المجاورة والفضاء المفتوح . وكانت عمتى تنادى على إحدى بناتها وكانت بعض أوانى الزهور النحاسية القديمة قد أخذت للخارج فى الحوش كى تنظف بالجير ولم تعاد للداخل . ونظرت إلى هذه المرأة الورعة التى تحتمى وراء حائطها ورأيت كيف يبدو تافها اهتمامها بآنية الزهور النحاسية ، وكان الحائط الرقيق المدهون باللون الأبيض "والذى هو اقل سمكا من حائط السياج الخاص بالعبيد عند الساحل" يحميها بصورة غير كافية . وكانت هذه المرأة قابلة للعطب فى شخصها وعاداتها وطريقتها فى الحياة . أما حوش المنزل فقد جمع لنفسه حياته الخاصة وله عالمه الكامل لفترة طويلة ، فكيف يستطيع أى منا أن يقف ليسأل أى شىء كان هو الذى يحمينا فى حقيقة الأمر ؟ .

تذكرت نظرة الاحتقار والضيق التى نظر بها "اندار" إلىّ وكان القرار الذى توصلت اليه هو أن اقر بنفسى ذلك أننى لا أستطيع أن أحمى أحداً وليس هناك من يستطيع أن يحمينى . كما أننا لانستطيع أن نحمى أنفسنا ولكننا نستطيع فحسب أن نختبىء من الحقيقة فى طرق متعددة ولهذا فإنه يتعين علىّ أن أنفصل عن منزل العائلة وعن المجتمع المحيط بها . وكان معنى بقائى فى دائرة المجتمع لكى أدعى أننى يجب علىّ أن أرحل معهم ببساطة هو أن اقبل أن أذهب للدمار معهم . أننى لن استطيع أن أكون سيد مصيرى إلا إذا وقفت وحدى . إن بعض المد فى التاريخ والذى نسيناه نحن قاصرِّ الحياة فقط على كتب الأوربيين التى يتعين علىّ أن أقرأها هو الذى أوصلنا إلى هنا . لقد عشنا حياتنا على طريقتنا وفعلنا ما كان يتعين

فعله وعبدنا الله واطعنا اوامره . والآن ـ وأنا أكرر صدى كلمات "أندار" ـ فأن مدا آخر من التاريخ يأتى ليأخذنا بعيدا ويمحونا .

إننى لن أخضع بعد الآن إلا لرغبتى ، لن أكون طبيا بالطريقة التى تدعو إليها تقاليدنا ولكن أن افعل الطيب . ولكن كيف ؟ ماذا أملك أنا كى أعطيه ؟ أى موهبة وأى مهارة غير مهارة التجارة الافريقية التى تقوم بها اسرتى ؟ ولقد ظل هذا القلق ينخر فى نفسى وهو السبب الذى جعلنى ـ حينما قدم ـ "نصر الدين" عرضه بأن أقيم محلا وعملا فى أرض بعيدة ولكنها داخل افريقيا ـ أن أتعلق فورا بهذا العرض .

كان "نصر الدين" غريبا على مجتمعنا . كان رجلا فى عمر والدى يبدو أكثر شبابا وحبا لهذا العالم . يلعب التنس ويشرب النبيذ ويتكلم الفرنسية ويلبس نظارة وحلة داكنة . كان معروفا بيننا (وهو ماكان يجعله عرضة للسخرية من وراء ظهره) بأنه صاحب تقاليد أوربية فى سلوكه التى لم يحصل عليها من أوربا (لأنه لم يذهب أبدا إلى هناك) ولكن من مدينة فى وسط افريقيا التى عاش فيها وأقام فيها نشاطه العملى) .

ومنذ عدة سنوات قام "نصر الدين" مستجيبا لهاجس فى خياله بتصفية عمله عند الساحل وبدأ الرحيل إلى داخل القرية . وكانت الحدود الاستعمارية لأفريقيا قد أعطت لعملياته طابعا دوليا . ولكن "نصر الدين" لم يعمل غير أن اتبع طرق التجارة التى انشأها العرب للداخل حيث أقام فى وسط القارة عند منحنى فى خط النهر العظيم .

وكان هذا هو المدى الذى وصل اليه العرب فى القرن الماضى . وهناك قابلوا أوربا التى كانت تتقدم من الاتجاه الآخر . وبالنسبة لأوربا كان ذلك بحثا بسيطا ، أما بالنسبة لعرب وسط افريقيا فلقد كانت كل شىء . وكانت الطاقة التى دفعت بهم إلى افريقيا قد ماتت فى مصدرها وأصبحت قوتهم مثل ضوء نجم مسافر بعد أن مات النجم نفسه . واختفت قوتهم عند منحنى النهر وقامت هناك مدينة أوربية ومن هذه المدينة يعود "نصر الدين" للظهور بيننا من وقت لآخر حاملا معه انماط سلوكه الغريبة الأجنبية وقصصه عن نجاحه التجارى .

ورغم أن "نصر الدين" كان غريبا عنا إلا أنه ظل مرتبطا بمجتمعنا لأنه كان يريد أزواجا وزوجات لأولاده . وكنت أعرف أنه كان يرى فى شخصى زوجا محتملا لإحدى بناته ولكننى عشت مع هذه المعلومة طويلا حتى أنها لم تكن بعد ذلك تمثل لى أى إحراج . ولقد كنت أحب "نصر الدين" وكنت أرحب بزياراته وحديثه واغترابه حينما كان يجلس معنا فى حجرة الصالون او الصالة ويتكلم عن العالم المثير البعيد الذى يعيش فيه .

كان رجلا يحب الحماسة ويتذوق كل مافعله ويحب المنازل التى اشتراها (وكلها صفقات) والفنادق التى يختارها وأطباق الطعام التى يطلبها . وكان كل شيء يمضى لصالحه وكانت حكاياته عن الحظ الذى لايخيب توشك أن تصبح غير محتملة لولا الموهبة التى يمتلكها فى وصف الأشياء وصفا جيدا . ولقد جعلنى اتمنى أن افعل ما فعل وأن اكون حيث كان حتى أصبح مثالى الذى أود أن أحتذيه فى كثير من الأشياء .

وكان الى جانب كل هذا من قراء الكف . وكانت قراءاته لها قيمة لأنه لايؤديها إلا وهو فى حالة نفسية مواتية تماما . ولقد قرأ لى كفى حينما كنت فى العاشرة أو الثانية عشرة من عمرى ورأى أشياء عظيمة فى هذه القراءة وهو ماجعلنى احترام أحكامه . وكان يضيف لهذه القراءة من حين لآخر . واتذكر مرة كان فيها يتأرجح ثم فجأة قطع حديثه ثم طلب منى أن أريه يدى . حينئذ أخذ يتحسس أطراف أصابعى ثم ثنى أصابعى ثم نظر إلى كفى ثم ترك يدى ثم أطرق لفترة قصيرة يتأمل ما رأى وكانت هذه طريقته ثم قال لى "أنت أكثر الناس الذين عرفتهم اخلاصا" . ولم اسعد بهذا فلقد بدا لى أنه لايعطينى حياة أبدا . وقلت له "هل تستطيع قراءة كفك ؟ وهل تستطيع أن تعرف ماذا يخبئه لك القدر ؟ وقال "لست أعرف .. لست أعرف" وتغيرت نبرة حديثه حينئذ ورأيت أن هذا الرجل الذى كانت كل الأشياء (وفقا لما يقول) تسير على أحسن وجه يعيش فى حقيقة الأمر برؤية للأشياء التى تسير بصورة سيئة . وقلت لنفسى أنه هكذا يجب أن يتصرف الانسان وأحسست بالقرب منه بعد ذلك اكثر من قربى لأهل منزلى أنفسهم .

ثم نزلت المصيبة التى كان بعض الناس يتوقعونها فى هدوء لهذا الرجل

الناجح وصاحب الأحاديث الممتعة وكان ذلك حينما أصبحت البلد التى يختارها "نصر الدين" دولة مستقلة وأصبحت الأنباء القادمة منها لأسابيع وشهور تحكى عن الحروب والقتل . ومن الطريقة التى كان بعض الناس يتحدثون بها فلقد كان من الممكن لك أن تعتقد أن "نصر الدين" لو كان شخصا آخر فى سلوكه وإذا ما كان أقل مباهاة بنجاحه ويشرب كميات أقل من النبيذ فإن الأحداث كانت سوف تأخذ مجرى آخر لها . ولقد سمعنا أنه هرب مع عائلته الى اوغندا وهناك خبر آخر يقول إنه مشى فى الغابة عدة أيام فوق ظهر إحدى عربات النقل ومضى وهو مصاب بالهلع وبائس الحال إلى مدينة "كيسورو" التى تقع على الحدود .

ولقد عاد "نصر الدين" فى الوقت المناسب إلى الساحل وكان قد عاد سالما على الأقل . ولقد خاب أمل الذين كانوا ينتظرون أن يروا "نصر الدين" كانسان محطم ولكنه عاد وهو فى حالة من المرح كما كانت عادته وهو يلبس النظارة والبدلة الداكنة وبدا كأن الكارثة التى نزلت لم تمسه على الإطلاق ، وكان من المعتاد حينما يأتى الينا "نصر الدين" فى زيارة لمنزلنا أن تبذل الجهود لاستقباله استقبالا حسنا وجديرا به ، فكانت حجرة الصالون يتم تنظيفها بشكل خاص وكانت أوانى الزهور والمشاهد المرسومة عليها قد تم تلميعها جيدا . ولكن هذه المرة وبسبب الاعتقاد أن "نصر الدين" هو رجل فى محنة وأصبح شخصا عاديا مرة ثانية مثلنا فلم يعبأ أحد بالنظافة أو حسن الاستقبال فكانت حجرة الصالون فى حالتها المعتادة من الفوضى وجلسنا فى الشرفة المطلة على فناء المنزل .

وأتت والدتى بالشاى وقدمته بالطريقة المعتادة التى تعبر عن كرم الناس البسطاء ولكنها تصرفت كما لو كانت تؤدى بعض الطقوس النهائية اللازمة . وعندما وضعت الصينية بدا عليها كما لو كانت على وشك أن تجهش بالبكاء وكان أزواج أخواتى قد أحاطوا بنا بوجوه متطلعة . أما بالنسبة لـ "نصر الدين" فإنه باستثناء هذه القصة عن الركوب لمسافة طويلة فوق عربة نقل ـ لم تكن هناك قصص عن الكوارث ولكن قصص عن النجاح والحظ . ولقد رأى "نصر الدين" المتاعب قادمة وقام بالافلات منها قبل مقدمها بشهور .

وقال "نصر الدين" إن الافريقيين ليسوا الذين سببوا له الاثارة العصبية ولكنهم الاوربيون وغيرهم . وقبل وقوع الانهيار يصاب الناس بالجنون . ولقد أصابتنا حالة من الانتعاش الخيالية فى الممتلكات ، حيث كان كل واحد يتحدث عن المال فقط . وعلى سبيل المثال فإن قطعة من أرض الغابة التى لا تساوى شيئا اليوم تجد أنها قد تباع بنصف مليون فرنك غدا . وكان الأمر يبدو كما لو كان سحراً ولكن بمال حقيقى . ووقعت أنا فى شبكته وكنت على وشك السقوط ضحية له .

وفى أحد أيام الآحاد خرجت إلى بعض المحلات حيث كنت قد اشتريت بعض الحصص القليلة وكان الجو سيئا حارا وثقيلا والسماء داكنة ولم تكن على وشك المطر ولكنها ستبقى هكذا . ولم يكن هناك ما يوحى بوقوع البرق . وكنت أظن أنها تمطر فى مكان ما فى الغابة وقلت لنفسى : أى مكان هذا لتعيش فيه !! وكنت أسمع النهر ذلك أننى لم أكن بعيدا عن الشلالات . ونظرت إلى السماء واستمعت للنهر ثم قلت لنفسى : هذه ليست ممتلكات . إنها مجرد غابة ولقد كانت دائما كذلك . ولم استطع الانتظار حتى صباح يوم الأثنين بعد هذا وعرضت كل شىء للبيع بأسعار منخفضة عن الأسعار الجارية ولكننى طلبت أن أحصل على نقودى فى أوربا فى الوقت الذى أرسلت فيه العائلة إلى أوغندا .

هل تعرف أوغندا ؟ إنها بلد جميل بارد يقع على ارتفاع ثلاثة أو أربعة آلاف قدم ويقول الناس عنها إنه يشبه اسكتلندا ولقد قام البريطانيون بإعطاء المكان أحسن ادارة يمكن أن يطلبها وكانت تتسم هذه الادارة بالبساطة والكفاءة فى نفس الوقت ، طرق رائعة وكان شعب البانتو هناك حاد الذكاء .

وهكذا كان "نصر الدين" الذى تخيلنا نحن أنه ضاع وقضى عليه . وبدلا من ذلك كان هو يحاول أن يثيرنا بحماسه لبلده الجديد طالبا منا أن ننتظر له الحظ ثانية . وكانت العناية والرعاية فى حقيقة الأمر كلها فى جانبه . ورغم أنه لم يقل شيئا بصراحة إلا أنه كان يرانا فى الساحل مهددين كما أنه جاء فى هذا اليوم ليقدم لى عرضا .

ومازال له بعض الاهتمام ببلده القديم وترك هناك محلا وبعض الوكالات . ولقد وجد من الحكمة أن يبقى على المحل فى الوقت الذى يحول فيه أرصدته خارج البلاد ليمنع الناس من أن ينظروا إلى خصوصياته عن قرب . وكان هذا المحل وهذه الوكالات هى التى اعتزم تقديمها الىّ .

وقال لى "نصر الدين" إن هذا المحل والوكالات لاتساوى شيئا الآن . ولكنها سوف تصبح لها قيمة فيما بعد . إننى يجب أن أعطيك هذه الممتلكات مقابل لاشىء ولكن هذا سوف يكون سيئا بالنسبة لى وبالنسبة لك . إنه يجب عليك أن تعرف متى تنسحب . ذلك أن رجل الأعمال ليس عالما فى الرياضة وعليك أن تتذكر ذلك ولاتجعل نفسك أبدا مسحورا بجمال الأرقام . إن رجل الأعمال هو انسان يشترى بعشرة ويسعده أن يبيع باثنى عشر . أما غيره من الرجال فهو يشترى بعشرة ويرى أنها تصعد إلى ثمانية عشر ثم لايفعل شيئا انتظارا لأن ترتفع إلى عشرين وهذا هو تأثير جمال الأرقام . وحينما تنخفض إلى عشرة مرة ثانية فإنه ينتظر أن تصعد إلى ثمانية عشر . وحينما تنخفض إلى اثنين فإنه ينتظر أن تصعد إلى عشرة . وقد يحدث أن تعود ثانية إلى هذا ولكن بعد أن يكون قد أضاع سدى ربع عمره ويكون كل ما حصل عليه من ماله هو مجرد بعض الإثارة الرياضية ولا أكثر .

وقلت له "هذا المحل مع افتراض أنك تبيعه بعشرة فماذا تقول لى إنك تبيعه لى بكم ؟ .

"اثنان . ففى غضون ثلاث أو أربع سنوات فإنه سوف يرتفع إلى ستة . فالتجارة لاتموت ابدا فى افريقيا ولكنها قد تتوقف بعض الوقت . وبالنسبة لى فإنه مضيعة للوقت ان اثنين سوف ترتفع الى ستة . فأنا أمامى الكثير فى تجارة القطن فى اوغندا . أما بالنسبة لك فإنه سوف يكون مضاعفة لراسمالك ثلاثة أضعاف . إن مايجب عليك أن تعرفه هو متى تبيع" . ولقد قرأ "نصر الدين" فى كفى الاخلاص ولكنه قرأنى خطأ لأننى حينما وافقت على قبول عرضه فإننى وبطريقة هامة كنت أقطع حبل الاخلاص معه . لقد قررت أن أقبل عرضه لأننى أردت أن أنفصل وأقطع صلاتى مع عائلتى ومجتمعى كما قصدت أن أنفصل واقطع صلتى بالتعهد غير المكتوب مع

"نصر الدين" وابنته .

لقد كانت فتاة رائعة . تأتى كل عام ولمدة أسابيع قليلة إلى الساحل كى تقيم مع أخت أبيها . وكانت أكثر منى فى شوط التعليم اثيرت أقاويل عن استعدادها لدراسة التجارة أو القانون . ولقد كانت فتاة جميلة بالنسبة للزواج ولكننى أعجب بها اعجابى بإحدى فتيات العائلة . ولم يكن هناك ما هو أكثر سهولة من زواجى بإبنة "نصر الدين" ولكنه لم يكن هناك بالنسبة لى ما هو أكثر اختناقا ومن أجل هذا الاختناق قمت بالركوب بعيدا حينما تركت الساحل فى عربتى البيچو .

ورغم أنى قطعت صلة الاخلاص مع "نصر الدين" الذى كان ذواقة للحياة وساعيا وراء التجربة إلا أننى اتخذته مثلى الأعلى لهذا كانت رحلتى فى عربتى إلى مدينته وكان كل ما أعرفه عن هذه المدينة التى تقع عند المنحنى فى خط النهر هو من أحاديث "نصر الدين" . وكانت هناك أشياء مثيرة للسخرية تؤثر فينا ونحن فى لحظات الاجهاد وكان ما قاله "نصر الدين" عن الفنادق فى المدينة وعن الطعام الأوربى والنبيذ فيها ماثلا فى خيالى حتى نهاية رحلتى بالعربة . وكان "نصر الدين" بحديثه عن الطعام والنبيذ يعنى أنه هناك فى افريقيا الوسطى يأتى النبيذ من البواخر على الساحل الشرقى وليس من عند الناس فى الجانب الآخر .

ولم أكن قد ذهبت إلى أى من المطاعم الأوربية أو تذوقت النبيذ ـ المحرم علينا ـ بأى درجة من المتعة وكنت أعرف أن الحياة التى وصفها "نصر الدين" قد بلغت نهايتها . ولكننى ذهبت بعربتى عبر افريقيا الى مدينة "نصر الدين" على أنها المكان الذى فيه سوف تخلق لى هذه الحياة من جديد .

وحينما وصلت وجدت أن المدينة التى تحدث "نصر الدين" عنها فى قصصه قد تم تدميرها وعادت إلى الغابة ورغما عنى ورغما عن كل ما قيل حول الأحداث الأخيرة فلقد أحسست بالصدمة والاحباط ولم يكن يهم فقدانى للاحساس بالاخلاص .

وكان من الصعب الحصول على ابسط أنواع الطعام ، وإذا احتجت الى الخضراوات فإنه عليك أن تحصل عليها من معلبات الصفيح القديمة المرتفعة الثمن أو أن تقوم انت بزراعتها . والافريقيون الذين غادروا المدينة وعادوا الى قراهم كانوا أحسن حالا حيث إنهم على الأقل قد ذهبوا إلى حياتهم التقليدية حيث كانوا مكتفين ذاتيا بصورة أو بأخرى . أما بالنسبة لنا نحن الذين كنا نحتاج إلى المحلات والخدمات وكنا عبارة عن بعض البلچيكيين وبعض اليونانيين والايطاليين والهنود فلقد كنا نعيش حياة روبنسون كروزو . وكان عندنا العربات وكنا نعيش فى منازل جيدة حتي أننى قمت بشراء شقة تطل على مستودع بضائع فارغ مقابل لاشىء تقريبا . ولكن المحلات كانت خالية من السلع وكانت المياه مشكلة وكانت الكهرباء غير منتظمة والغاز غالبا مايكون غير موجود . ولقد حدث أننا ظللنا لمدة عدة أسابيع بدون كيروسين . وفى هذه الأيام التى كنا نعيش بدون كيروسين كنت أقوم بغلى الماء فوق موقد حديدى يعمل بالفحم من صنع بريطانيا وكان الناس حولى يعملون نفس الشىء حتى أن المكان قد أصبح أزرق بفعل الدخان .

وكانت هناك الخرائب والانقاض وفوق أحدها الذى كان اثرا يقع خارج بوابة رصيف الشحن كانت هناك بعض الكلمات باللاتينية التى لم أكن أعرف معناها إلا أننى أعطيتها نطقى الخاص وحفظتها عن ظهر قلب . وكانت الكلمات منقوشة بالحفر على أعلى بلوك من الجرانيت أما باقى الجرانيت فكان عاريا من أى نقوش . وكان النحت المصنوع من البرونز تحت الكلمات قد نزع وكانت بقية قطع البرونز التى عشقت داخل الجرانيت توحى بأن النحات قد حفر بعض أوراق الموز وأغصان النخيل فى أعلى ليشكل لوحته . ولقد علمت أن هذا النحت الأثرى كان قد وضع منذ سنوات قليلة فى نهاية العصر الاستعمارى للاحتفال بمرور ستين سنة على قيام الخط الملاحى القادم من العاصمة . ولقد تم تدمير هذا النصب الخاص بالسفن الملاحية بعد قيامه بوقت قصير وهو ماحدث لكل التماثيل والنصب الاستعمارية حيث تم طمس قواعد التماثيل وسويت بالأرض الأسوار المخصصة لحمايتها كما حطمت الأنوار الكاشفة وتركت للصدأ ، ولقد

تركت الانقاض كما هى على حالها دون أى محاولة لاعادتها إلى أصلها كما تم تغيير جميع أسماء الشوارع الرئيسية ووضعت أسماء جديدة على لافتات خشنة الصنع ومع ذلك فإن هذه الأسماء الجديدة لم يستخدمها أحد حيث إنه لم تكن تهم أحدا . وكانت الرغبة هى فقط التخلص من القديم ومحق ذكرى الدخيل . وكان موهنا للقلب هذا العمق فى الغضب الأفريقى والرغبة فى التدمير بغض النظر عن النتائج .

ولقد كان موهنا للقلب أكثر من أى شىء آخر هو الضاحية المخربة بالقرب من الشلالات وكانت هذه الضاحية عقارات غالية القيمة لفترة وجيزة ثم تحولت الآن إلى قطعة من الغابة مرة ثانية وارض مشاع وفقا لسلوك الافريقيين . ولقد اضرمت النار فى المنازل واحدا وراء آخر وتم تجريدها قبل أو بعد الحريق من الأشياء التى يحتاج الناس المحليون اليها مثل الواح الصفيح وأحواض الاستحمام وأحواض الغسيل وأنية المرحاض . وكانت المروج الواسعة والحدائق قد أعيدت إلى مساحة الغابة ثانية واختفت الشوارع ونمت أشجار الكروم والنباتات المتسلقة فوق الحيطان الجرداء المحطمة المصنوعة من الأسمنت أو الطوب المجوف المصنوع من الصلصال . وكانت تبدو هنا وهناك داخل الغابة الواجهة الاسمنتية للمبانى التى كانت مطاعم ونوادى ليلية . وكان أحد النوادى الليلية يسمى "نابولى" ولكن الأسم الذى أصبح الآن بلا معنى والذى كان مرسوما على الحائط الأسمنتى قد أصبح حائل اللون .

ولقد اشتركت الشمس والأمطار وامتداد الغابة فى جعل المكان يبدو كما لو كان قديما مثل موقع لحضارة ميتة . وتمتد الأنقاض على مساحة أفدنة عديدة بحيث تتحدث وحدها عن حادثة تامة ورغم كل هذا فلم تمت الحضارة بصورة كلية تلك الحضارة التى كنت موجودا فيها وأعمل من أجلها ، ولقد كان هذا مبعث إحساس غريب ذلك ان وجود الانسان بين الأنقاض يجعل إحساسه بالزمن غير مستقر حتى أنك تحس بأنك شبح ولكن لست من الماضى وإنما من المستقبل . كما تحس بأن حياتك وطموحك قد قضيا بالفعل وأنت لاتفعل غير أن تنظر إلى بقايا الأنقاض لهذه الحياة حيث إنك فى مكان جاء فيه المستقبل وذهب .

وكانت مدينة "نصر الدين" بانقاضها وكل اوجه النقص فيها مدينة أشباح وبالنسبة لى كقادم جديد لم يكن هناك ما هو أكثر أهمية من الحياة الأجتماعية . وكان المغتربون على قدر كبير من عدم الترحيب بالآخرين وكانوا مازالوا لايعرفون أى اتجاه سوف تأخذه الأحداث والأشياء مما جعلهم متوترين وكان البلجيك وبخاصة الشباب ضيقي الصدر ويعيشون فى إحساس بالغبن . أما اليونانيون وهم أسر عظيمة ذات رجال فكانوا عدوانيين ومحبطين واقتصرت حياتهم الاجتماعية على عائلاتهم والأصدقاء المقربين فحسب . ولقد قمت بزيارة ثلاثة منازل على مدار الأسبوع لتناول الغداء الذى أصبح وجبتى الرئيسية وكانت كلها منازل لأشخاص أسيويين أو هنود .

وكان هناك زوج وزوجة من الهند يعيشان فى شقة صغيرة تجملها الأزهار الورقية وخطوط دينية جميلة الألوان . وكان الزوج خبيرا تابعا للأمم المتحدة ولم يكن يرغب فى العودة للهند وظل هنا يقوم ببعض الأعمال غير المهمة بعد ما انتهى عقده مع المنظمة الدولية . وكان الزوج والزوجة كريمين فى سلوكهما وكانا يقومان ـ واعتقد بسبب الروح الدينية ـ بتقديم اشكال كرمهما فى الضيافة ألى الأجانب الذين يحسون بالخوف أو بالضياع . ولكنهم مع ذلك كانا يفسدان فضيلة الكرم بالتحدث كثيرا عنه الى زوارهما . وكان طعامهما سائلا أكثر من اللازم ومليئا بالبهارات وكان ذلك غير مناسب لى . وكنت أقوم بزيارتهما مرتين فى الأسبوع ولم يكن الطعام هو سبب زيارتى بقدر ما كنت أحتاج إلى مكان أذهب إليه .

وكان المكان الثانى الذى ذهبت اليه هو منزل يشبه العزبة غير الممهدة لاثنين من الهنود الكبار فى السن اللذين هاجرت عائلاتاهما بعيدا منذ بداية الاضطرابات . وكان فناء المنزل واسعا ولكنه ملىء بالأتربة والعربات والمقطورات المتروكة وكانت هذه الأشياء هى بقايا مخزن للنقل من العهد الاستعمارى . وكان هذا الزوج والزوجة لايبدو أنهما يعرفان أين يعيشان . وكانت الغابة الافريقية تمتد خارج فناء منزلهما ولكنهما لم يكونا يتحدثان

الفرنسية أو أى لغة افريقية أخرى وكنت تحس من أحاديثهما وسلوكهما انهما يحسبان أن النهر الذى يجرى على جانب الطريق هو نهر الجانج ومايحيط به من المعابد ورجال الدين ودرجات الحمامات . والحقيقة أنه كان من الطيب أن تبقى معهما . وكانا لايبحثان عن المحادثة وإنما كانا يحسان بالسعادة إذا لم تقل شيئا واذا اكتفيت بالطعام وذهبت .

وكانت "شوبا" و"ماهيشن" هما الآدميين اللذين أحسست بالقرب معهما وسرعان ما اتخذتهما صديقين . وكانا يملكان محلا فى مكان كان من المفروض أنه المنطقة التجارية الأساسية الذى يقع فى مواجهة فندق "فان دير هايدن" وكانا مثلى مهاجرين من الساحل ولاجئين من مجتمعهما الخاص وكانا يتميزان بحس الهيئة حيث كان من الغريب أن تجد فى مدينتنا أناسا يهتمون بملابسهم ومظهرهم . ولكنهم كانوا قد عاشوا بعيدا عن رفاقهم لفترة طويلة وهو ماجعلهما ينسيان أن يحسا بالشوق نحوهم ، وكان شأنهما شأن الناس المعزولين ملفوفين فى همومهما الخاصة غير مهتمين بالعالم الخارجى . وكان هذا الزوج والزوجة اللذان لهما هذه الدرجة من الجمال يحسان بعض الأيام بالتوتر حيث كانت "شوبا" الزوجة مغرورة ومصابة بالقلق العصبى . أما زوجها "ماهيشن" فكان اكثر بساطة لكن كان دائم القلق عليها .

وهكذا كانت حياتى فى مدينة "نصر الدين" لقد تمنيت أن أنفصل وأن اقوم بصنع بداية جديدة ولكن كانت هناك درجات فى كل شىء ولقد أحسست بثقل وفقر أيامى . وكانت حياتى غير محصورة ولكنها أكثر ضيقا عما كانت عليه واصبحت أمسياتى تمثل ألما لى . ولم اكن أفكر فى أننى أمتلك الطاقات والامكانيات للبقاء وكان عزائى أننى فقدت القليل ما عدا الزمن وكان باستطاعتى أن أتحرك دائماً رغم أننى لم اكن اعرف إلى أين . ولهذا عرفت فى نهاية المطاف أننى ليس بوسعى أن اتحرك وأنه علىّ أن ابقى .

سمعت أنباء من صديقى "شوبا" و"ماهيشن" اللذين علما بها من الراديو ، وكانت عادة المغتربين فى سماع الـ "بى . بى . سى" لم تصبح

شيئا ثابتا عندى . اتفقنا على جعل الأنباء سرا لايعلم به الأهالى المحليون وكانت هذه فرصة للسعادة أن نعرف أنه ليس هناك صحيفة محلية .

وكانت الصحف الأوربية والأمريكية تأتى إلى العديد من سكان المدينة وكانت تتداولها الأيدى وكان من الغريب بالنسبة لى أن أجد فى بعض هذه الصحف كلمات طيبة تصف المجزرة التى وقعت على الساحل . ولكن هكذا شأن الناس فى التعامل مع أماكن ليسوا مهتمين بها فى حقيقة الأمر ، إنهم ليس عليهم أن يعيشوا فيها . وتحدثت بعض الصحف عن نهاية الاقطاع وبزوغ فجر جديد . ولكن ماحدث لم يكن بالشىء الجديد ، فإن الشعب الذى تحول إلى الضعف قد ناله التدمير المادى وفى افريقيا لم يكن هذا جديدا ولكنه كان قانون الأرض القديم .

وجاءت الىّ الخطابات فى مجموعة من الساحل من أفراد أسرتى وكانت هذه الخطابات مكتوبة بحذر ولكن مغزاها كان واضحا . ولم يكن لنا هناك فى الساحل مكان للبقاء وأصبحت حياتنا هناك منتهية حيث تناثرت العائلة ولم يبق غير الأفراد الكبار فى السن الذين تقرر بقاؤهم فى الدار الكبيرة لعائلتنا حيث يعيشون حياة هادئة فى نهاية الأمر . وكان خدم العائلة عبئا ثقيلا للنهاية حيث رفضوا أن يذهبوا بعيدا مصرين على وضعهم كعبيد حتى فى وقت الثورة ولقد تم تقسيمهم بين العائلة وكانت إحدى نقط الخطابات التى وصلت لى هى أن أخذ نصيبى من العبيد .

ولكن لم يكن لى أنا أن أختار من أريد بعد ما ظهر أن هناك من اختارنى بالفعل منهم . وكان هناك واحد من الصبية أو الشبان من منزل الخدم يريد أن يذهب بعيدا عن الساحل ، إنه مصر أن يذهب إلى "سالم" لأنه يكن له حبا خاصا . ولقد أحدث هذا الخادم ضجة شديدة حتى انهم قرروا إرساله الىّ . كنت أتخيل المنظر واتخيل الصياح والخبط والعبوس وهكذا كان شأن الخدم فى منزلنا أسوأ من الأطفال فى معاملتهم . وبعث والدى الىّ دون أن يعرف ماكتبه لى بقية افراد العائلة وقال لى إنه هو ووالدته قد قررا ارسال أحد الصبية ليهتم بأمرى وبطعامى .

ولم استطع أن أقول لا ، ذلك لأن الصبى كان فى طريقه الىّ ولم أكن

أعرف أن هذا الصبى يكن حبا خاصا لى ولعل السبب فى اختياره لى هو أننى أكبره بمدة ثلاث أو أربع سنوات فقط وأننى غير متزوج مما سيسهل له حياة الحرية فى كنفى . وكنا فى الماضى قد ارسلنا هذا الصبى إلى المدرسة لحفظ القرآن الكريم إلا أنه كان دائم الهروب منها رغم أن أمه كانت تضربه .

ولقد فوجئت به فى الشقة فى إحدى الأمسيات فى إحدى عربات نقل "دالات" بعد فترة قصيرة من وصول الرسالة الخاصة برحيله إلى مدينتى . ولقد بدت على الصبى أمارات الخوف والتعب حيث إنه كان لايزال يعيش صدمة الأحداث على الساحل كما أنه لم يحب على الاطلاق الرحلة الى داخل افريقيا .

ولقد قام بمنتصف الرحلة عن طريق السكة الحديد التى كانت تسافر بمعدل عشرة أميال فى الساعة ثم استخدم الاتوبيسات حتى ركب عربات نقل "دالات" رغما عن الحروب وسوء الطرق ومتاعب العربات المستهلكة . وكان "دالات" رجلا فى مجتمعنا يشرف على خط نقل بين مدينتنا وبين الحدود الشرقية ولقد ساعد سائقو "دالات" الصبى على المرور من الرجال الرسميين فى الطريق .

ألقى الصبى بنفسه بين ذراعى حينما رآنى وحول العناق الاسلامى الى تعلق طفولى بى وأخذت اربت على ظهره وتعالت صيحاته وهو يحكى لى عن أشكال القتل التى رآها فى السوق فى مدينتنا عند الساحل .

ولم أصدق كل ماقاله لى ولكنى كنت مهتما بأحوال الجيران هناك وكنت فى الوقت نفسه أحاول أن أجعله يكف عن الصياح العالى . وكان الحمال الافريقى يأتى طيلة الوقت عبر السلم الخارجى بالمتاع وكان عبارة عن بعض الصناديق وصرة وبعض سلال الغسيل . وتركت الصبى لأمشى حتى باب الشارع مع الحمال الأفريقى كى أعطيه البقشيش وحينما عدت إلى الشقة رفضت أن استمع إلى أى شىء جديد من الصبى قبل أن أقدم له شيئا يأكله . ثم استعاد الصبى هدوءه وانضباطه وبدأ يخرج من الصناديق الأشياء التى كانت أسرتى قد بعثت بها إلىّ وبعض الجنزبيل والصلصية

والبهارات من والدتى وصورتين للعائلة من والدى بالاضافة إلى لوحة حائط من ورق رخيص عليها واحد من أماكننا المقدسة فى "جوجارات" . ومضى الصبى يقول بعد أن تناول طعامه : كنت ياسالم فى السوق وظننت لأول وهلة أن المسألة هى معركة صغيرة عند كشك "ميان" ولم أصدق ماكنت أراه . وكانوا يتصرفون كما لو كانت السكاكين لاتقطع أو أن البشر ليسوا من لحم ودم وفى النهاية وجدت أنى أنظر إلى أذرع وسيقان تنزف وملقاة على الأرض وظلت هذه الأذرع والسيقان حتى اليوم التالى .

وحاولت أن أسكته لأننى لم أعد قادرا على أن أسمع المزيد لكنه لم يكن من السهل اسكاته . واستمر فى حديثه عن هذه الأذرع والسيقان المقطوعة لأناس كانوا معروفين لنا منذ كنا أطفالا . ولقد كان ما رآه الصبى شيئا مرعبا ، بدأت أحس أنه يحاول أن يثير نفسه لدرجة البكاء بعد ما كان قد توقف عن النحيب ، أحسست أنه كان مهتما ألا ينسى من وقت لآخر ماحدث ، ويفكر فى أشياء أخرى مما سبب لى الإحساس بالانزعاج .

وفى غضون عدة أيام بدأ فى السكون ولم تعد أحداث الساحل مادة للحديث مرة ثانية . واستقرت نفسه بهدوء لم أكن أتوقعه ذلك أنى كنت أنتظر منه العبوس والانزواء كما كنت انتظر منه خاصة بعد رحلته التعيسة أن يكره مدينتنا المتخلفة . لكنه أحبها لأنه قد أصبح محبوبا بصورة لم يعرفها من قبل .

ومن الناحية البدنية كان مختلفا عن الأهالى المحليين فكان أطول فى قامته وله عضلات وأكثر حيوية فى حركاته . وكان مادة للاعجاب وبخاصة من النساء المحليات اللاتى كشفن عن احساسهن بالرغبة فيه . ومن جانبى فلقد تغيرت نظرتى اليه ولم يعد مجرد صبى من منزل الخدم ورأيت فيه مارآه الأهالى المحليون بعد أن بدا لى أكثر تميزا وهنداما . وبالنسبة للأهالى المحليين فإنه لم يكن افريقيا تماما ولم يثر ضيق الإحساس القبلى . كما أنه استطاع أن يلتقط بسرعة اللغة المحلية كما اتخذ لنفسه اسما جديدا . وكنا هناك فى المنزل الكبير نطلق عليه اسم "على" ولكنه الآن أصبح يحب أن يسمى "ميتى" الذى كان يطلقه عليه السكان المحليون .

وهنا وكما كان الحال فى الساحل كان "ميتى" جوالا . وكنت غالبا ما اسمعه يحضر الى المنزل متأخرا فى الليل وهذه هى الحرية التى جعلته يفضلنى ويأتى الىّ . ولقد أصبح "ميتى" الذى استمتع بهذه الحرية شخصا آخر غير الصبى الذى جاء يصيح بأسلوب الخدم . فلقد تخلى عن هذه الأساليب واتخذ لنفسه فكرة ما عن قيمته . وأصبح شيئا مهما بالنسبة لى فى المحل كما أن عادته فى التجوال التى كنت أخشاها جعلت من وجوده شيئا أخف فى شقتى ولقد خفف علىّ من وطأة العزلة وجعل الشهور الفارغة أكثرا احتمالا . وكانت هذه الشهور هى أيام الانتظار لأن ينتعش العمل من جديد وهو ماحدث ببطء فيما بعد .

وتحددت العلاقات اليومية بيننا فكنا نتناول القهوة فى المنزل ثم نذهب إلى المحل ثم نتناول غداءنا منفصلين ثم نذهب إلى المحل ويكون لكل منا أن يقضى مساءه منفردا . وكانت علاقة الرجل والسيد تتلاقى بعض الأوقات كرجال متساوين لهما حاجات متساوية مثلما يكون الحال عند زيارة البارات الصغيرة المظلمة التى بدأت فى الظهور فى مدينتنا كدليل على عودة الحياة اليها .

وتعلم "ميتى" أن يؤكد شخصيته ولكن لم تكن هناك مشاكل بيننا . وأصبح بشكل متزايد رصيدا هاما لى وأصبح كاتب المحل وكان دائما ممتازا فى التعامل مع العملاء وحقق لى وللمحل سمعة طيبة . وكان بصفته أجنبيا على المدينة هو الشخص الوحيد فيها الذى يجازف بالنكتة مع "زابث" التاجرة والتى كانت ساحرة أيضا .

وهكذا كان الحال معنا بعد ما استعادت المدينة شيئا من الحياة مرة ثانية وحينما بدأت البواخر تأتى ثانية من العاصمة مرة فى الأسبوع ثم مرتين فى الأسبوع وحينما بدأ الأهالى فى الذهاب إلى المدينة وحينئذ نمت التجارة ونما معها عملى الذى كان قد توقف عند الصفر ثم قفز الآن (إذا ما استخدمنا جدول نصر الدين) الى اثنين وأصبح يشير ايضا إلى أربعة .

■ ٣ ■

وكانت "زابت" كساحرة أو مشعوذة تنأى بنفسها عن الرجال . ولكن ذلك لم يكن دائما كما أنها لم تكن دائما ساحرة . وكان لـ "زابت" ابن تحدثت عنه معى بعض الأوقات ولكنها تحدثت عنه كجزء من حياة خلفتها وراء ظهرها . وكانت تجعلنى أحس أن ذلك الابن هو بعيد جدا حتى أننى ظننت أنه ميت وكان ذلك حتى رأيتها ذات يوم وقد جاءت به إلى المحل .

ولقد كان عمره حوالى خمسة عشر عاما أو ستة عشر وكان ضخما وأطول وأثقل من رجال منطقتنا الذين كان متوسط طولهم خمسة أقدام . وكان لونه أسود تماما دون أن يأخذ من أمه لونها النحاسى . وكان وجهه أطول وصارم الملامح وعرفت من "زابت" أن والد الصبى هو واحد من قبائل الجنوب .

وكان والد الصبى تاجرا . وبصفته تاجرا فلقد سافر إلى طول البلاد وعرضها أثناء فترة السلام العجيبة للعصر الاستعمارى حينما كان الرجال إذا ما أرادوا لايهتمون بالحدود القبلية . وكان هذا هو كيف التقى أثناء سفره بـ "زابت" ومن هذا التاجر استعارت "زابت" مهارتها كتاجرة . وبعد الاستقلال عادت الحدود القبلية لتكون هامة مرة ثانية وأصبح السفر ليس على الدرجة التى كان عليها من قبل فى الأمن . ولقد عاد الرجل القادم من الجنوب إلى أرضه القبلية وأخذ معه الابن الذى انجبته "زابت" ولقد كان من السهل دائما على الأب أن يأخذ ابنه ولقد كانت هناك كثير من الحكم الشعبية التى جعلت من هذا السلوك قانونا عاما افريقيا . ولقد امضى "فيردناند" وهو اسم الطفل سنواته الأخيرا بعيدا عن أمه حيث ذهب إلى المدرسة فى الجنوب فى إحدى مدن التعدين وعاش خلال ذلك

الأضطرابات التي أعقبت الاستقلال وبخاصة الحرب الانفصالية طول الأمد .

والآن ولسبب أو لآخر وربما لأن الأب قد مات أو أنه تزوج من إمرأة أخرى واراد التخلص من "فيردناند" أو بسبب أن "زابت" قد طلبت ذلك فلقد تم إرسال "فيردناند" إلى والدته . وكان غريبا فى الأرض ولكن ليس فى وسع أى إنسان أن يظل هنا بدون قبيلة ولهذا تم استقبال "فيردناند" فى قبيلة أمه وفقا للتقاليد القبلية السارية . ولقد قررت "زابت" أن ترسل "فيردناند" إلى الليسيه فى مدينتنا والتى تم تنظيفها وبدأت العمل ثانية . كانت المدرسة بناء من الحجر الصلب مكونا من طابقين وفنائين على الطراز الاستعمارى بردهات واسعة فى الطابق العلوى والطابق السفلى . وكان اصحاب الملك قد استولوا على الجزء السفلى ليطبخوا طعامهم فوق حجارة النار فى الردهة ويلقون بالقمامة الخاصة بهم على الأفنية والأرض .

وكان ظهور "فيردناند" أول مرة عند المحل وهو طالب بالليسيه وكان يلبس الملابس المقررة من المدرسة وهى قميص أبيض وبنطلونات قصيرة بيضاء . وكان ذلك الملبس بسيطا ومميزا ورغم أن البنطلون القصير كان يبدو مضحكا بالنسبة لضخامة الصبى إلا أن الملبس كان هاما بالنسبة لكل من "فيردناند" و"زابت" . وكانت "زابت" تحيا حياة افريقية خالصة . وبالنسبة لها فلقد كانت افريقيا شيئا حقيقيا ولكنها كانت تتطلع إلى شيء آخر بالنسبة لإبنها . ولم أكن أرى أى تناقض ذلك أنه كان من الطبيعى أن إمرأة مثل "زابت" تعيش حياة صعبة كانت تطلب لإبنها شيئا أحسن من حالها . وكانت هذه الحياة الأحسن هى شيء يخرج على نطاق القرية والنهر وهو التعليم والحصول على مهارات جديدة وبالنسبة لـ "زابت" وللكثيرين من الافريقيين من أبناء جيلها فلقد كان التعليم شيئا لايعطيه إلا الأجانب .

كان "فيردناند" طالبا داخليا بمدرسة الليسيه وكانت "زابت" قد أتت بالصبى إلى المحل فى ذلك الصباح لكى تقدمه اليّ . تريدنى أن أشرف على حياته فى المدينة الغريبة وأن آخذه فى حمايتى . ولم يكن اختيار "زابت" لى للقيام بهذه المهمة راجعا الى أننى شريك تجارى كانت تثق به

ولكن لأننى أجنبى كذلك واتحدث اللغة الانجليزية بالاضافة إلى أننى سأكون بالنسبة لـ "فيردناند" نموذجا يتعلم منه آداب السلوك وأساليب العالم الخارجى ويستطيع أن يمارس تعلمه معى .

وكان الصبى طويلا ومحترم المظهر . ولكنى كنت أحس بأن ذلك الاحترام سوف يستمر فقط أثناء وجود أمه معنا فلقد كان هناك شىء بعيد وساخر فى عينيه وكان يبدو أنه يحس بالسخرية من أمه التى عرفها منذ فترة وجيزة . كانت إمرأة ريفية لكنه قبل كل شىء قد عاش فى مدينة صناعية فى الجنوب ولابد أنه قد رأى هناك من الأجانب الكثيرين الذى يتجاوزوننى فى شكلهم وهيئتهم . ولست أتخيل أنه يحس بالاحترام الذى تحسه أمه بالنسبة للمحل الذى أمتلكه . فلم يكن المحل أكثر من مخزن للمحاصيل الزراعية مصنوع من الأسمنت تتناثر فيه البضائع فوق الأرضية رغم أننى أعرف مكان كل شىء فيه . ولايستطيع أحد أن يرى فى المحل مكانا عصريا كما أنه لم يكن مدهونا بجمال مثل المحلات التى يمتلكها اليونانيون .

وقلت لـ "زابت" ولمصلحتها ولمصلحة ابنها "فيردناند" : أن "فيردناند" ولد كبير يا "بيت" ويستطيع أن يدبر أموره بدونى .. وردت "زابت" بقولها : لا . لا . يامستر "سالم" إن "فيردناند" سوف يأتى إليك وتستطيع أن تضربه كلما أردت ذلك .

ولم يكن هناك احتمال لهذا ولكنه كان لزوم الكلام . وابتسمت أنا لـ "فيردناند" وابتسم هو نحوى وهو يزم فمه وشفتيه . ولم أكن سعيدا بطلب "زابت" ولكنه كان علىّ ان أوافق . وعندما هززت رأسى ببطء من جانب إلى جانب كى اجعل كلا منهما يعرف أن "فيردناند" سوف يزورنى من وقت لآخر كصديق حينئذ ثنى "فيردناند" إحدى ركبتيه ثم توقف ولم يكمل طقوس التحية . وكان جلده يبدو من تحت بنطلونه الأبيض أسود يتسم بالصحة والتوهج . وكان الانثناء بركبة واحدة هو طريقة تقليدية من طرق التبجيل وهو مايفعله أطفال الغابة للتعبير عن احترامهم لمن هو أكبر منهم فى السن ، هذه هى عادة أهل الغابة التى لم تنتقل إلى المدينة

لم تكن الليسيه بعيدة عن المحل ولكنها فسحة قصيرة إذا لم تكن الشمس شديدة الحرارة وإذا لم تكن السماء تمطر ذلك أنه إذا أمطرت حدث الطوفان فى الشوارع فى وقت ضئيل . وبدأ "فيردناند" يأتى ليراتى مرة كل أسبوع . وكان يأتى فى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر الجمعة أو صباح السبت وكان يأتى وهو فى الثياب المدرسية البيضاء . أو الملابس الكاملة لليسيه وعليها شعار المدرسة المكتوب باللغة اللاتينية .

كنا نتبادل التحية التى كانت تستغرق بعض الوقت وفقا للطريقة الافريقية ، وكان من الصعب التحدث كثيرا بعد الانتهاء من التحية ذلك أنه لم يكن يقدم لى شيئا على سبيل الأخبار وإنما كان يترك لى حرية تقديم الأسئلة ، وحينما كنت أسأله من قبيل السؤال فحسب "ماذا فعلت اليوم فى دروسك فى المدرسة" أو "هل درس لك اليوم الأب هوسمانز ؟" حينئذ كان يرد علىّ بإجابات قصيرة ومحددة مما كان يجعلنى فى حيرة من أن أجد سؤالا آخر .

كانت المشكلة أننى لم أكن مستعدا وبعد فترة قصيرة لم أعد قادرا على أن أثرثر معه كما كنت أفعل مع أى أفريقى آخر . وكنت أحس أنه يتعين علىّ أن أقوم بجهد خاص معه . ولم أكن أعرف ماذا أفعل . وكان هو صبيا من أبناء الغابة وحينما تأتى العطلات الرسمية يسرع بالعودة إلى قرية أمه ، أما فى المدرسة فلقد كان يدرس أشياء لا علم لى بها ولهذا لم أكن استطيع أن أسأله عن نشاطه المدرسى فى الدراسة ، كما كان وجهه يعكس القيام بأشياء كثيرة لا أعرف عنها شيئا وكنت أحس فى وجهه مشاعر الصلابة والاعتداد بالنفس وهو ماكان يقلل من أهمية دورى كمعلم ووصى عليه . وكانت أحاديثنا تأتى إلى نهايتها القصيرة بسبب عدم وجود مادة للحديث . أما فى المحل فلقد كان هناك "ميتى" الذى يصادق الجميع . لم تصادف "ميتى" المشاكل التى كنت ألقاها مع "فيردناند" ولهذا سرعان ما أصبح "فيردناند" يأتى إلى "ميتى" فى المحل ثم الى الشقة . وبعد الانتهاء من المحادثة المتشنجة بالانجليزية أو الفرنسية معى يتحول إلى "ميتى" ليتحدثا سويا باللهجة المحلية .

ومن وجهة نظر "فيردناند" كان "ميتى" دليلا أحسن منى بالنسبة لمعرفته بالمدينة وكانت متع المدينة بالنسبة لهذين الشابين غير المرتبطين كما كنت أتوقع هى البيرة والبارات والنساء .

وكانت البيرة جزءا من طعام الأهالى هنا حتى أن الأطفال يشربونها كما يبدأ الناس شرب البيرة من الصباح مبكرا .. أما عن النساء فكان الاتجاه هو الأمر الواقع .. أخبرنى صديقى "ماهيشن" بعد وصولى بفترة قصيرة أن النساء يعاشرن الرجال جنسيا كلما دعاهم الرجال الى ذلك حتى أن أى رجل يستطيع أن يطرق على باب أى إمرأة وينام معها . ولم يكن "ماهيش" ينقل ذلك لى بأى درجة من الإثارة أو الموافقة ـ لأنه كان مستغرقا فى زوجته الجميلة "شوبا" وبالنسبة لـ "ماهيش" كانت هذه الحرية الجنسية بمثابة جزء من الفوضى والفساد المنتشر فى المكان .

وكان هذا هو انطباعى ايضا بعد المتعة السابقة ولكننى لم أكن استطيع أن أحذر أياً من "ميتى" أو "فيردناند" من الذهاب إلى أماكن ذهبت إليها انا بالفعل . ومع هذا فلقد كنت أحرص بشكل خاص على أن أظهر مع نساء افريقيات ولقد كنت أحس بالفخر أنه رغم صعوبة ذلك فإننى نجحت فى ألا اقدم مبررا للخطأ .

كان بوسع "ميتى" و"فيردناند" أن يشربا فى البارات الصغيرة وأن يلتقطا جهارا نهارا من يريدان من النساء أو يترددان على منازل النساء التى يعرفانها . ولكنه كان علىّ أن أخبىء ذلك بوصفى سيدا لواحد منهم ووصيا على الآخر .

وفى إحدى المرات بينما كنت أقرأ إحدى المجلات جاء "فيردناند" للمحل بعد ظهر أحد الأيام . وقمت بتحيته ثم استمررت فى قراءة المجلة التى كانت تبحث فى العلم الشعبى وهى الموضوعات التى أصبحت مدمنا قراءتها . وكنت أحب أن أتلقى هذه النتف من المعرفة وافكر دائما وأنا أقرأ أن هذا العلم الخاص أو هذا المجال الخاص هو الشىء الذى يجب علىّ أن أعطيه وقتى كله ليلا ونهارا لكى أضيف المعرفة إلى المعرفة وأن أقوم

بالاكتشافات كي أجعل نفسي شيئا ما وأن استخدم كل امكانياتي وكان هذا هو إحساس طيب من وجهة نظري مثل حياة المعرفة نفسها .

وكان "ميتي" في الجمارك ظهر هذا اليوم لتخليص بعض البضائع التي كانت قد وصلت بالبواخر منذ أسبوعين وهذا هو الايقاع الذي تمشي عليه الأمور هنا . واستمر "فيردناند" واقفا عند المحل لفترة ولم أكن مستعدا لأن أبدأ بالمحادثة وهو ماجعله يأتي إلى المكتب ويقول : "ماذا تقرأ ياسالم ؟" لم استطع أن أتجنب الحديث بوصفي استاذا ووصيا عليه فقلت له : "يجب عليك أن تلقي نظرة على هذا . إنهم يحاولون صنع تليفون جديد يعمل باندفاعات الضوء بدلا من التيار الكهربائي . ولم أكن أعتقد حقيقة في مثل هذه المعجزات الجديدة التي أقرأ عنها ولم أكن أظن أنني سوف أرى بعيني هذه المعجزات تتحقق أثناء حياتي . ولكن هكذا كانت جاذبية القراءة حول هذه الأشياء حيث تجد نفسك تقرأ المقال تلو المقال عنها دون أن تكون استعملتها في الواقع .

وقال لي "فيردناند" : "من هم هؤلاء الذين أشرت إليهم ؟" .

وقلت له : "ماذا تعني ؟"

قال : "من هؤلاء الذين يحاولون صنع تليفونات جديدة ؟ . واخذت أفكر . إننا هنا بالفعل بعد شهور قليلة من دخول الليسيه ولقد ترك الغابة لتوه وأنا أعرف أمه وأنا أعامله كصديق وها نحن أولاء أمام هذا الهراء السياسي . ولهذا لم أعطه الإجابة التي يتوقعها فلم أقل ردا على سؤاله : "إنهم الرجل الأبيض ، رغم أنني بنصف كياني كنت على وشك أن أقول هذا لكي أضعه في مكانه الحقيقي ولكنني قلت بدلا عن ذلك "إنهم العلماء" .

ولم يقل شيئا أكثر من ذلك ولم أقل بدوري أنا شيئا أكثر من ذلك ، ولكنني عدت عن قصد إلى قراءة المجلة ، وكان هذا ختام هذا اللقاء القصير بيني وبين "فيردناند" ذلك اليوم كما كان ايضا نهاية لمحاولاتي لأن أكون مدرسا له اكشف له عن نفسي وعن أشيائي .

وهكذا كنا نقول إنهم بصورة مجهلة حينما كنا نريد أن نتحدث سياسيا

وحينما كنا نريد أن نشتم أو نمدح سياسيا نقول "الأمريكيين" أو "الأوربيين" أو "الرجل الأبيض" أو "البلچيك" . لكننا حينما نكون بصدد الحديث عن الفاعلين أو الصانعين أو المخترعين فإننا جميعا نقول أيا كان جنسنا : "هم" . وهكذا نقول "إنهم يصنعون عربات سوف تجرى على سطح الماء أو أنهم يصنعون أجهزة تليفزيون صغيرة فى حجم علبة الكبريت" .

وجاء الموسم الممطر وعطلات المدارس ، وجاءت "زابت" إلى المدينة لتحصل على حاجاتها من البضائع والأشياء ولتأخذ معها ابنها "فيردناند" وبدا عليها أنها سعيد بتقدمه ، ومن ناحيته هو فلم يكن يبدى اهتماما كبيرا بمبادلة الليسيه والبارات التى يذهب اليها فى المدينة بقرية والدته . وهكذا ذهب الى قريته وكنت أفكر فى الرحلة عبر مياه النهر بالباخرة والقارب كما فكرت فى المطر على النهر و"زابت" تمضى خلال القنوات المظلمة الى قريتها المختفية والليالى السوداء . والأيام الفارغة . لم تكن السماء تصفو إلا قليلا وفى معظم الأحوال نتحول من اللون الرمادى إلى الرمادى الداكن الى الفضى الساخن . وكانت السماء تبرق وترعد طيلة الوقت هناك فوق الغابة . وبعض الوقت فوق رأسى مباشرة . ومن مكانى فى المحل أرى المطر يضرب قمم الأشجارر المزدهرة الألوان فى ميدان السوق . ومثل هذه الأمطار تقتل تجارة الباعة الجائلين وتنسف الأكشاك الخشبية وتدفع بالناس الى اللجوء لطلب الحماية تحت مظلات المحلات حول الميدان .

جاء الفصل الثانى من دراسة "فيردناند" ولاحظت تغيرا فى اتجاهه نحوى ، كنت قد قررت أن أدعه يكون هو نفسه . وبدا لى بعد عودته من القرية أنه أقل بعدا منى ، فعندما كان يأتى إلى المحل لم يعد يبدى هذا القلق لأن يتركنى ليذهب إلى "ميتى" ظننت أن أمه ربما حدثته فى هذا الأمر . والحقيقة كانت أكثر بساطة من ذلك فلقد بدأ "فيردناند" يكبر ولكنه كان يرى نفسه موزعا بين تيارات الموج . فلقد كان من أصل قبلى مختلط وفى هذا الجزء من البلد كان يحس بأنه غريب ولم تكن هناك مجموعة يستطيع أن ينتمى إليها كما أنه لم يكن هناك من يشكل نفسه على منهجه .

ولم يعرف ما الذى هو متوقع له أو منتظر منه ، يريد أن يكتشف ذلك ويريدنى كى يجعلنى نموذجا يتعامل معه .

وكنت استطيع أن ارى كم كان يحاول مع عدة شخصيات أن يجرب أنواعا مختلفة من أنماط السلوك . وكان مدى حركته محدودا وبعد وصول "زابت" بعدة أيام من أجل بضائعها ربما أحس بأنه ابن هذه الأم التى تعمل تاجرة . وربما يدعى أنه شريكى فى العمل وأن يقوم بالاستفسار عن المشتريات والاسعار وربما أحس بأنه ند لىّ . ثم ربما كان هذا الأفريقى الشاب الذى يصعد طريقه طالب الليسيه العصرى الذى يسعى للأمام .

واصبح عليه الآن أن يبذل جهدا للتحدث معى وليس على طريقة حديثه مع "ميتى" وإنما يحاول أن يتحدث حديثا جادا وخاصا معى . وكان فى الماضى ينتظر منى أن أقوم بالأسئلة ولكنه الآن هو الذى يدفع ببعض الافكار وبعض النقاط المجادلة كما لو كان يريد للمناقشة أن تستمر ، وكان هذا جزءا من الشخصية الجديدة لدارسى الليسيه التى كان يظهر بها وكان يعاملنى كأستاذ للغة تقريبا .

وكنت من جانبى مهتما بذلك وبدات أتعرف قليلا على مايدور داخل مدرسة الليسيه .

وفى أحد الأيام قال لى "سالم" ماذا تظن بشأن مستقبل أفريقيا ؟ . لم أجب عليه لأننى كنت أريد أن أعرف ماذا يفكر هو . وكنت أتعجب هل انه رغم أصله المختلط ورغم سفرياته لديه فكرة حقيقية عن افريقيا أم أن فكرة افريقيا قد جاءت له ولأصدقائه فى المدرسة من أطلس الخرائط فحسب . وكان بوسع "فيردناند" أن يخبرنى أن العالم الخارجى ينهار وأن افريقيا وحدها هى التى تصعد . وحينما سألته عن أى كيفية كان العالم الخارجى ينهار فلم يعرنى جوابا . وكان "فيردناند" يحس بنفسه أنه مهم ومتطور كما كان الأمر فى العهد الاستعمارى وفى الوقت نفسه كان يرى أنه رجل جديد وهو مهم لهذا السبب . ومن خلال فكرته المضطربة عن أهميته الشخصية فإنه جعل من افريقيا هى نفسه فحسب ، وجعل من مستقبلها لا شيء أكثر من الوظيفة التى سوف يحصل عليها فيما بعد .

وبينما كان « ميتى » مساعدا فى المحل ونوع من انواع الخدم كان « فيردناند » تلميذا فى الليسيه له مستقبل ومع ذلك فلقد كانت الصداقة بين الاثنين صداقة بين الانداد المتساوين . ولقد استمرت الصداقة ولكن « ميتى » كخادم فى عائلتنا رأى الكثيرين من زملاء اللعب يصبحون سادة وكان عليه ان يحس بفكرته الجديدة عن نفسه انه قد يترك وحده مرة ثانية .

وفى احدى فترات الظهيرة فى احد الايام وكان المطر استقرت حالته جاء « فيردناند » الى المحل وهو مبتل وقال لى « سالم يجب عليك ان ترسلنى الى امريكا كى اتعلم » وكان « فيردناند » يتكلم كانسان يائس وكانت الفكرة قد تفجرت داخله واحس بوضوح بانه ان لم يتصرف فورا فانه لن ينجح فى تحقيق اى شىء . ولقد جاء خلال الامطار الغزيرة والشوارع المغمورة بالمياه وكانت ملابسه مبتلة جدا ولقد احسست بالدهشة بالمفاجأة واليأس وحجم الطلب الذى طلبه فى حديثه الىَّ . وبالنسبة لى كانت الرحلة الى الخارج للدراسة شيئا نادرا وغالى التكاليف وكانت فوق قدرة عائلتى نفسها .

وقلت له « لماذا يتعين علىَّ ان ارسلك الى امريكا ولماذا يجب ان انفق عليك ؟» ولم يجد « فيردناند » شيئا يقوله ، وبعد رحلته تحت المطر اصبح الموضوع كله مادة للمحادثة . واحسست بحدة مزاجى وكان الجو المطير والبرق والظلام غير الطبيعى لما بعد الظهيرة سببا فى هذا التوتر وانا اسال نفسى هل هذا السؤال الذى طلبه « فيرديناند » كان مبعثه البساطة المجردة فى شخصيته ، عدت الى سؤاله مرة ثانية : « لماذا تظن اننى مرتبط بأية التزامات نحوك ؟ وماذا فعلت انت لى ؟»

وكان هذا صحيحا ذلك ان اتجاهه منذ ان بدأ يحس بتكوين شخصيته اننى مدين له بشىء وذلك ببساطة لاننى كنت ابدو مستعدا لتقديم العون .

ولقد قمت بتناول الغداء مرتين فى الاسبوع مع اصدقائى « شوبا » و« ماهيشن » فى شقتهما التى كانت مثلهما فى زينتها وكنت انظر اليهما على انهما زوجان جميلان وربما كانا اجمل الناس فى مدينتنا . ولم يكن لهما منافسون وان كانا كما كنت الاحظ عليهما يبديان اهتماما زائدا

بملابسهما ، وكنت اری الی جانب السجاد العجمی والكاشميری ومشغولات النحاس الجميلة بعض الاشياء الدقيقة الصنع ذات البريق مثل ابليكات الحائط لبعض الالهة الهندوس كما كان هناك نحت عميق من الزجاج لاحدى النساء العرايا .. وكان فی هذا لمسة من الفن وتذكرة بجمال النساء وجمال « شوبا » وكان جمال هذين الرفيقين « شوبا » و« ماهيشن » هو شغلهم الشاغل مثل النقود بالنسبة للناس الاغنياء .

وعندما قابلت « فيردناند » للمرة الثانية قلت له « ان صديقی « ماهيشن » قد اخبرنی انك تستعد للذهاب الی امريكا لدراسة ادارة الاعمال فهل اخبرت والدتك بهذا ؟»

ولم يفهم « فيردناند » السخرية الباطنة فی السؤال واخذه حديثی علی غير استعداد منه ولم يكن لديه مايقوله . وقلت له « فيردناند » يجب عليك الا تمضی هكذا لتقول للناس اشياء غير صحيحة . ماذا تعنی بادارة الاعمال ؟

فقال « مسك الدفاتر والالة الكاتبة والاختزال مثل ماتفعل انت » فقلت له « اننی لا استخدام الاختزال وهذا ليس ادارة للاعمال انه مجرد درس فی السكرتارية وهو مالا يحتاج منك الذهاب الی امريكا او كندا لدراسته حيث انك تستطيع ان تفعله هنا . وانا علی ثقة اننا سوف نجد ذلك فی العاصمة . وحينما يأتی الوقت المناسب فانك سوف تری انك تريد شيئا احسن من هذا .. ولم يسعد « فيردناند » بحديثی اليه ولمعت عيناه بالاهانة والغضب ، كان مع « ميتی » وليس معی سعی « فيردناند » لتسوية الحساب اذا كان هناك ای حساب للتسوية .

لم اسمع بعد ذلك عن دراسات « فيردناند » فی الخارج وسرعان ما اسقط هو هذا السيماء للرجل الشاب من دارسی الليسية وبدأ محاولة شیء جديد .

وسمعت عن بعض الاشياء الاخری عن مملكة الغابة وعلمت ان شعب العبيد كانوا ثائرين وقد ذبحوا حتی يعودوا الی الطاعة مرة ثانية ولكن

افريقيا كانت قارة كبيرة وغطت الغابة على اصوات القتل كما اخذت الانهار والبحيرات الموحلة بالطين سيل الدماء معها الى البعيد .

وقال لى « ميتى » : يجب علينا ياسيدى ان نذهب الى هناك لقد سمعت انها المكان الاخير الحسن فى افريقيا وقال ان مدينة « بوجامبورا » التى تضم العديدين من الرجال البيض تبدو كأنها باريس صغيرة هناك .

واذا صدقت ان « ميتى » يفهم ربع الاشياء التى تحدث عنها واذا ما صدقت على سبيل المثال انه فعلا يحس بالشوق لرفقة الرجال البيض فى « بوجامبورا » او اين وماهى كندا لكنت احسست بالقلق عليه . ولكننى كنت اعرفه احسن من ذلك اعرف ان هذا الحديث مجرد ثرثرة .. لقد تم طرد الرجال البيض من مدينتنا وتم تدمير اثارهم ولكن هناك الكثير منهم فى مدينة اخرى كما يوجد محاربون وعبيد ، وكان هذا يمثل جاذبية ساحرة للصبيان المحاربين وجاذبية ساحرة لـ « ميتى » وجاذبية ساحرة لـ « فيردناند ».

بدأت أفهم كيف ان العالم بالنسبة لى كان بسيطا وغير معقد وبالنسبة لاناس مثلى ومثل « ماهيشن » واليونانيين والايطاليين غير المتعلمين فى مدينتنا فان العالم حقيقة هو مكان بسيط جدا . اننا نستطيع ان نفهمه وكان بوسعنا ان نسيطر عليه لولا كثرة العقبات التى توضع فى طريقنا ، ولم يكن يهم اننا كنا بعيدين عن حضارتنا بعيدين عن الصناع والفاعلين فى هذه الحضارة ، ولم يكن يهم اننا لا نستطيع ان نصنع الاشياء التى نريد استعمالها وكأفراد فلقد كنا كذلك بدون المهارات التكنيكية للناس البدائيين ، وفى الحقيقة اننا كلما كنا قليلى التعليم كنا نعيش فى سلام كما كنا نحمل بسهولة مع تيار الحضارة او الحضارات .

وقلت لـ « ماهيشن » فى خفة مبسطا الموضوعات لصالح رجل متحامل فى الرأى : « ان « فيردناند » افريقى وربما فعل « فيردناند » نفس الشىء مع زملائه شارحا لهم علاقته بى ولقد احسست الان انه بسبب اكاذيبه ومبالغاته وصوره الشخصية التى صنعها لى فان شركا قد تم نسجه حولى واصبحت انا ضحيته ..

وربما كان ذلك صادقا على كل الذين هم غرباء على البلاد ولقد اثبتت الحوادث الاخيرة قلة حيلتنا وضعفنا ، ورغم ان هناك سلاما الان ولكننا جميعا اسيويين ويونانيين وغيرنا من الاوربيين نبقى ضحايا بطرق مختلفة ، وهناك بعض الرجال يتعين الخوف منهم وهناك البعض الذى يجب تملقه بعبودية وهناك البعض الاخر الذى يجب الاتصال به بنفس الطريقة التى حدثت معى ، ولقد كان ذلك هو تاريخ الارض حيث كان هناك من الرجال دائما ضحايا . انك لاتحس بالضغينة نحو ضحيتك ولكنك تضع الفخ لها وقد تفشل عشر مرات ولكن يبقى الفخ الذى وضعته .

وبعد فترة قصيرة من وصولى قال لى « ماهيشن » عن الافريقيين المحليين : « يجب عليك يا « سالم » الا تنسى انهم اشرار وقال هذه الكلمة بالفرنسية لأن كلمة مؤذين او سيئى القصد لم تكن تعبر عن المعنى وهم اشرار مثل كلب يطارد سحلية او قط يطارد طائرا وهؤلاء الناس هم اشرار لانهم يعيشون وهم يعرفون ان الناس مجرد ضحايا او فرائس .

وكنت انا بلا حماية . فانا بلا اسرة بلا علم بلا رمز ، فهل قام « فيردناند » باخبار زملائه بشىء مثل هذا . ولقد احسست ان الوقت قد حان بالنسبة لى لان احدد الامور مع « فيردناند » واعطيه فكرة اخرى عن نفسى .

ولقد عثرت على فرصتى كما ظننت حينما جاء شاب حسن الهندام الى داخل المحل صباحا ومعه فى يده كتاب لمحاسبة الاعمال . وكان من هؤلاء ذوى الطبع الخجول . وظل هو واقفا حتى ذهب الناس وحينما جاء الىّ رأيت الكتاب الذى فى يده مهترئا وكان قميصه غير نظيف ثم قال :

« السيد سالم »

واخذت منه الدفتر ونظر هو بعيدا وقد عقد حاجبيه ، وكان الدفتر يتبع الليسية وكان قديما ينتسب الى نهاية العصر الاستعمارى حيث كانه اشتراكا بقائمة لصالة لعب كانت الليسية تعتزم بناءها . وكان بداخل الغلاف عنوان الليسية وشعارها ، وكان امامه نداء رئيس الليسية المكتوب

فى نموذج خط الاوربيين الحاد الذى تم نقله لبعض الافريقيين هنا . ثم رأيت باهتمام خاص امضاء احد رجال المجتمع عندنا الذى طالما حدثنى « نصر الدين » عنه كثيرا وكان لهذا افكار قديمة عن النقود والامان ولقد استخدم امواله فى بناء قصر ثم تعين عليه ان يتركه بعد وقوع الاستقلال . وكان المرتزقة الذين استعادوا سلطة الحكومة المركزية قد تجمعوا فيه اما الان فهو مجرد ثكنة عسكرية ، وكان قد تبرع بمبلغ كبير كما رأيت امضاء « نصر الدين » وتعجبت لاننى نسبت ان يكون هو هنا مع هذه الاسماء الاستعمارية الميتة .

وقلت للشاب الذى امامى : « اننى سأحتفظ بهذا الدفتر وسأرده الى الناس الذين ينتسب اليهم ، لكن من الذى اعطاك هذا الدفتر ؟ هل هو « فيردناند »؟

وبدا الشاب بلا حيلة وبدأ العرق يتصبب منه على جبهته وقال لى « السيد سالم » وقلت له « لقد اديت مهمتك انك قد اعطيتنى الدفتر وعليك الان ان تذهب »

وكان ان اطاع ماقلته له .

وجاء « فيردناند » بعد ظهر هذا اليوم وكنت اعرف انه سيأتى لانه يريد ان يرى وجهى وتأثير دفتره علىَّ وقال : « سالم » لكنى لم اجبه وتركته واقفا ولكنه لم يكن ليقف لفترة طويلة .

وكان « ميتى » فى حجرة المخزن ولابد انه سمعه حتى انه هتف بصيحته « اووووه » ورد عليه « فيردناند » وذهب لحجرة المخزن ثم اخذ الاثنان فى الحديث باللغة المحلية ، وارتفعت حدة انفعالى وانا استمع الى هذا الصوت عالى النبرات والرقراق بين الاثنين . واخذت دفتر الاعمال من درج مكتبى وذهبت الى حجرة المخزن ، ووقفت فى طريق الباب واومأت ايماء نحو « فيردناند » وانا الوح بالدفتر وقلت له « انك سوف تواجه المتاعب » وقال هو « اية متاعب ؟»

وكان يتحدث بطريقة مسطحة ميتة ، ولم يكن يقصد ان يتكلم فى سخرية ولكنه كان يسأل عما اتحدث عنه .

وكان الحديث عن المتاعب يعنى اننا نزعم ان هناك قوانين وتنظيمات يستطيع كل واحد ان يقربها ولم يكن هنا شىء من هذا القبيل . وكان هناك فى فترة ما نظام ولكن هذا النظام فيه من اشكال الغش والقسوة مما سبب فى تحطم المدينة وهانحن أولاء نعيش وسط هذا الحطام ، وبدلا من التنظيمات فان هناك موظفين يستطيعون ان يثبتوا دائما انك مخطىء حتى تقوم برشوتهم ، وكان كل مايمكن قوله لـ « فيردناند » هو : « تؤذينى ايها الولد فاننى استطيع ان أؤذيك بصورة اكبر »

وقلت له « انك سوف تأخذ هذا الدفتر الى الاب هاوسمانز » واذا لم تفعلها فسوف اقدمه انا بنفسى وسوف اسعى لان يطردك من المدرسة الى غير رجعة »

ونظر « فيردناند » اليّ مبهوتا كما لو كان قد وقع عليه هجوم ، ثم لاحظت بعد ذلك وقوف « ميتى » على السلم وكان عصبيا ومتوترا حيث فضحته عيناه . وعرفت حينئذ اننى ارتكبت خطأ فى اننى صببت غضبى على « فيردناند » وحده . وكان « فيردناند » وهو فى هذه اللحظة الرهيبة على وشك ان يفقد توازنه ، واخذ نفسا عميقا ولم تغادر عيناه وجهى وكان يبصق فى غضب كما كان احساسه بالجرح يدفعه الى الجنون ، وكان منظره مرعبا وطافت بذهنى هذه الفكرة : انه هكذا سوف ينظر بنفس الطريقة وهو يرى دماء ضحيته حينما يراقب عدوه مقتولا ، كما وثبت على هذه الفكرة فكرة اخرى ، هذا هو الضغب الذى دمر المدينة .

وخرج « فيردناند » هادئا تماما وهو يمشى بخطى خفيفة وقال لى « سالم » وقلت له « اننى سوف ارجع بالدفتر الى المدرسة » ثم نظرت اليه وهو يمشى فى الشوارع ذات الطين الاحمر طويلا حزينا بطىء الخطو نحو الاكواخ البائسة فى سوق مدينته .

- ٤ -

ولم يكن الاب « هاوسمانز » موجودا حينما ذهبت الى الليسيه وهى الدفتر وكان فى المكتب الخارجى شاب بلجيكى وقال لى ان الاب « هاوسمانز » يحب ان يذهب بعيدا من وقت الى اخر . وسألته « اين ذهب ؟» وقال لى « انه ذهب الى الغابة وذهب الى كل هذه القرى » وتحدث الشاب وكان على مايبدو سكرتيرا او مدرسا فى ضيق وعصبية وكان اكثر عصبية عندما اعطيته الدفتر .

وقال لى « انهم يأتون ويتوسلون ان يقبلوا فى الليسيه وفور موافقتك على ادخالهم المدرسة يبدأون فى السرقة . وانهم على استعداد لان يحملوا معهم المدرسة برمتها اذا تركتهم يفعلون انهم يأتون ويتوسلون اليك العناية باطفالهم لكنهم يدفعونك فى الشارع كى يشعروك انهم لايحتمون بك » ولم يكن يبدو عليه انه بخير ذلك انه كان حائل اللون وكانت تحيط بعينيه هالات سوداء كما كان يعرق اثناء حديثه الىّ . وقال لى « اننى اسف انه من المستحسن ان تتحدث الى الاب « هاوسمانز » وقال لى « ان الامور ليست سهلة بالنسبة لى ولقد كنت اعيش على كعكة العسل والبيض »

وبدا من الناحية الشكلية انه كان يعيش على نظام طعام غنى ولكننى عدت ففهمت انه يقول لى انه يعيش جائعا . وعندما عدت الى الليسيه مرة ثانية بعد اسبوع سمعت ان البلجيكى الشاب الذى تحدثت معه قد اخذ الباخرة وذهب بعيدا بعد يومين فقط من لقائى معه ، وكان الذى اخبرنى بذلك هو الاب « هاوسمانز » الذى كان يبدو فى صحة جيدة وقد لوحته الشمس بعد رحلته الخاصة ولم يكن باديا عليه التأثر لفقده احد مدرسيه

وقال لى انه سعيد باسترداد دفتر صالة الالعاب لانه جزء من تاريخ المدينة وسوف يعرف الصبية الذين سرقوه هذا المعنى بانفسهم فيما بعد . وكان الاب قد ذهب بالنهر لزيارة بعض القرى التى كان يعرفها وجاء معه بقطعتين هما احد الاقنعة ونحت قديم على الخشب وكان يريد ان يتحدث عن هاتين القطعتين لا عن المدرس الذى ذهب بعيدا او دفتر صالة الالعاب .

•

وكان النحت عملا غير عادى وكان طوله خمسة اقدام وكان يمثل شخصا ادميا بالغ النحافة مجرد اطراف وجذع ورأس منحوته من قطعة من الخشب لاتزيد على ثمانى بوصات فى القطر . وكنت اعرف بعض الشيء عن النحت حيث كان واحدا من الاشياء التى كنا نتاجر فيها على الساحل وكنا نستأجر اسرتين من صناع النحت من قبيلة كانت لها الموهبة فى هذا الفن ، ولكن الاب « هاوسمانز » لم ينصت الى هذه المعلومة حينما قلتها له واستمر فى الحديث بدلا من ذلك عن الشكل الذى أتى به والذى كان بالنسبة لى قطعة غشيمة ومبالغا فيها بينما كان الاب يرى فيها الخيال وعمق المعنى . وحينما استمر الحديث عن الاقنعة واشكال الحفر كانت الكلمات صادقة بحرفيتها ذلك ان كل نحت وكل قناع كان يخدم غرضا دينيا بعينه ويمكن صناعته مرة واحدة . اما النسخ فهى النسخ التى لاتتضمن احساسا سحريا او اى قوة فيها ولم يكن الاب « هاوسمانز » يهتم بهذه النسخ حيث انه كان يبحث فى هذه الاقنعة والحفريات على القيمة الدينية التى بدونها تكون هذه الاشياء ميتة عديمة الجمال .

وكان هذا غريبا ان يكون لقسيس مسيحى مثل هذا الاحترام للعقائد الافريقية التى كنا على الساحل لا نحفل بها باى شكل كان ورغم ان الاب « هاوسمانز » كان يعرف الكثير عن الديانة الافريقية . وتجشم هذه المشقة كى يجمع القطع الخاصة به فلم احس ابدا بانه مهتم بالافريقيين باى شكل اخر وكان يبدو لا مباليا بحالة البلاد وهو الامر الذى حسدته عليه وفكرت وانا اتركه هذا اليوم ان افريقيا الخاصة به والتى يمثلها النهر والغابة كانت مختلفة عن تصورى لها حيث كان يحس بانها مكان ساحر ومليء بالاشياء الجديدة دائما .

ولم يكن الاب « هاوسمانز » ناقما مثلما كان البعض من مواطنيه بسبب الذى حدث للمدينة الاوربية ، ولم يجرح من جراء الاهانات التى وقعت على الاثار والتماثيل ولم يكن ذلك بسبب انه كان اكثر استعدادا للصفح او ان له فهما احسن لما حدث للافريقيين . وبالنسبة له كان تدمير المدينة الاوربية المدينة التى بناها مواطنوه كان نكسة مؤقتة . فلقد كانت مثل هذه الاشياء تحدث حينما كان شيئا ضخما وجديدا بصدد القيام وحينما كان مسار التاريخ بصدد التحول .

وكان يقول انه قد يكون هناك دائما تسوية مستقرة عند المنحنى فى خط النهر ذلك انه مكان طبيعي للالتقاء ، وكانت القبائل ربما تتغير والسلطة ربما تتغير كذلك ولكن الناس كانت دائما تعود هناك لتلتقى وتتبادل التجارة .

وكان للاب « هاوسمانز » تقديس لكل شىء مرتبط بالاستعمار الاوربى وافتتاح النهر وكان هذا التقديس مثار دهشة لهؤلاء الناس فى المدينة الذين اعطوه السمعة بأنه محب لافريقيا ولهذا كان وفقا لتفكيرهم رجلا رفض الماضى الاستعمارى . وكان هذا الماضى ملىء بالمرارة ولكن الاب « هاوسمانز » كان يأخذ هذه المرارة على انها شىء مسلم به ولكنه كان يتطلع الى ماوراءها . ومن حوش اصلاح السفن القريب من مبنى الجمارك والذى كان قد اهمل منذ فترة طويلة واصبح مليئا بالخردة والصدأ اخذ الاب بعض قطع البواخر وقطع اخرى من الماكينات غير المستعملة والتى ترجع الى اعوام نهاية القرن التاسع عشر ووضع هذه القطع كأثار لحضارة قديمة داخل فناء مدرسة الليسيه . وكان سعيدا بصورة خاصة بقطعة تحمل فوق طبق حديدى بيضاوى الشكل اسم صناع السفينة فى مدينة « سيرانج » ببلجيكا .

ومن بين تضاعيف هذه الحوادث الصغيرة بجوار ذلك النهر الموحل العريض ومن خلال اختلاط الشعوب فان اشياء عظيمة من المقرر ان تأتى يوما ما والحقيقة إننا فى نقطة البداية وبالنسبة للاب « هاوسمانز » فان الاثار الاستعمارية كانت غالية القيمة مثل اشياء افريقيا . ولقد كان يرى ان افريقيا الحقيقية تموت او انها على وشك الموت ولهذا كان من الضرورى

جدا بينما افريقيا لاتزال حية ان نفهم ونجمع ونحتفظ باشيائها الخاصة . وكان ماجمعه الاب من افريقيا هذه التى تموت يرقد فى حجرة السلاح بالليسيه حيث كانت توجد فى الايام الخوالى البنادق القديمة الاثرية لحراس المدرسة وكانت الحجرة كبيرة مثل حجرة الدراسة وكان يبدو عليها من الخارج انها كذلك ولكن لم يكن هناك نوافذ بها وانما باب طويل على جانبيها وكان النور الوحيد الموجود هو لمبة عارية تتدلى من سلك طويل .

وحينما فتح الاب « هاوسمانز » باب هذه الحجرة لى اول مرة احسست برائحة العشب والارض واخذت انطباعا مضطربا عن بعض الاقنعة المرصوصة فوق الارفف وقلت لنفسى ان هذا هو عالم « زابت » وهذا هو العالم الذى تذهب اليه حينما تترك محلى ولكن عالم « زابت » عالم حى وهذا عالم ميت . وكان هذا هو تأثير الاقنعة التى كانت موضوعة بسطحها على الارفف ناظرة الى داخل هذه الارفف وليس الى الغابة او السماء بعد ان فقدت قوتها .. ولكن هذا كان هو انطباع اللحظة وبالرغم من ان هذه الحجرة المظلمة الحارة كان الانطباع برائحة الاقنعة يزداد قوة كما كان احساسى بالخوف ينمو كذلك . وكانت الغابة مليئة بالارواح حيث كانت تحلق كل اشكال الحضور لاسلاف البشر وكانت فى هذه الحجرة تتركز كل ارواح هذه الاقنعة الميتة والقوى التى توجدها وكل الخوف الدينى للناس البسطاء .

وكانت الاقنعة واشكال النحت تبدو قديمة من اى زمن ربما هو مئات السنين او حتى الاف السنين ولكن الاب « هاوسمانز » كان قد كتب تواريخها وكانت تواريخ حديثه يحمل احدها عام ١٩٤٠ وكان هذا هو عام ميلادى وكان تاريخ اخر هو ١٩٦٢ وكان هذا تاريخ وصولى هنا .

ومن خلال فكرته الهائلة والعجيبة عن حضارته القديمة جدا والحديثة جدا ومن خلال فكرته الهائلة والعجيبة عن المستقبل فان الاب « هاوسمانز » كان يرى نفسه فى نهاية كل شىء شاهدا محظوظا .

ان معظمنا يعرف فقط النهر والطرق المخربة ومايقع حولهم ومابعد ذلك كان بالنسبة لنا هو المجهول الذى يصيبنا بالدهشة ، وكنا نادرا ما نذهب الى اماكن بعيدة عن الطرق المعروفة لنا ذلك اننا نادرا ما سافرنا ، وكان ذلك لاننا بعد ان اتينا بعيدا بعيدا أصبحنا لانريد ان نتحرك كثيرا فى المكان ، وكنا نلتزم بما نعرف بالشقة والمحل والبر والنادى وشاطىء النهر عند الغروب .. وفى بعض الاحيان كنا نقوم برحلة نهاية الاسبوع الى جزيرة فرس النهر عند الشلالات ولم يكن هناك اى بشر غير افراس النهر بلغت سبعا حينما كنت اذهب فى اول الامر واصبحت الان ثلاثا فقط .

وكنا نعرف القرى المختفية اساسا بما نراه من حال القرويين حينما يأتون إلى المدينة ويبدون مجهدين ورثى الملابس بعد سنوات من العزلة والعوز لكنهم يبدون سعداء لان بوسعهم ان يتحركوا بحرية مرة ثانية .

وكانت المدينة تشكو من العزلة فاصبحت الان تحس بالازدحام ولم يكن يبدو ان اى شىء سوف يوقف حركة الاهالى من القرى ، حينئذ جاءت من خارج المدينة اشاعة تقول ان هناك حربا .

وكانت هى الحرب القديمة التى لانزال نحاول ان نشفى من اثارها وهى الحرب شبه القبلية التى نشبت عند الاستقلال وحطمت وافرغت المدينة . رحنا نفكر فى الامر جيدا اما المشاعر فملتهبة ، ولم يكن هناك مايجعلنا نفكر غير ذلك وكان حتى الافريقيون المحليون يتحدثون عن هذا الوقت بأنه وقت الجنون . الجنون هو الكلمة الحقيقة ومن « شوبا » و« ماهيشن » سمعت قصصا مروعة عن هذا الوقت ، منها القتل العارض على مدى

مايزيد على عدة شهور على أيدى الجنود والثوار والمرتزقة وعن ناس كانوا يتم ربطهم بطرق مقذعة ويطلب منهم ان يغنوا بعض الاغانى وهم يضربون حتى الموت فى الشوارع ، ولم يكن احد من الاهالى الذين قدموا من القرى يبدو مستعدا لمثل هذه الاهوال .. والان هاهى ذى رغم كل شىء تبدأ مرة ثانية .

وعند الاستقلال كان اهالى منطقتنا قد بلغوا حد الجنون بالغضب والخوف : الغضب المتجمع من المرحلة الاستعمارية وكل اشكال الخوف التى اعيد بعثها فى نفوس القبائل ، وكان سكان منطقتنا قد اسىء اليهم كثيرا ليس فقط من جانب الاوربيين ولكن كذلك من جانب الافريقيين الاخرين وعند الاستقلال رفضوا ان يحكموا بمعرفة الحكومة الجديدة فى العاصمة ، وكانت انتفاضة غريزية بدون زعماء ولابيان بشعارات ولو كانت الحركة اكثر عقلانية دون ان تكون حركة للرفض المباشر لكان اهالى هذه المنطقة قد رأوا هذه المدينة عند منحى النهر هى مدينتهم وعاصمة لأى دولة قد يقيمونها . ولكنهم يكرهون المدينة بسبب الدخلاء الذين حكموها وحكموا منها ولهذا فضلوا تدميرها على الاستيلاء عليها .

بدأوا يحسون بالحزن بعد قيامهم بتدمير مدينتهم وبدأوا يرغبون فى ان يروها مدينة حية مرة ثانية لهذا وبعد ان تحولت الى مكان فيه حياة بدأوا يحسون بالخوف عليها من جديد .

وكانوا يبدون مثل اناس لايعرفون مايريدون ، لهذا قاسوا كثيرا وجلبوا على انفسهم الكثير من المعاناة ، يبدون بالغى الضعف والجنون حينما يأتون من قراهم ويتجولون فى المدينة ويظهرون مثل أناس يحتاجون الطعام والسلام الذى تقدمه المدينة ، ولكن هناك أناسا مثلهم يرجعون الى قراهم ويريدون ان تهدم المدينة وتتحطم مرة ثانية .. ومثل هذا الغضب هو حريق الغابة الذى يسرى تحت السطح ويحرق دون ان يراه احد جذوع الاشجار ثم ينفجر فى ارض محترقة تم تدميرها لايجد شيئا يأكله وهكذا فى وسط الحطام والحاجة اشتعلت الرغبة فى التدمير من جديد .

وعادت الحرب التى كنا نظن انها ماتت لتجىء دفعة واحدة حيث بدأنا

نسمع عن الكمائن فى الطرق التى نعرفها وعن قرى يتم مهاجمتها وعن رؤساء وموظفين قد تم قتلهم .

وفى هذا الوقت قال « ماهيشن » شيئا اتذكره ولم يكن هو نوع الحديث الذى توقعته منه وهو الذى يبدى اشد الحرص على ملابسه حتى انه يبدو مدللا وهائما بزوجته الجميلة ، وقال لى « ماهيشن » : « هل تسأل على ماينبغى عليك عمله ؟ انت تعيش هنا وتسأل هذا السؤال . انت تفعل ما نفعله جميعا وهو مجرد الاستمرار »

اننا لدينا الجيش فى مدينتنا . ولقد جاءوا من قبيلة محاربة التى خدمت العرب كصائدى عبيد فى المنطقة ثم خدموا بعد ذلك ـ حينما وقع واحد او اثنان من حوادث التمرد القذرة ـ الحكومة الاستعمارية كجنود لها وهو مايجعل نظام الحماية البوليسية شيئا قديما .

ولكن العبيد لم يعودوا مطلوبين بعد ذلك ، وفى افريقيا مابعد المرحلة الاستعمارية اصبح بوسع اى فرد ان يحصل على السلاح واصبحت كل قبيلة قبيلة محاربة وهو مافرض الحرص على الجيش ، وفى بعض الاحيان كانت هناك العربات التى تحمل الجنود فى الشوارع لكن الجنود لم يكونوا يظهرون ابدا سلاحهم . ولقد كان نادرا ان يكون الجيش اكثر اثارة ذلك انه لم يكن بوسعهم ان يفعلوا ، وكانوا ضمن اعدائه التقليديين ورغم انهم كانوا يحصلون على مرتباتهم بانتظام ويعيشون حياة طيبة الا انهم فى حاجة الى المعدات ، ولقد اصبح لنا رئيس وهو احد رجال الجيش وكانت هذه هى طريقته فى الاشراف البوليسى على البلاد والسيطرة على جيشه الصعب .

وكان هذا سببا للتوازن فى المدينة ذلك ان جيشا يدفع لافراده بسخاء ومسيطرا عليه لدرجة الاستئناس كان شيئا طيبا للتجارة .

وكان الجنود يعرفون نقودهم فيشترون الاثاث ويحبون السجاد وهو ذوق ورثوه عن العرب . ولكن التوازن الان فى المدينة اصبح مهددا فلقد اصبح الجيش امامه حرب فعلية يخوضها ولا احد يعرف ما اذا كان هؤلاء الرجال الذى اعطيت لهم الاسلحة الحديثة مرة ثانية والاوامر بالقتل لن يتحولوا الى

الطرق التى كان يستخدمها اسلافهم من صائدى العبيد وان ينقسموا الى عصابات للسلب والنهب كما فعلوا عند الاستقلال وبعد سقوط السلطة برمتها .

لا . فى هذه الحرب كنت محايدا حيث كنت متخوفا من كلا الجانبين ولم اكن اريد ان ارى الجيش مطلق اليدين . ورغم اننى احسست بالتعاطف مع شعب المنطقة فلم اكن اريد ان ارى المدينة تخرب من جديد ، ولم اكن اريد اى جانب ينتصر وكنت اريد ان ارى التوازن قائما .

وفى احدى الليالى خامرنى الاحساس الغامض بان الحرب اصبحت وشيكة وقمت وسمعت صوت عربة نقل الجنود بعيدا وكان من الممكن ان تكون اى عربة او حتى عربة تابعة لـ « دولات » قريبة من الممر الصعب القادم من الشرق . ولكننى قلت لنفسى هذا هو صوت الحرب . وكان هذا الصوت لماكينة ساحقة منتظمة الحركات جعلنى افكر فى البنادق ثم فكرت فى اهالى القرى الجزعين ونصف الجائعين والذين سوف تستخدم ضدهم البنادق والذين كانت ملابسهم المهلهلة وقد اصبح لها لون الرماد ، انها من القلق الذى يأتى فى اليقظة ثم نمت مرة ثانية .

وقال لى « ميتى » حينما جاءنى بالقهوة فى الصباح « ان الجنود يجرون من جديد وصلوا الى احدى القناطر وبعد ان بلغوا هذا الكوبرى بدأت بنادقهم تلتوى »

وصمت به قائلا : « ميتى » !!

ورد علىَّ قائلا « سيدى اننى اقول لك ماحدث »

وكان هذا شيئا سيئا وانه اذا كان حقا ان الجيش يتراجع فانه شىء سيىء لاننى لا اريد ان ارى الجيش يتقهقر واذا لم يكن ذلك صحيحا فانه الامر مازال سيئا ايضا . ولقد تلقف « ميتى » الشائعات المحلية وان ماقاله عن البنادق التى تلتوى انما يعنى ان المتمردين الذين يلبسون الخرق كانوا قد اعتقدوا ان الرصاص لن يستطيع قتلهم وان جميع ارواح الغابة والنهر

تقف الى جانبهم . وان هذا يعنى انه فى اى لحظة وحينما يعطى اى شخص النداء الصحيح فانه سوف تكون هناك انتفاضة فى المدينة نفسها .

لقد كان الامر سيئا وليس هناك مايمكن عمله ولم يكن هناك ايضا مايمكن عمله لحماية البضاعة الموجودة بالمحل اى اشياء اخرى ذات قيمة فى حوزتى ؟ هناك اثنان او ثلاثة كيلو جرامات من الذهب كنت قد جمعتها من عدة صفقات صغيرة كما ان هناك مستنداتى : شهادة الميلاد وجواز سفرى البريطانى كما ان هناك الكاميرا التى كنت قد اظهرتها لـ « فيردناند » ولم اعد اريد ان اجذب بها انتباه احد الان . ولقد وضعت هذه الاشياء فى قفص خشبى كما احتفظ برسم الحائط للمكان المقدس الذى كان والدى قد ارسله لى مع « ميتى » كما انه لدىَّ جواز سفر « ميتى » ونقوده . ولقد قمنا بحفر حفرة فى فناء المنزل عند قاع السلم الخارجى حيث لم تكن هناك حجارة فى التربة الحمراء مما جعل الحفر سهلاً ودفت القفص هناك .

ولقد كان الصباح المبكر وكان الفناء الخلفى قذرا وعاديا مع ضوء الشمس ورائحة الدجاج الموجودة لدى الجيران عاديا جدا بالغبار الاحمر والاوراق الميتة وظلال الصباح للاشجار التى كنت اعرفها على الساحل فى منزلنا وقلت لنفس هذا شىء غبى جدا وقلت لنفسى فيما بعد اننى ارتكبت غلطة بعدما جعلت « ميتى » يعرف اننى وضعت كل شىء امتلكه وله قيمة فى هذا الصندوق وبهذا وضعت نفسى كلية فى يديه .

ولقد ذهبنا وفتحنا المحل وكنت قد قررت الاستمرار فى العمل . وكانت حركة البيع بسيطة فى الساعة الاولى ولكن سرعان مابدأ ميدان السوق فى الفراغ وتحولت المدينة الى الصمت ، وكانت الشمس ساطعة وحارة ورحت اتأمل ظلال الاشجار واكشاك السوق والمبانى حول الميدان .

وفى بعض الاحيان كنت افكر فى اننى استطيع ان اسمع صوت الشلالات التى كانت هى الصوت الابدى عند منحنى النهر ولكن فى يوم عادى لم اكن استطيع ان اسمعها هنا والان يأتى الصوت ويذهب مع حركة

الرياح . وفى الظهيرة عندما اغلقنا المحل للغذاء رحت امشى وسط الشوارع بدا النهر يلمع فى ضوء الشمس القوى وكأنه يبدو شيئا حيا ، ولم تكن هناك قوارب وانما كان هناك فقط السنبل البرى يسافر مع الموج قادما من الجنوب ويطفو الى ناحية الغرب كتلة وراء كتلة ومعه الجذوع الكثيفة لزهور الليلك التى تبدو كأشرعة السفن .

وكنت اتناول غذائى عند الزوجين الاسيويين العجوزين اللذين كانا يعملان فى تجارة النقل حتى مجىء الاستقلال حيث توقف العمل وذهبت بقية الاسرة بعيدا . ولم يتغير شىء منذ ان رتبت الامور على ان اتناول الغذاء معهما مرتين كل اسبوع . وكانا بلا معلومات او اخبار تقريبا ولهذا كنا نتحدث قليلا . وكان المنظر من الردهة فى المنزل الذى يشبه العزبة القديمة يطل على سيارات مهجورة وحطام العمل القديم وهى ملقاة فى الفناء . وكان الزوجان يبدو عليهما الاحساس بالرضا لانهم يعيشون حياتهم فحسب ولقد فعلوا كل ماتطلبه ديانتهم وتقاليدهم العائلية واصبحوا يحسون مثل الناس العجائز فى اسرتى انهم عاشوا حياة طيبة وحافلة .

وفى الساحل كنت دائم الاحساس بالحزن لاحوال الناس فى مجتمعنا هناك الذين كانوا يشبهون هذين الزوجين فى عدم مبالاتهم لما يجرى حولهم وكنت اريد ان اهزهم بعنف واحفزهم للاحساس بالخطر . ولكنه كان من المريح الان ان اكون مع مثل هذين الزوجين العجوزين بهدوئهما كما كان من الطيب فى يوم مثل هذا الا تكون هناك ضرورة لان اغادر هذا المنزل وان اصبح طفلا من جديد تحميه حكمة الكبار وان يؤمن بان مايروه هو الحقيقة .

من الذى يريد الفلسفة او الايمان فى الايام الطيبة ؟ نحن جميعا نستطيع ان نواجه الحياة فى الايام الطيبة ولكنه يتعين ان نكون مسلحين بالاستعداد للايام السيئة ، وهنا فى افريقيا لم يكن هناك من هو اكثر استعدادا من الافريقيين . ان الافريقيين هم الذين اشعلوا هذه الحرب ولسوف يتعذبون بشدة اكثر من اى شخص اخر ولكنهم يستطيعون ان يقاوموا حتى اكثرهم بؤسا ذلك ان لهم قراهم وقبائلهم وهى اشياء تخصهم

بصورة مطلقة ، وهم يستطيعون ان يهربوا مرة ثانية لعوالمهم السرية وان يضيعوا فى هذه العوالم كما فعلوا ذلك من قبل ، وحتى اذا وقعت لهم اشياء رهيبة فانهم يموتون مستريحين الى الاعتقاد بان اسلافهم ينظرون اليهم وهم راضون عنهم .

ولكن هذا لاينطبق على « فيردناند » بابوته المختلطة حتى انه يعتبر غريبا فى المدينة شأنى شأنه تقريبا ، وجاء احد الايام فيما بعد الظهيرة وهو فى حالة من الهيجان تشبه الهستيريا وقد تملكه الرعب من الافارقة غريبى الاطوار ..

ولقد توقفت الدراسة فى الليسيه وذلك بسبب عدم الامان بالنسبة للتلاميذ والمدرسين ، ولقد قرر « فيردناند » ان الليسيه لم تعد امنة واحس ان المدرسة سوف تكون واحدة من اول الاماكن التى سوف تتعرض للهجوم اذا ماحدث وكانت هناك انتفاضة فى المدينة .. ولقد تخلى عن شخصياته واوضاعه المصطنعة حتى بدلته المدرسية التى كان يلبسها بفخر على انه شاب من شباب افريقيا الجديدة اصبح الان يعتبرها خطرا بسبب انها تجعل منه شخصا مميزا مما جعله يلبس الان بنطلونات كاكية طويلة بدلا من اليونيفورم ذات البنطلونات البيضاء القصيرة ، وكان يتحدث فى طريقة عصبية عن عودته الى اهل ابيه فى الجنوب ولكن هذا كان مستحيلا ، كان هو يعرف انه مستحيل كما لم يكن من الممكن كذلك ان يذهب عبر النهر الى قرية والدته بكى الصبى الكبير الذى اصبح رجلا تقريبا وهو يقول « لم اود ان اتى الى هنا فأنا لا اعرف احدا ولكن والدتى هى التى ارادت ان اتى . لا اريد ان ابقى فى المدينة او ان اذهب الى الليسية . ولماذا ارسلتنى هى الى هذه المدرسة ؟»

ولقد كان مصدر راحة لنا ـ انا و« ميتى » ـ لان نجد انسانا نعطيه الاحساس بالراحة . قررنا ان ينام « فيردناند » فى حجرة « ميتى » ولقد اعددنا له مكانا لينام فيه ، ولقد ادى اهتمامنا بـ « فيردناند » الى احساسه بالهدوء واكلنا مبكرا وكان مازال نور النهار ، ولا « فيردناند » بالصمت ولكن بعدما ذهب كل منا الى حجرته الخاصة اخذ هو يتكلم مع « فيردناند ».

وسمعت « ميتى » يقول : « لقد اتوا الى إحدى القناطر ولكن كل العربات تعثرت وتلوت كل البنادق .

وكان صوت ميتى عاليا ومنفعلا ، ولم هذا هو الصوت الذى استخدمه معى حينما كان يعطينى الاخبار فى الصباح ، انه يتحدث الان مثل الافريقيين المحليين الذين اخذ عنهم القصة .

وفى الصباح لم تبد اثار الحياة ابدا على ميدان السوق وخارج المحل ، وظلت المدينة فارغة واختفى الذين يعسكرون او يمتلكون الاماكن بوضع اليد داخل المدينة .

وعندما ذهبت الى « شوبا » و« ماهيشن » فى شقتهما للغداء لاحظت ان قطع السجاد الفخمة قد اختفت وكذلك بعض الاوانى الزجاجية والفضية وقطعة الكريستال للمرأة العارية ، وكانت « شوبا » تبدو مجهدة وخاصة حول مآقى عينيها كما كان « ماهيشن » عصبيا نحوها اكثر من اى شىء اخر . وكانت الحالة النفسية لـ « شوبا » تتحكم فى الحالة النفسية لنا ونحن نتناول الغداء تبدو وكأنها تريد عقابنا بسبب الغداء الجيد الذى اعدته ، واكلنا ونحن لانتكلم لبعض الوقت ، راحت « شوبا » تنظر الى المائدة بعينيها المكدودتين بينما لم يكف « ماهيشن » عن النظر اليها .

وقالت « شوبا » يجب ان اكون فى منزلنا هذا الاسبوع لان ابى مريض . هل اخبرتك بهذا يا « سالم » ؟ وكان يتعين علىَّ ان اكون معه كما انه عيد ميلاده كذلك . وقفزت عينا « ماهيشن » الى المائدة ليفسد اثر الكلمات التى احسست بانها بالغة الحكمة ثم قال « سوف نستمر على مانحن عليه وسوف يكون كل شىء على مايرام ، ان الرئيس الجديد ليس ابله ، انه لن يستمر فى الوجود داخل منزله مثلما فعل الرجل الاخر دون ان يعمل شيئا »

وقالت « شوبا » « نستمر .. نستمر .. وهذا هو كل ما افعله وهكذا قضيت حياتى وهكذا عشت فى هذا المكان بين الافريقيين فهل هذه حياة يا « سالم »؟ ونظرت الى طبقها ولم تنظر الىَّ لكنى لم اقل شيئا .

واستمرت « شوبا » فى انفعالها : « لقد ضيعت حياتى ياسالم انك لا تعرف كيف انى ضيعت حياتى ، لاتعرف اننى اعيش فى خوف فى هذا المكان ، لاتعرف كيف احسست بالخوف حينما سمعت عنك وحينما سمعت ان غريبا جاء الى المدينة اصبح علىَّ ان احس بالخوف من كل الناس هل تعرف هذا ؟ وطرفت رموش عينيها وتوقفت عن الاكل وضغطت باطراف اصابعها على عظام خدها كما لو كانت تزيل الما عصبيا ، واستمرت « شوبا » فى الحديث لقد جئت من اسرة موسرة اسرة غنية هل تعرف . وكانت هناك خطط لحياتى من جانب العائلة ، لكننى قابلت « ماهيشن » وكان يملك محلا لبيع الدرجات البخارية ثم حدث شىء مرعب ، لقد نمت معه اول ما التقيت به تقريبا . انك تعرفنا وتعرف تقاليدنا جيدا بحيث تعرف ان ذلك الفعل كان شيئا مرعبا من جانبى ، واصبحت لا احب ان ارى اى شخص اخر بعد هذا . وكانت هذه هى لعنتى ، ثم سألتنى قائلة : « لماذا لا تأكل يا سالم كل . كل . يجب علينا ان نستمر .

وانطبقت شفتا « ماهيشن » فى عصبية وبدا كما لو كان غبيا بعض الشىء ، ثم لمعت عيناه بالمديح الذى اتى خلال كلمات الشكوى التى تحدثت بها زوجته التى ظل معها قرابة عشرة اعوام .

اوسعت عائلتى « هاميشن » ضربا ولكن هذا جعلنى اكثر اصرارا . هددنى اخوتى بالقاء الاحماض علىَّ وكانوا جادين فى تهديدهم ، كما هددوا بقتل « هاميشن » وكان هذا سبب مجيئنا الى هنا ارقب وصول اخوتى كل يوم ومازلت حتى الان انتظر حدوث ذلك ، وانت تعرف ان بعض الاشياء بالنسبة لعائلة كعائلتنا هى امور جادة وليست من قبيل الفكاهة . ثم حدث يا سالم ونحن هنا ماهو اسوأ . حيث قال لى « ماهيشن » فى احد الايام اننى غبية لانى اراقب وصول اخوتى وقال ان اخوتى لن يأتوا عبر هذا الطريق وانما سوف يرسلون رجلا اخر .

وقال « ماهيشن » : « هذه كانت نكتة »

وردت « شوبا » ابدا . لم تكن نكتة كان هذا حقيقيا ان اى انسان يمكن ان يصل الى هنا وانه بوسعهم ارسال اى شخص وليس بالضرورة ان يكون

اسيويا وانما من الممكن ان يكون بلجيكيا او يونانيا او اوروبيا او حتى افريقيا ، وكيف لى ان اعرف ؟

وتحدثت « شوبا » كل هذا الحديث على الغداء وتركها « ماهيشن » كما لو كان قد عرف بهذا الموقف من قبل ، وبعد ذلك اخذته بالعربة الى وسط المدينة وقال انه لايريد استعمال عربته ، واختفت عصبيته بمجرد ان تركت « شوبا » ولم يبد عليه انه احس بالحرج لما قالته زوجته عن حياتهما معا ولم يعلق بشيء على هذا الحديث .

وقال ونحن فى العربة اثناء تجولنا فى الشوارع المتربة الحمراء ان « شوبا » تبالغ وان الاشياء ليست على مثل هذه الدرجة من السوء كما تعتقد هى . ان الرجل الجديد ليس ابله ، لقد اتت الباخرة هذا الصباح ببعض الرجال البيض هل تعرف ؟ اذهب الى فندق فان دير فايدن وسوف ترى بعضا منهم ، ان الرجل الجديد ربما كان ابن خادمة ولكن سوف يمسك بالاشياء كلها فى قبضته وانه سوف يستخدم هذا ليضع الكثير من الناس فى مكانهم المناسب ، اذهب الى الـ فان دير فايدن فسوف ترى كيف تجرى الامور بعد الاستقلال .

وكان « ماهيشن » على صواب فلقد وصلت الباخرة حيث رأيت بعضا منها وانا اسوق العربة عند الرصيف . ولم تطلق الباخرة صفارتها ولم اكن قد رأيتها من قبل . وعندما توقفت امام محل « ماهيشن » الذى كان يقع امام الـ فان دير فادين رايت عددا من عربات الجنود وبعض العربات المدنية والتاكسيات التى كانت قد استولى عليها الجيش .

وقال « ماهيشن » انه من حسن الحظ ان الافارقة لهم ذاكرة ضعيفة اذهب وانظر الى الناس الذين جاءوا ليخلصوهم من الانتحار .

وكان الـ فان دير فايدن مبنى عصريا له اربعة ادوار فى الارتفاع وخطوط مستقيمة صلبة كجزء من حالة الرواج التى كانت سائدة قبل الاستقلال وعلى الرغم من كل الظروف التى مر بها هذا الفندق فانه لايزال يعتبر فندقا عصريا ، وللفندق ابواب زجاجية على مستوى الرصيف وللبهو

ارضية من الموزايكو وهناك مصاعد (لم تعد يوثق بها الان) وهناك مكتب الاستقبال واعلانات خطوط طيران ماقبل الاستقلال ولافتة كتب عليها « لاتوجد غرف خالية » وهو مالم يكن صحيحا منذ عدة سنوات .

ولقد كنت اتوقع زحاما فى البهو وضجة وضجيجا ولكنى وجدت المكان يبدو خاليا اكثر من المعتاد واكثر صمتا ، ولكن هناك ضيفا للفندق وكانت هناك فوق الارضية الموزايكو حوالى عشرين او ثلاثين حقيبة كبيرة وعليها بطاقة موحدة لشركة طيران اسمها « هازل ترافلز » اما المصاعد فلا تعمل وكان هناك احد صبية الفندق ورجل عجوز صغير الحجم يلبس ملابس الخدم اثناء العصر الاستعمارى وهو عبارة عن بنطلون كاكى قصير وقميص قصير الاكمام ويقوم بحمل الحقائب عبر السلالم بجوار المصعد ، وكان يعمل تحت الاشراف المباشر لرجل افريقى ذى بطن منتفخ (من مكان ما جنوب النهر) الذى يقف عادة خلف مكتب الاستقبال ويتعامل بوقاحة مع الجميع ولكنه يقف بالقرب من الحقائب ويحاول ان يظهر بمظهر الانشغال والجدية .

وعدت الى المحل وكان ذلك وسيلة لمواصلة الحياة وتزجية الفراغ . وتغير الضوء وبدأت الظلال تتعامد على الشوارع الحمراء . اخذت فى هذا اليوم وفى هذا الوقت بالذات افكر فى تناول الشاى فى الشقة ولعب الاسكواش فى النادى الهللينى ثم تناول بعض المشروبات الباردة فى البار الصغير جالسا امام الموائد المعدنية اراقب الضوء وهو يختفى رويدا .

وحينما جاء « ميتى » للمحل قبل الرابعة بقليل ميعاد الاغلاق قال لى « ان الرجال البيض قد وصلوا هذا الصباح وان بعضا منهم ذهب الى الثكنات والبعض الاخر ذهب الى المصحة المائية » وكانت هذه هى المحطة الهيدروكهربائية على بعد بضعة اميال عبر البحر من المدينة ، وكان اول شىء فعلوه فى الثكنات هو قتل الكولونيل « ميتى » وكان هذا هو ماطلبه منهم الرئيس لان يفعلوه ، وكان الكولونيل « ميتى » يجرى مسرعا للقائهم ولكنهم لم يعطوه فرصة الحديث قتلوه امام النساء وامام الجميع كما قتلوا الرقيب « اياندا » ايضا وبعض الجنود الاخرين كذلك .

وكنت اتذكر « ايادا » ببدلته العسكرية المنشاة وبوجهه العريض وعينيه المبتسمة الصغيرة والخبيئة والطريقة الخبيثة لاخراج اوراق النقود المطوية ، ولقد كانت اخبار اعدامه مدعاة لسرور الاهالى المحليين لا لأنه رجل شرير فحسب ولكن لانه كان من هذه القبيلة المكروهة لصيد العبيد مثل بقية الجيش ومثل قائده الكولونيل .

وكان الرئيس قد بعث بالرعب الى مدينتنا ومنطقتنا ولكن بقيامه بارهاب الجيش فى نفس الوقت كذلك كان يقدم ايماءة الى الاهالى المحليين ، ولقد انتشرت سريعا انباء الاعدامات واصبح الاهالى بالفعل عصبيين ومضطربين وربما احسوا مثلما احسست انا انه لاول مرة منذ الاستقلال كان هناك ذكاء يقود مسيرة الامور مركزه العاصمة وان الفوضى الشاملة للاستقلال قد انتهت .

وكنت استطيع ان ارى التغيير فى شخص « ميتى » لقد جاء بانباء دموية جدا لكنه بدا اكثر هدوءا من الصباح كما هدأ من روع « فيردناند » وبدأنا فيما بعد الظهيرة نسمع اصوات البنادق ، وفى الصباح كان هذا الصوت يمكن ان يصيبنا بالفزع جميعا ولكننا الان اكثر احساسا بالراحة ان البنادق تبدو بعيدة وان اصواتها اقل فى عنفها من اصوات الرعد التى تعودنا عليها . واهاجت الاصوات الغريبة الكلاب الى بدأت فى النباح الذى اخذ يتردد حتى انه كان يغطى على اصوات البنادق فى بعض الاوقات ، ولم نر غير ضياء الغروب والاشجار ودخان الطبيخ عندما خرجنا الى اسفل السلم الخارجى لننظر ما يجرى .

وانقطعت الكهرباء حيث توقفت المحولات او ان الكهرباء قد قطعت عن قصد او ان المتمردين استولوا على محطة الكهرباء لم يكن الامر بالغ السوء لان نقضى الليل بدون نور ذلك انه كان يعنى على الاقل انه لن تكون هناك انتفاضة اثناء الليل . والاهالى هنا لا يحبون الظلام ذلك ان بعضهم لايستطيع النوم فى حجراتهم او اكواخهم الا اذا كان هناك نور الكهرباء ، ولم يكن احد منا سواء أكان « ميتى » او « فيردناند » او انا يعتقد ان محطة الكهرباء قد وقعت فى ايدى المتمردين ذلك اننا كنا نثق فى الرجال

البيض التابعين للرئيس ، واصبح الموقف الذى كان مختلطا فى الصباح بالنسبة لنا بسيطا الان .

وجلست في حجرة الصالون اقرأ المجلات القديمة على ضوء لمبة غاز بينما كان « ميتى » و« فيردناند » يتكلمان ولكن ليس باصواتهم المعهودة اثناء ضوء النهار أو ضوء الكهرباء ولكن بأصوات بطيئة متمهلة كما لو كانا من عجائز الناس ، وكانت هذه المرة الأولى منذ عدة ايام حيث أصبح كلاهما يحس بالاسترخاء كما يحسان بأنهما بعيدان عن الخطر ثم أخذا يتحدثان عن الحرب والجيوش .

وقال « ميتى » انه رأى العديدين من الرجال البيض فى الصباح وقال « فيردناند » ان هناك الكثير من الجنود البيض فى الجنوب وان هناك حربا حقيقية . وقال « ميتى » ليتك رأيتهم هذا الصباح فلقد كانوا يتسابقون نحو الثكنات ويصوبون بنادقهم نحو جميع الناس ولم أر أنا أى جنود مثل ذلك من قبل .

وقال « فيردناند » : رأيت الجنود أول مرة وانا صغير جدا وكان ذلك بعد رحيل الأوربيين بوقت قصير حدث ذلك فى قرية والدتى قبل ان اذهب للاقامة مع والدى وجاء هؤلاء الجنود إلى القرية ولم يكن معهم ضباط ثم بدأوا يتصرفون بصورة سيئة .

« وهل كانت معهم بنادق ؟»

طبعا . كانت معهم بنادق ، ويبحثون عن الرجال البيض لقتلهم وجاءوا لنا وقالوا اننا نخفى بعض الرجال البيض اعتقدت انهم يريدون صنع المتاعب ، ثم جاءت والدتى وتحدثت معهم وذهبوا وتركونا ولكنهم اخذوا بعض النساء .

« ماذا قالت لهم والدتك ؟»

لا أعرف ولكنهم أصيبوا بالخوف ذلك ان والدتى لها قدرات »

وقال « ميتى » ان هذا يشبه الرجل الذى كان هناك على الساحل والذى

اتى من مكان ماقريب من هنا ، وكان هو الذى حرض الأهالى على قتل العرب . وبدأ ذلك فى السوق وكنت انا هناك وياليتك كنت ترى ماحدث يا « فيردناند » حيث كانت الاذرع والأرجل متناثرة فى الشوارع .

« لماذا قتل هو العرب ؟»

لقد قال انه يطيع اله الافريقيين .

ولم يكن « ميتى » قد حكى لى شيئا عن هذا ربما لانه لم يعتقد ان هذا كان شيئا مهما وربما لانها افزعته ولكنه مازال يتذكر ذلك .

واستمر اطلاق الرصاص ولكن الصوت لم يقترب عما كان عليه ، وكان ذلك صوت الأسلحة التى يملكها الرجال البيض التابعون للرئيس والذين هم وعد بالنظام والاستمرار وكان ذلك غريبا ومريحا مثل صوت الامطار فى الليل . وأصبح الآن كل ماكان مصدرا للتهديد فى ذلك العالم الخارجى المجهول قد أصبح تحت السيطرة ، وكان مصدرا للراحة بعد كل أشكال القلق ان تجلس فى الشقة التى تضيئها لمبة الغاز وان تراقب الظلال التى لا تكشفها الأنوار الكهربية ولتسمع صوت « فيردناند » و« ميتى » يتحدثان كعجائز الرجال فى هذه الحجرة التى تحولت الى كهف صغير دافىء .

وفى الصباح جاءت طائرة مقاتلة وبمجرد ان تسمعها تقريبا وقبل ان تأخذ من الوقت لكى تخرج وتنظر اليها فانها كانت فوق رأسك تطير على ارتفاع منخفض وتصيح بمثل هذه الحدة بحيث يخيل اليك انك تشعر بصعوبة بانك تمتلك جسمك وانك قريب من انقطاع الحواس .. وهذه الطائرة المقاتلة والتى تطير على ارتفاع منخفض لدرجة انك تستطيع بوضوح ان ترى بطن الطائرة الفضى بشكله المثلث هى شىء قاتل ثم ذهبت الطائرة وسرعان ما اختفت فى السماء التى كانت تبدو بيضاء مع حرارة النهار الذى ابتدأ لتوة ، وعادت الطائرة لتقوم بعد اختراقات لسماء المدينة مثل طائر شرير لايريد ان يذهب بعيدا ، ثم عادت لتحلق فوق الغابة وأخيرا ارتفعت ثم بعد هينهة ضئيلة من الوقت وعلى درجة من البعد انفجرت الصواريخ فى الغابة مثل صوت الرعد الذى تعودنا عليه .

وعادت الطائرة اكثر من مرة على مدى الأسبوع لتطير فوق المدينة والغابة على ارتفاع منخفض لتلقى بحمولتها من المتفجرات كيفما تصادف ذلك فوق الغابة ولكن الحرب انتهت منذ اليوم الأول رغم ان ذلك كان قبل شهر من مجىء الجيش من الغابة وقبل شهرين كاملين قبل ان يفقد فندق الـ « فان دير فايدن » ضيوفه الجدد .

وكنت اعتبر نفسى قبل وصول الرجال البيض محايدا ، ولم أرغب فى أن ينتصر أى جانب سواء الجيش أو المتمردون ، وكما كانت النتيجة فى نهاية الامر فلقد خسر كلا الجانبين .

قتل عدد كبير من الجنود التابعين للقبيلة المحاربة الشهيرة كما فقد فيما بعد الكثيرون منهم بنادقهم وملابسهم الرسمية والملاجىء السكنية التى دفعوا الكثير من أموالهم فى بنائها وفرشها واعترف الرئيس فى العاصمة بالجيش اما فى مدينتنا فلقد أصبح الجيش مختلطا من رجال اتوا من قبائل ومناطق عديدة ، واصبح الرجال التابعون للقبيلة المحاربة عارين من الحماية فى مدينتنا ، وأصبحت قبيلة شهيرة الآن بلا حول ولا طول بين فريستها التقليدية وبدا الأمر كما لو كان قانونا قديما من الغابة أو شيئا أتى من الطبيعة نفسها قد انقلب رأسا على عقب .

أما عن المتمردين الجائعين فى منطقتنا فلقد بدأوا يعيدون الظهور فى المدينة أكثر جوعا وبؤسا وعليهم خرق مسودة اللون وهم الذين كانوا منذ عدة أسابيع قليلة قد ظنوا أنهم عثروا على تميمة سحرية قوية المفعول بحيث تجعل بنادق أعدائهم تنثنى وتجعل الرصاص مجرد ماء . وكانت وجوههم الكئيبة تعلوها مشاعر المرارة ولفترة قليلة كانوا قد انسحبوا مثل انسان اصابه الجنون . ولكن بدأوا يحسون بالحاجة الى المدينة التى كانوا يزمعون تدميرها وكما قال « ماهيشن » فانهم انقذوا من الانتحار ، ثم بدأوا يعترفون بقوة الذكاء الذى كان يدير البلاد من على البعد وعادوا الى عادتهم القديمة فى الالتزام بالطاعة .

ولاول مرة منذ وصولى تبدو الحياة وقد عادت الى فندق « فان دير

فايدن » وبدأت البواخر تأتى ليس بمجرد الامدادات للرجال البيض التابعين للرئيس ولكن بجماعات من السيدات البدينات اللاتى يلبسن ملابس خيالية الجمال من اهالى اسفل النهر واللاتى تبدو بالنسبة لهن نساء منطقتنا اللاتى يعملن فى سحب القوارب وحمل البضائع مجرد أولاد نحاف عجاف .

وأخيرا سمح لنا بأن نسوق عرباتنا الى السد والمحطة الهيدروكهربية والتى كانت مسرحا لعمليات القتال ، ولم تمس المنشآت هناك بأى أذى ولكننا فقدنا واحدا من النوادى الليلية الجديدة أدار النادى أحد اللاجئين من المنطقة البرتغالية فى الجنوب ، وكان هاربا من التجنيد اما النادى فيقع على ربوة تطل على النهر انه دكان جميل تعودنا عليه ، تتدلى من اشجاره اللمبات الكهربائية الملونة ، وكنا نجلس على الموائد المعدنية نشرب النبيذ البرتغالى الأبيض الخفيف وننظر الى فخامة السد والذى تغرقه الأنوار وكان هذا مصدر احساس لنا بالرفاهية والفخامة ، وكان ان استولى المتمردون على هذا المبنى الجميل ودمروه .

وكانت هناك شواهد أخرى على هذا العنف التدميرى فى بعض الأماكن كذلك فبعد الحرب الأولى قامت الأمم المتحدة عن طريق احدى وكالاتها باصلاح محطة الكهرباء والممر المرتفع فوق اعلى السد ، وقد سجلت هذه الحقيقة لافتة معدنية وضعت على هرم حجرى صغير على بعد مسافة قصيرة من السد نفسه ولكن اللافتة طمست وهدمت بالات معدنية ثقيلة .

وفى خلال هذه الأيام الأولى للسلام ذهب الاب « هاوسمانز » الى احدى رحلاته وقتل هناك . لم يكن موته ليكتشف ابدا حيث كان من الممكن دفنه فى اى مكان بالغابة ، لكن الذين قتلوه ارادوا ان يعلنوا عن موته ، فتم وضع جثته فى احد القوارب التى سافرت عبر النهر الأساسى حتى اشتبكت فى احد الشواطىء عند دغل من النباتات البرية ، وكان قاتلوه قد مثلوا بجثمانه وفصلوا رأسه ثم دفن سريعا بالحدود الدنيا من الطقوس والاحتفال .

كان ذلك حادثا مرعبا وكشف موته عن مدى الضياع الذى كانت عليه

حياته ولقد دفن معه معرفته الكثيرة وماهو اكثر من معرفته وهو اتجاهاته وتذوقه لافريقيا واحساسه بمعتقدات الغابة ولقد ضاع معه جزء صغير من العالم .

وكنت اعجب به لنقائه ولكننى اتساءل الان بعد هذه النهاية ما اذا كانت النقاوة ذات اية فائدة وان ميتة كهذه تجعلنا نضع الكثير موضع السؤال ، ولكننا ادميون وبغض النظر عن أشكال الموت حولنا فاننا نستمر بطبيعتنا كلحم ودم وعقل ولانستطيع الاستمرار فى حالة التساؤل لمدة طويلة . وحينما تركتنا حالة التساؤل والحزن احسست ، انه فى قرارة نفسه كرجل محب للحياة وهو ما اشك فيه انه امضى وقته وزمانه بصورة أحسن من الكثيرين منا ، ولقد كانت الفكرة التى اخذها الأب « هاوسمانز » عن حضارته جعلته يعيش مثل هذا الشكل من الحياة المخلصة فى التفانى ، ولقد بعثت به أفكاره الى النظر والتساؤل وجعلته يرى الغنى الانسانى بينما كنا نحن ننظر الى الغابة أو لا نرى شيئا على الاطلاق ، ولكن فكرته عن حضارته مثل غروره جعلته يقرأ كثيرا عن هذا الامتزاج بين الشعوب عند نهرنا ولقد دفع ثمنا لهذا .

ولقد قيل النذر القليل عن كيفية موته ، ولكن الجثة عامت داخل القارب عبر تيار النهر ولابد ان كثيرا من الناس شاهدوها ولقد ذاع الخبر فى الليسيه وفى مدينتنا كان الأب « هاوسمانز » له شهرة على انه من محبى افريقيا رغم ان كثيرين من الناس كانت مشاعرهم نحوه غامضة ولقد احس بعض الصبية فى الليسيه بالحرج والخجل من النفس . بينما كان البعض عدوانيا اما « فيردناند » فقد خرج من حالة الرعب التى كان يحسها منذ عدة ايام وكانت رغبته فى أن يعود إلى قرية أبيه أو أمه من الرغبات العدوانية لذا لم أحس بالاندهاش .

وقال « فيردناند » انها شىء من أشياء الاوربيين اسمه متحف وهنا كان ذلك ضد اله الافريقيين اننا نملك الاقنعة فى منازلنا ونحن نعرف لماذا هى هناك وليس لنا ان نذهب الى متحف « هاوسمانز »

كانت كلمات « اله الافريقيين » هى كلمات « ميتى » التى اخذها عن

قائد المتمردين ضد العرب فى الساحل سمعت الكلمات للمرة الاولى فى هذه الليلة اثناء اطلاق النار من المحطة الهيدروكهربائية ، عرفنا حينذاك أننا فى امان ، ولقد بدا ان الكلمة قد فجرت اشياء ما فى عقل « فيردناند » ولقد كانت هذه الايام فى الشقة ذات طابع خاص بالنسبة لـ « فيردناند » وكان منذ ذلك الحين يتشكل فى اطار شخصية جديدة ، ولم يعد مهتما بان يكون نوعا خاصا من الافريقيين ولكنه مجرد افريقى مستعد للاعتراف بكافة جوانب شخصيته .

تخلى عن ادبه واصبح عدوانيا ومنحرفا بالاضافة الى عصبية صامتة وكان قد بدأ فى البعد عن المحل أو الشقة وكنت اتوقع ذلك منه ان يحاول بطريقته ان يبرهن لى انه بعد ايام الرعب من التمرد يستطيع الحياة بدونى ولكن جاء « ميتى » فى أحد الأيام بخطاب من « فيردناند » ولقد تأثرت من هذا الخطاب ، وكان عبارة عن سطر واحد كتب فى حروف كبيرة وعلى ورقة مسطرة نزعت من احدى الكراسات وارسلت بدون ظروف وكانت الرسالة تقول : سالم لقد اخذتنى فى هذا الوقت وتعاملت معى كعضو فى عائلتك الخاصة ووقع الخطاب بالحرف « ف »

انه خطاب شكر لاننى اعطيته الملاذ تحت سقف منزلى وكان ذلك الكرم بالنسبة اليه كافريقى شيئا غير عادى يستحق التقدير والاعتراف به .

رأيت الخطاب بشكله الخشن وبصيغته الخالية من كلمات الشكر الصريح مضحكا ومؤثرا فى نفس الوقت كما كان هناك شيىء سافر فى كل الموضوع ، ان الفعل الذى اثار هذه الرقة من « فيردناند » كان مجرد ايماءة بسيطة من رجل من الساحل حيث كانت عائلته تعيش قريبا جدا من خدمها الذين كانوا عبيدا من قبل والذين كان اباؤهم يخطفون من هذا الجزء من افريقيا وهو ماكان سيصيب « فيردناند » بالثورة لو عرف ذلك ، ولكن الخطاب رغم ذلك ولهجته غير المعتذرة تكشف عن مدى تطوره كرجل وكان ذلك هو ماتخيلته امه « زابت » حينما اتت به الى المحل وطلبت منى ان ارعاه واهتم بشئونه .

بدأ بعض الناس يقولون ماقاله « فيردناند » عن مجموعة المقتنيات التى

كانت لدى الاب « هاوسمانز » وحينما كان الاب « هاوسمانز » حيا راج يجمع هذه الأشياء عن افريقيا وينظر اليه على انه من اصدقاء افريقيا ، ولكن تغير الأمر الآن واصبح البعض يحسون بان هذه المقتنيات كانت اهانة للديانة الافريقية ولم يتقدم احد بالاستيلاء على هذه المجموعة داخل الليسيه وربما كان ذلك لانه لم يوجد احد له المعرفة والعين الفاحصة المطلوبة لذلك .

وكان بعض الزوار يرون المقتنيات المنحوتات الخشبية كما هى اما بالنسبة لحجرة السلاح التى لم تكن لها منافذ للتهوية تحول شكل الأقنعة وأصبحت رائحتها غير طيبة اما الأقنعة نفسها فلقد تجعدت فوق الأرفف وبدا انها قد فقدت القدرة الدينية التى علمني الاب « هاوسمانز » ان أراها فيها وبدونه أصبحت ببساطة أشياء غريبة المعنى فحسب .

وفى عهد السلام الطويل الذى خيم الآن على المدينة أصبحنا نستقبل الضيوف من اثنتى عشرة دولة ومنهم المدرسون والطلاب والذين يساعدون فى هذا المجال أو ذاك وكان الناس الذين يتصرفون كمكتشفين لافريقيا سعداء بكل شيء يجدوه لكنهم كانوا ينظرون بازدراء بدرجة ما الى الاجانب امثالنا الذين يعيشون هناك ، وبدأت المقتنيات تنهب ، ولم يكن هناك من يدعى انه اكثر افريقية من احد الشبان الامريكيين الذى ظهر بيننا والذى كان اكثر استعدادا لان يلبس الملابس الافريقية ويرقص الرقصات الافريقية . لقد سافر فجأة بالباخرة فى احد الايام ثم اكتشفنا بعد ذلك ان معظم المقتنيات التى فى غرفة السلاح قد عبئت فى صناديق وتم شحنها مع اشيائه الخاصة الى الولايات المتحدة ولاشك فى انها سوف تكون نواة لمعرض الفن البدائى الذى تحدث هو عن بداية انشائه وكانت هذه هى اغلى المنتجات التى جادت بها الغابة .

املاك الحكومة الجديدة

- ٦ -

لو نظرت الى طابور من النمل وهو يسير فسوف ترى ان هناك بعض النمل الشارد والمتأخر عن رفاقه الذى فقد الطريق والطابور ليس لديه وقت لهم فانه يواصل المسير وفى بعض الاحيان يموت الشاردون وحتى هذا ايضا ليس له تأثير على الطابور ، وهناك قليل من الاضطراب حول الجثة التى تحمل بعيدا فى نهاية المطاف فى الوقت الذى تستمر فيه الحركة العظيمة وهذه الخاصية الاجتماعية الظاهرة وهذه الطقوس للقاء والتحية التى يقوم بها النمل دون ابطاء اثناء السفر فى اتجاهات معاكسة من وإلى الأعشاش .

وهكذا كان الحال فى اعقاب وفاة الاب « هاوسمانز » ففى الايام الماضية كان موته قد يثير الغضب وقد يدفع الناس الى الخروج للبحث عن قاتليه ولكنا الان نحن الذين بقوا بصفتهم خارج المجتمع لاهم مستوطنون ولاهم زوار وانما ناس ليس لهم مكان افضل يأوون اليه فاننا نحنى الرؤوس ونواصل العمل كالمعتاد .

ولقد كانت الرسالة الوحيدة لموته هى اننا يجب علينا ان يكون حذرين وان نتذكر أين نحن نكون ، ومن الغريب جدا انه بتصرفنا الذى فعلناه باحناء الرأس ومواصلة العمل المعتاد قد ساعدنا على تحقيق ماكان قد تنبأ به لمدينتنا حيث قال ان مدينتنا سوف تعانى من النكسات ولكن هذا سوف

يكون شيئا مؤقتا ، وبعد كل انتكاسة فإن حضارة اوربا سوف تكون اكثر امانا عند المنحنى فى خط النهر وسوف تبدأ المدينة دائما من جديد وسوف تنمو قليلا قليلا كل مرة .. وفى ظل السلام الذى نحن فيه الآن فان المدينة لم يعاد قيامها فحسب ولكنها تنمو كذلك وسرعان ماتقلص اثر التمرد وموت الأب « هاوسمانز »

ولم يكن لنا نحن الأفكار الكبيرة التى كان يعتنقها الاب « هاوسمانز » ولبعضنا أفكاره الخاصة الواضحة عن الأفريقيين ومستقبلهم ولكن خطر لى اننا ربما كنا نشاركه فعلا فى ايمانه بالمستقبل .

ولولا اننا نعتقد ان التغير هو فى طريقه لهذا الجزء من افريقيا الذى نعيش فيه لما كان بوسعنا ان نمضى فى أعمالنا ، ولقد رأى « هاوسمانز » نفسه كجزء من عملية تاريخية عظمى وفى ظل ذلك فلربما نظر هو الى وفاته كشىء غير مهم ولا أكثر من ازعاج عارض ، ولقد احسسنا نحن بمثل ذلك ولكن من زاوية مختلفة .

كنا نحن رجالا بسطاء لهم حضاراتهم ولكن بدون أوطان أخرى . وحينما يسمح لنا فاننا كنا نفعل الأشياء المعقدة التى علينا ان نفعلها كالنمل ، وكانت لنا الراحة العارضة للجزاء ولكن فى الأوقات السعيدة أو الرديئة فلقد عشنا مع المعرفة باننا كنا قابلين للضياع وان عملنا ربما يذهب سدى فى أى لحظة واننا نحن عرضة لأن نتحطم وان غيرنا يمكن ان يحل محلنا وبالنسبة لنا فلقد كان ذلك هو الجزء المؤلم ولكن الأجزاء الأخرى تأتى فى أوقات أحسن ، كنا كالنمل قد مضينا فى الطريق دونما توقف .

يتحرك الناس الذين يعيشون أحوالنا يتحركون سريعا من الاكتئاب إلى التفاؤل والعكس مرة ثانية . ونحن الآن فى فترة انتعاش ولقد أحسسنا بالذكاء الجديد الحاكم والطاقة الآتية من العاصمة وهناك كثير من الأموال النحاسية تتحرك حولنا وهذان الشيئان النظام والمال كفيلان بان يعطيا الاحساس بالثقة ، وان شيئا قليلا من هذا قد دخل حياتنا منذ فترة طويلة فتفجرت طاقتنا والطاقة ربما هى وليس رأس المال الكبير او السرعة كانت كل ما نملك .

بدأت تظهر كل أنواع المشروعات وعادت للحياة العديد من الادارات الحكومية واصبحت المدينة اخيرا مكانا يمكن ان يعمل ويتحرك ، وعادت لنا خدمة البواخر واعيد افتتاح المطار وتم توسيعه لاستقبال الطائرات من العاصمة ولنقل الجنود ، كما بدأت خطوط الاتوبيس والكثير من التاكسيات كما بدأنا نحصل على نظام للتليفونات . تبدو أكثر قليلا مما نحتاج ولكن ذلك كان مايريده « الرجل الكبير » فى العاصمة لنا .

وأصبح الناس مثل موظفى الصحة الذين يقدمون خدماتهم لقاء النقود الجاهزة ، كانوا نشيطين وفعالين أو يمكن جعلهم هكذا وكذلك كان الحال مع موظفى الجمارك والبوليس وفى الجيش ، وباتت الادارة رغم أنها كانت خاوية أكثر امتلاء ، وأصبح هناك أناس تستطيع ان تلجأ اليهم وتستطيع انجاز الأشياء اذا ما كنت تعرف كيف تسوس الامور .

وأصبحت المدينة على منحنى خط النهر مرة ثانية ما قاله عنها الأب « هاوسمانز » انها كانت دائما بزمن طويل قبل مجىء رجال المحيط الهندى أو اوروبا اليها وذلك بعدما أصبحت المركز التجارى للمنطقة المتسعة الشاسعة ، وكان التجار يأتون اليها من اقصى الأماكن ليقوموا برحلات اصعب كثيرا مما تقوم به « زابت » وكان بعض هذه الرحلات يستغرق اسبوعا بكامله ، ولم تكن الباخرة تتقدم الى ابعد من مدينتنا وعند الشلالات كانت هناك القوارب وبعضها يعمل بموتورات وبعض اللنشات ، واصبحت مدينتنا مستودعا للبضائع ولقد حصلت انا على عدد من الوكالات (واستعدت بعضا من هذه الوكالات التى كان يملكها « نصر الدين ») حتى هذا الوقت مازلت بشكل أو بآخر تاجرا للتجزئة .

وكان الباعة الذين يأتون من العاصمة ومعظمهم اوربيون يفضلون استعمال الطائرة بدلا من البواخر التى تستغرق سبعة ايام للوصول وخمسة ايام اخرى لرحلة العودة وكانوا يقيمون فى فندق « فان دير فايدن » ولقد اضافوا شيئا من جمال التنوع فى حياتنا الاجتماعية ، وكانوا يأتون أخيرا بهذه اللمسة الخاصة باوروبا والمدن الكبيرة وذلك فى جميع الأماكن التى يرتادونها مثل النادى الهللينى والبارات وكان هذا الجو يذكرنى بأن « نصر الدين » مازال يحيا هنا ..

وكان « ماهيشن » ومحله الذى يقع فى مقابلة فندق « فان دير فايدن » يرى الدخول والخروج دفعته حماسته الى القيام بعدة مخاطرات فى العمل وكان هذا غريبا بالنسبة لـ « ماهيشن » فهو دائما ينتظر البداية الكبيرة ولكنه يقضى الأسابيع فى اشياء ضئيلة القيمة .

وكان قد اشترى ماكينة لنقش او حفر الأسماء والأرقام ثم حصل على كمية كبيرة من الألواح البلاستيكية القوية والتى سوف تنقش عليها الحروف والأرقام ، وكانت فكرته ان يمد المدينة بلوحات الاسماء ، ولقد بدأ اولى تجاربه فى المنزل وقالت « شوبا » ان الصوت كان فظيعا ، وكان « ماهيشن » فى شقته ومحله قد اخذ يمارس عمل لوحات الاسماء كما لو كان هو الذى يحفر الحروف الجميلة بنفسه وليست هى الماكينة التى تقوم بهذا العمل ، وكانت الحداثة والدقة والمنظر الصناعى للوحات قبل كل شىء هى التى تثيره وكان متأكدا من انها سوف تثير كل من يراها من الناس كذلك .

ولقد علق « هاميشن » اماله كلها على فندق « فان دير فايدن » وكان يفكر فى اعادة وضع أرقام الحجرات وكل لوحات « السيدات والرجال » فى الفندق كما كان يفكر فى وضع لوحة وصفية على كل حجرة تقريبا فى الدور السفلى . وكانت عائداته من التعامل مع فندق الـ « فان دير فايدن » سوف تشغله لمدة عدة اسابيع من العمل كما سوف تجعله يحصل على القيمة التى اشترى بها الماكينة ، ولقد ظل « ماهيشن » هو الرجل الذى يحب الماكينات والآلات الكهربائية الصغيرة وكان يرى فيها وسيلة سحرية للتجارة والكسب .

وكنت اعرف العديد من الرجال مثل ذلك عند الساحل وكانوا من مجتمعنا وانا اعتقد ان الناس من أمثال هؤلاء يوجدون دائما فى أى مكان لا تصنع فيه الآلات ، وهؤلاء الرجال موهوبون بخبرة ايديهم بشكل خاص بهم ويبدون مذهولين بالماكينات التى يستوردونها وهذا جزء من ذكائهم ولكنهم سرعان مايتصرفون لابوصفهم يملكون الآلات ولكن براءة اختراعها ايضا ويريدون ان يكونوا بين يوم وليلة الرجال الوحيدين الذين يملكون هذه الآلات الساحرة وكان « ماهيشن » مثل هؤلاء يريد البحث عن شىء

مستورد سحرى يملكه وحده ويكون هذا الشىء البسيط هو الطريق القصير نحو القوة والمال ، وفى هذا المجال فان « ماهيشن » يعتبر درجة او درجتين اعلى من التجار الذين يأتون للمدينة لشراء البضائع الحديثة ليعودوا بها الى قراهم .

وكنت اتعجب كيف ان شخصا مثل « هاميشن » قد نجح وتجاوز كل ما مر به من تجارب واخطاء فى المدينة وربما كان ذلك لان هناك نوعا من الحكمة أو الحذر الهادىء الذى لاشك فيه ، ولكننى بدأت احس بانه نجح وتجاوز كل هذا لانه يعمل ويتصرف بصورة عارضة دون شكوك أو قلق عميق على الرغم من حديثه عن الذهاب الى بلد أحسن دون وجود طموحات عميقة لديه ، ولقد كان يلائم المكان وانه لم يكن فى مقدوره ان يستمر فى اى مكان اخر .

كانت « شوبا » هى حياته تحدثه كم هو لطيف وذكى وخارج هذا فانه كان يأخذ الاشياء كما تأتى اليه ، والان وبأكثر الطرق عفوية وبدون اية محاولة للسرية والحذر تقريبا فانه اخذ يتورط فى صفقات الأعمال التى كانت تجعلنى احس بالرعب حينما يخبرنى عنها ، وبدا لى انه غير قادر على مقاومة اى شىء يمكن وصفه بأنه عرض عمل ، وكانت معظم هذه العروض للعمل تأتى اليه الآن من الجيش .

ولم اكن سعيدا بجيشنا الجديد فلقد كنت افضل رجال القبيلة المحاربة رغم فظاظتهم فلقد كنت اتفهم كبرياءهم القبلى واذا تجاوزت عن هذا فلقد كانوا مستقيمين واضحين ، اما ضباط الجيش الجديد فكانوا صنفا مختلفا لم يكن هناك قانون عسكرى او أى قانون ، لقد كانوا فى طرق شتى مثل « فيردناند » صغارا فى السن مثله ولكن بدون سماحته الخفية . وكانوا يلبسون ملابسهم العسكرية كما كان « فيردناند » يلبس بدلة مدرسة الليسيه وينظرون الى انفسهم على انهم الرجال الجدد لافريقيا ورجال افريقيا الجديدة ، وكانوا يلعبون بالعلم الوطنى وبصورة الرئيس وهما شيئان أصبحا مقترنين سويا ، كنت فى البداية اظن بعد كل ما عاشته البلاد وكل ماحدث لهم فان الضباط الجدد الذين حملتهم الأحداث السعيدة

الى حيث يكونون كنت أظن أنهم يرمزون إلى كرامة جديدة بناءة ولكنهم كانوا أكثر بساطة من ذلك فكان العلم وصورة الرئيس مجرد تميمة ومصدر لسلطتهم ، ولم ير هؤلاء الشبان أن هناك أى شىء مطلوب بناؤه فى بلدهم ، كان كل شىء بالنسبة لاهتمامهم موجودا بالفعل وأصبح ما عليهم غير الأخذ ، وكانوا يعتقدون انه بعدما أصبحوا هكذا عليهم الحصول على حق الأخذ وكلما علت رتبة الضباط زادت درجة الاحتيال اذا ماكان لهذه الكلمة من معنى .

واصبحوا ببنادقهم وعربات الجيب التابعة لهم سارقى العاج والذهب ثم اضف الى ذلك تجارة العبيد وهو مايعيدنا الى افريقيا القديمة جدا بخطوة واحدة .

وكان الموظفون والحكومات على مدى القارة مرتبطين بتجارة العاج التى اعلنوا هم عن عدم شرعيتها وهو ما جعل التهريب امرا سهلا . وكنت احس بالعصبية خوفا من التورط لان الحكومة الى تعصى قوانينها تستطيع ايضا ببساطة ان تحطمك ويصبح رفيق العمل اليوم هو الذى يسجنك غدا .

ولكن « ماهيشن » لم يكن يهتم مثل طفل بدا لى انه قد قبل الحلوى المسمومة التى اعطيت له ولكنه لم يكن طفلا ولكن كان يعلم انها حلوى مسمومة .

وكان كل مايقوله : اوه . انهم قد يتخلون عنك ، واذا حدث ذلك فانك تدفع من مالك وهذا هو كل شىء ، وعليك ان تحسب حساب ذلك فى تكلفتك انى لا اظن انك تفهم يا سالم لانها ليست شيئا سهلا على الفهم انها ليست انه ليس هناك شىء صحيح او خطأ ولكنها ليس هناك شىء صحيح . ورغما عن هذا فلقد كسب « ماهيشن » نقودا كثيرا وكان يعترف بمساعدتى له مما يضيف الى محل الذهب الصغير الذى امتلكه ، وكان يقول انه لا يوجد شىء صحيح ولكننى من الصعب علىَّ ان اتوافق مع هذا ولكنه كان يدير اموره هذه بحلاوة ويسر . كان دائما هادئا وعفويا وكنت اعجب به من اجل ذلك رغم ان هذا قد يقوده الى مواقف مثيرة للسخرية .

وقال لى ذات يوم باسلوبه الغامض البالغ البراءة الذى يصطنعه كلما اوشك ان يتحدث معى عن احدى الصفقات : « هل تقرأ الصحف الاجنبية يا سالم ؟» هل تهتم بسوق النحاس ؟ وكيف هى » وكان النحاس مرتفعا وكنا كلنا نعرف هذا وكان النحاس فى اخر قائمة السلع الرائجة ، ثم قال : « انها الحرب التى يشنها الامريكيون . لقد سمعت انهم استعملوا من النحاس فى العامين الاخرين اكثر مما استعمل العالم كله على مدى قرنين كاملين » وكانت هذه ثرثرة الباعة فى فندق « فان دير فايدن » وكان « ماهيشن » قد جمع وهو فى مقابلة الفندق جزءا كبيرا من هذه الثرثرة والتى بدونها بدا اقل علما بما يجرى فى العالم .

ومن النحاس انتقل الى الحديث عن بعض المعادن الاخرى وتحدثنا سويا لفترة وفى حالة من الجهل عن احوال الصفيح والرصاص ، ثم قال « يورانيوم . ماذا عن هذا ايضا ؟ ماذا هو السعر الذى يعلنون عنه الان ؟»

وقلت له « لا اظن ان أحدا يعرض سعرا لليورانيوم ؟

ونظر الىَّ نظرة بريئة وقال : لابد انه عالى السعر اليس كذلك . ان هناك شابا يريد ان يبيع قطعة منه .

فقلت له : هل هم يبيعون اليورانيوم بالقطع ؟ وكيف يبدو شكله ؟

قال لى : لم اره ولكن هذا الشاب يريد ان يبيع القطعة التى معه بمليون دولار .

وقال « ماهيشن » لقد قلت للجنرال انها لايمكن ان تباع الا لدولة اجنبية . وطلب منى ان استمر فى عملى ، هل تعرف « مانسينى » العجوز انه وكيل عدة دول صغيرة وهذا خط تجارة جميل كما اعتقد ، ولقد ذهبت للقائه وقلت له مباشرة ولكنه لم يبد اهتماما والحقيقة ان « مانسينى » بدا كالمجنون حيث انه جرى الى الباب واغلقه ووقف بظهره خلفه ثم طلب منى ان اخرج . وكان وجهه محمرا ، ان الجميع يخافون من « الرجل الكبير » فى العاصمة . ماذا تظهن اننى اقول للجنرال يا سالم انه خائف كذلك ، لقد

قال لى انه سرقها من مكان بالغ السرية ، اننى لا اريد ان اجعل الجنرال عدوا لى . ولا اريد ان اجعله يظن اننى لم احاول ، ماذا تظن انه يجب علىّ ان اقول له بجدية . بجدية .

انت تقول « انه خائف »

نعم انه خائف جدا ..

حينئذ قل له انه مراقب وانه يجب الا يأتى ليراك مرة ثانية .

ونظرت الى مجلاتى العلمية وموسوعات الاطفال التى مازلت احبها لاقرأ شيئا عن اليورانيوم . اليورانيوم واحد من الاشياء التى نسمع عنها جميعا ولكن ليس منا الكثير الذين يعلمون حقيقتها مثل البترول ، وكنت اظن من السماع والقراءة ان البترول يجرى فى جداول محاصرة تحت الارض .. وكانت الموسوعة الخاصة بى هى التى عرفتنى ان مستودعات البترول هى من الحجر ويمكن ان تكون من الرخام ويكون البترول فى جيوب صغيرة . وهكذا كان الامر بالضبط كما افترض مع الجنرال الذى سمع عن القيمة الخرافية لليورانيوم على انه معدن بالغ القيمة كنوع من خام الذهب .

وكان مانسينى القنصل يظن انه كذلك ، ودلتنى قراءاتى ان اطنانا واطنانا من هذا الخام يحدث لها ان تعالج وتصفى حتى تصبح قطعا بالغة القيمة .

وربما كان الجنرال الذى عرض قطعة من المعدن قد خدع من قبل البعض ، ولكن « ماهيشن » لسبب ما اخبره بانه مراقب وعليه فلم يعد الى ازعاجه مرة ثانية . كما انه لم يستمر طويلا فى مدينتنا حتى تم ارساله بعيدا عنها ، انها الطريقة التى يتبعها الرئيس الجديد وهى ان يعطى لرجاله القوة والسلطة ولكنه لايسمح لهم بالاستقرار فى مكان ما حتى لايصبحوا ملوكا محليين ولقد وفر هذا علينا الكثير من المتاعب .

وبقى « ماهيشن » مستمرا فى طريقته الهادئة مثلما كان الحال . اما الرجل الوحيد الذى اصابه الخوف فكان هو « مانسينى » القنصل

وهكذا كنا فى هذه الايام ، لقد احسسنا ان هناك كنزا حولنا ينتظر من يكتشفه ويأخذه . وكانت الغابة هى التى اعطتنا هذا الاحساس وكنا اثناء الاوقات الفارغة والعاطلة قليلى الاهتمام بالغابة وكنا اثناء التمرد مكتئبين بسببها ، والان فانها تثيرنا بوصفها الارض التى لم تستغل وبوعد عدم استغلالها ولكننا نسينا ان اخرين كانوا هنا قبلنا وانهم احسوا نفس الشىء مثلنا .

اشتركت فى حالة الرواج وكنت نشطا بطريقتى الخاصة المتواضعة ولكننى كنت قلقا لا اقر على شىء ، انك تتعود سريعا على السلام ذلك انه نفس الشىء مثل ان تكون فى صحة جيدة فانك تأخذ الحال على انه مسلمة بديهية بينما لو كنت مريضا فانك ترى ان عودتك للصحة هى كل شىء تتمناه ومع السلام والرواج بدأت ارى المدينة كشىء عادى للمرة الاولى .

واصبحت اعرف جيدا الشقة والمحل والسوق خارج المحل والنادى الهللينى والبارات وحياة النهر والقوارب الخشبية والسنبل البرى . وكان هذا يبدو اوضح ما يكون فى فترة مابعد الظهيرة الحارة المشمسة وهذا الضوء القاسى وهذه الظلال الداكنة وهذا الاحساس بالسكون الذى يبدو بدون اى وعد انسانى .

ولم ار نفسى اقضى بقية ساعات النهار عند منحنى النهر مثل « ماهيشن » وغيره ولقد قدرت بعقلى ان افصل نفسى عنهم ، اننى مازلت انظر الى نفسى على اننى رجل يمر خلال مرحلة فحسب ، ولكن اين المكان الحسن لأستطيع ان اقول ولم افكر بصورة بناءة فيه ، اننى انتظر وميضا يأتى الىَّ يقودنى الى المكان الحسن والحياة التى مازلت انتظرها حتى الان .

ومن حين لحين تذكرنى الخطابات التى تأتى من والدى عند الساحل برغبته فى ان يرانى وقد استقررت وتزوجت ابنة نصر الدين وهو ماكان بمثابة التزام عائلى لكننى لم اكن اكثر استعدادا لهذا عن ذى قبل ، ورغم هذا فلقد كان ذلك فى بعض الاحيان مصدر راحة لى ان اعبث بفكرة ان هناك حياة تنتظرنى خارج هذا المكان وان هناك علاقات تربط الانسان

بالارض وتعطيه نعمة الاحساس بان له مكانا ، ولكننى كنت اعرف ان الامور ليست كذلك فى الحقيقة وكنت اعرف ايضا انه بالنسبة لنا فالعالم لم يعد امنا كهذا .

ومرة ثانية تتداخل الاحداث مع مشاعر القلق عندى ، كانت هناك اضطرابات فى اوغندا حيث يمتلك نصر الدين محلجا للقطن هناك وكانت اوغندا حتى هذا التاريخ البلد الامن الذى يدار بكفاءة والذى حاول نصر الدين ان يثير خيالنا بشأنه كما كان البلد الذى يستقبل اللاجئين من البلدان المجاورة ، والان فى اوغندا نفسها تم وقوع انقلاب ضد الملك وارغم على الهرب وقد عاد دولات بقصص عن جيش اخر مطلق السراح ، ولقد كان نصر الدين كما اتذكر يعيش على الفرضية انه بعد كل الحظ الذى صادفه فان الامور سوف تنتهى بالنسبة له نهاية سيئة واعتقد الان ان حظه قد انتهى هذه المرة .. ولكننى كنت مخطئا فان حظ نصر الدين مازال قائما معه ، فالاضطرابات فى اوغندا لم تستمر ولم يكن هناك من اصيب بضرر غير الملك فحسب ثم عادت الحياة الى طبيعتها لكننى بدأت احس بالخوف من اجل نصر الدين وعائلته وان فكرة الزواج من ابنته لم تعد هى الخيار العائلى الصحيح .. واصبحت هذه الفكرة مسئولية طاغية مما جعلنى ادفع بها الى خلفية عقلى كشىء يمكن لى ان اواجهه حينما اكون مرغما عليه بصورة مطلقة .

ولهذا فانه وسط حالة الرواج كانت لدىَّ مشاعر القلق الخاصة بى واصبحت تقريبا على نفس الدرجة من عدم الرضا والضيق مثل ماكنت عليه فى البداية ، ولم يكن الدافع لذلك هو مجرد ضغوط خارجية او الاحساس بالوحدة او مزاجى الخاص ولكن كان هناك كذلك طبيعة المكان نفسه وكيف تغير مع حالة استتباب السلام ، انها لم تكن غلطة احد ولكنها شىء حدث بالفعل ، ففى خلال ايام التمرد كانت لدىَّ الاحاسيس الحادة ، بجمال النهر والغابة وكنت قد وعدت نفسى انه مع عودة السلام فاننى سوف اعرض نفسى لهذا الجمال وادرسه وامتلكه ولم افعل اى اى شىء من هذا القبيل وعندما جاء السلام فاننى توقفت ببساطة عن النظر حوالى والان احس بان غموض المكان وسحره قد انقضيا تماما .

وفى هذه الايام التى كان يسودها الخوف احسست باننا كنا على صلة بارواح النهر والغابة عن طريق الافريقيين وان كل شىء كان ممتلئا بالتوتر . ولكن كل الارواح الان قد بدت وكأنها هجرت المكان كما حدث ان هجرت الارواح اقنعة الاب « هاوسمانز » بعد ان لقى حتفه ، ولقد كنا نحس بالضيق من الافريقيين خلال هذه الايام ولم نكن نسلم بوجود احد منهم ، وكنا نحس باننا الدخلاء والرجال العاديين وهم الناس الموحى اليهم والان تركتهم الارواح واصبحوا عاديين واقزارا وفقراء ، واصبحنا نحن بدون جهد .وفى حقيقة الامر السادة الذين يملكون المواهب والمهارات التى يحتاج اليها الافريقيون . وعلى الارض اصبحنا الان عاديين مرة ثانية ورتبنا لانفسنا حياة عادية فى البارات وبيوت الدعارة والنوادى الليلية ولم يكن هذا مرضيا لكن ماذا بوسعنا ان نفعل غير هذا ؟ ولقد فعلنا فحسب ما نستطيع ان نفعله واتبعنا شعار « ماهيشن » وهو مواصلة الحياة والعمل كما هما .

ولقد بدأت مؤخرا ازالة الغابة القريبة من الشلالات وسوى الحطام الذى بدا أنه أزيل بالبلدوزرات وشقت شوارع واسعة جديدة وكان هذا هو ن فعل الرجل الكبير واستولت الحكومة على كل المنطقة ووضعت قانونا يجعلها ملكا للدولة وان الرجل الكبير يبنى مايمكن وصفه بانه مدينة صغيرة ، وكان هذا يحدث سريعا ، وكانت اموال النحاس تتدفق الى الداخل لترفع الاسعار فى مدينتنا ، وكان ازيز البلدوزرات التى تهز الارض يتنافس مع صوت الشلالات وكانت كل باخرة وكل طائرة تحمل معها عمالا وصناعا اوربيين وكان فندق « فان دير فايدن » نادرا ما توجد به حجرة خالية .

وكان كل شىء يعمله الرئيس له سبب ، وهو كحاكم لارض كانت من الناحية الفرضية ارضا معادية كان يصنع منطقة يصبح فيها هو وعلمه حكاما مطلقين . وكافريقى فانه راح يبنى مدينة جديدة فى موقع ما كان فى الماضى ضاحية اوربية غنية ولكن ماكان يرفع بناءه كان شيئا اكبر من ذلك .

وفى المدينة كان المبنى العصرى الوحيد الذى تم تصميمه هو فندق « فان دير فايدن » وكانت بالنسبة لنا المبانى الاضخم فى املاك الحكومة

مذهلة وكانت المبانى الاصغر مثل البيوت والفيلات ذات الدور الواحد كانت كما كنا نعتاد عليها ولكنها مجهزة باجهزة التكييف .

ولم يكن هناك من كان متأكدا حتى بعد ان تم فرش بعض البيوت من الغرض الذى من اجله سوف يتم استخدام هذه المبانى من املاك الحكومة وكانت هناك قصص عن قيام مزرعة نموذجية جديدة وعظيمة ومعهد للزراعة وقاعة للمؤتمرات لتخدم القارة ومنازل خلوية لقضاء الاجازات للمواطنين المحليين ، اما من الرئيس نفسه فانه لم تصدر اية تصريحات وكنا نراقب ونتعجب كلما تقدم العمل فى المبانى ثم بدأنا نفهم ان مايزمع الرئيس بناءه هو شىء هائل فى عينيه حتى انه لم يكن يشاء ان يعلن عنه ، انه يخلق افريقيا جديدة وحديثه كما انه يخلق معجزة سوف تذهل بقية العالم ، وكان يتجاوز افريقيا القائمة افريقيا الصعبة ذات الغابات والقرى ويسعى الى خلق شىء يساوى ماتمت اقامته فى الدول الاخرى .

وكانت الصور لهذا المكان من املاك الدولة وما شابهها فى اجزاء اخرى من البلد بدأت تظهر فى هذه المجلات التى تتحدث عن افريقيا والتى كانت تنشر فى اوربا بدعم من الحكومات مثل حكوماتنا ، وفى هذه الصور كانت الرسالة التى تهم املاك الدولة شيئا بسيطا وهى انه تحت حكم رئيسنا الجديد وقعت المعجزة واصبح الافريقيون رجالا متقدمين يبنون بالخرسانة والزجاج ويجلسون على مقاعد وثيرة بالحرير والمخمل ، وكان هذا يبدو مثل التحقق العجيب لنبوءة الاب « هاوسمانز » عن تراجع افريقيا الافريقية ونجاح التطعيم الاوربى لها .

وكان الرئيس يود أن يرينا افريقيا جديدة ولقد رأيت افريقيا فى شكل لم اره من قبل حيث رأيت الهزائم وانواع الاهانات التى كنت انظر اليها حينئذ كحقيقة من حقائق الحياة .

ولكن ماهو الغرض الذى من اجله اقيمت مبانى املاك الحكومة ؟ لقد كانت المبانى تستهدف اعطاء الاحساس بالكبرياء او انه كان ذلك هو المقصود منها ولترضى حاجة شخصية عند الرئيس ، فهل كان هذا هو السبب لاغير ؟ ولكنها استهلكت الملايين ، ولم تحقق المزرعة ولم يقم الصينيون او

أبناء تايوان بفلاحة الارض الخاصة بالمزرعة الجديدة النموذجية الافريقية ، وظلت الجرارات الستة التى اعطتها لنا بعض الحكومات الاجنبية فى طابور واحد مستقيم فى مطلق العراء وقد اصابها الصدأ وشب العشب الطويل حولها ، وكان حمام السباحة القريب من المبنى الذى قيل عنه انه سيكون قاعة للمؤتمرات وقد اصابته ثغرات تسريب المياه وظل فارغا وكانت مبانى املاك الدولة قد بنيت سريعا وفى الشمس والمطر وأتى العطب سريعا ايضا ، وبعد الفصل الممطر الاول تخلخلت جذوع الاشجار الصغيرة التى كانت قد زرعت بجوار الشارع الرئيسى العريض وماتت وتعفنت .

اما بالنسبة للرئيس فى العاصمة فلقد ظلت مبانى املاك الدولة شيئا حيا واضيفت اليها التماثيل واعمدة النور كما استمرت زيارات ايام الاحاد واستمرت الصور فى الظهور فى المجلات المدعمة بأموال الحكومة تلك التى تخصصت فى افريقيا وأخيرا تم العثور على وسيلة لاستخدام هذه المنشآت .

وتحولت املاك الحكومة الى مدينة جامعية ومركز للبحوث وتحول مبنى صالة المؤتمرات الى معهد فنى يخدم شعب المنطقة وتحولت المبانى الأخرى الى عنابر للنوم ومكاتب للموظفين ، وبدأ الاساتذة والمحاضرون فى الوصول من العاصمة وبعض الدول الاخرى وبدأت أشكال أخرى من الحياة تستقر فى المدينة ولا تعرف عنها إلا القليل ، وكان أن ارسل "فيردناند" الى المعهد الفنى على نفقة احدى المنح الحكومية بعد أن انتهى من دراسته فى الليسيه ، وكان هذا المعهد الذى انشىء فوق موقع الضاحية الاوربية الميتة والتى اوحت لى عندما جئت لأول مرة انها آثار حضارة جاءت وذهبت .

كانت مبانى املاك الحكومة تقع على بعد عدة اميال من المدينة وقامت هناك خدمة للاتوبيس ولكنها لم تكن منتظمة ، لم اعد ارى "فيردناند" كثيرا واصبحت الآن لا أراه تقريبا ولقد فقد "ميتى" صديقا له ولقد خطت تطورات الحياة بالنسبة لـ "فيردناند" خطا فصل بينه وبين "ميتى" وكان ذلك مصدر معاناة لـ "ميتى" .

اصبحت مشاعرى اكثر تعقيدا واختلاطا ذلك اننى رأيت مستقبلا غير منتظم للبلاد ، ولم يكن هناك احد يمكن أن يكون آمنا هنا ولم يكن هناك من يحسد رجال البلد على اى شىء ، ولكننى لم اكن اقاوم الاحساس بمدى حظ "فيردناند" وكيف أن الامور سارت بالنسبة له فى سهولة ويسر ، فها انت قد اخذت صبيا من الغابة وعلمته كيف يقرأ ويكتب ثم هدمت الغابة وبنيت فوقها معهدا فنيا ثم ارسلته الى هناك .

بدا هذا سهلا اذا جئت الى العالم متأخرا ووجدت كل هذه الاشياء جاهزة ، هذه الاشياء التى استغرقت طويلا من البلاد والشعوب الاخرى للوصول اليها مثل الكتابة والطبع والجامعات والكتب والمعرفة ، وكان بقيتنا ينظرون الى الاشياء على مراحل ، وكنت افكر فى عائلتى و"نصر الدين" وانا ، لقد عاقتنا القرون التى استودعت تراثها فى عقولنا وقلوبنا اما بالنسبة لشخص مثل "فيردناند" فلقد بدا من لاشىء ثم حول نفسه بخطوة واحدة الى شخص حر واصبح يستعد للقفز فوقنا .

كانت مبانى املاك الحكومة بعظمتها المتهالكة شيئا مزيفا ولم يكن للرئيس الذى دعا الى اقامتها ولا لهؤلاء الاجانب الذين كسبوا الملايين من الثروات فى بنائها اى احساس بالايمان فى هذا الذى شيدوه ، لكن "فيردناند" كان يأخذ المعهد الفنى بجدية ذلك أن دراسته فيه سوف تقوده إلى الحصول على منصب ادارى وفى النهاية الى منصب يجلب له النقود ، ولهذا كانت مبانى املاك الحكومة بالنسبة له شيئا رائعا كما كان يجب أن تكون .

ولقد كان من البلاهة ان نحس بالغيرة من "فيردناند" الذى كان رغم كل ما حصل عليه يعود الى منزله فى الغابة ، لم احس بالغيرة منه كنت احس فقط انه على وشك ان يتجاوزنى فى المعرفة وأن يدخل مجالات لم ادخلها ابدا ، كما كنت احس بالغيرة بسبب الفكرة التى كانت تدور بنفسه عن اهميته وسحره ، اننا نعيش على نفس الجزء من الارض ، وننظر الى نفس الاشياء ولكن بالنسبة له كان العالم جديدا ويزداد جدة وبالنسبة له كان العالم داكن اللون بلا امكانيات .

بدأت احس بالكراهية للملمس المادى للمكان ، فلقد ظلت شقتى كما كانت دون أدنى تغيير لاننى اعيش ومعى الفكرة اننى فى لحظة ما سوف اترك كل شىء فيها واعتبره مفقود القيمة بالنسبة لى .

كما كنت اكره اشجار الزينة المستوردة اشجار طفولتى التى اصبحت غير طبيعية هنا مع التراب الاحمر للشوارع الذى يتحول الى طين بعد الأمطار ، واصبحت اكره السماء المعلقة والتى تعنى لاشىء غير مزيد من الحرارة والسماء الصافية التى تعنى وجود شمس مؤذية والمطر الذى لايبرد الجو والذى يسبب اللزوجة فى كل شىء وكذلك النهر البنى وزهور الليلك الى تطفو فوق الكروم الخضراء ليل نهار .

ولقد تحرك "فيردناند" بضعة اميال على البعد اما انا الذى اكبره فى السن فلا احس إلا بالغيرة وبأننى مهجور كذلك .

وأخذت افكر : لاشىء يبقى ساكنا ، كل شىء تغير ، فلن ارث منزلا وليس هناك منزل ابنيه سوف يورث ابنائى ، هذا الشكل من اشكال الحياة قد ولى ، لقد مرت العشرينات من عمرى وكل ماكنت اسعى اليه منذ أن تركت منزل العائلة لم يأت الىَّ وليس امامى غير الانتظار ولسوف اظل انتظر بقية حياتى ، وحينما جئت الى هنا كانت الشقة لا تزال ملكا للسيدة البلچيكية ، ولم تكن مسكنى ولكنها كانت المعسكر ، ثم اصبح هذا المعسكر ملكى وهاهو ذا قد تغير الآن .

بعد ذلك صحوت على عزلة حجرة نومى فى عالم غير صديق واحسست بكل مايحسه الطفل من ألم القلب لكونه فى مكان غريب ، ونظرت عبر النافذة المدهونة باللون الابيض لأرى الاشجار فى الخارج وليس ظلالها ولكن الايحاء بأشكالها ، وبدأت احس بالحنين للوطن وكنت احس بهذا الحنين منذ شهور ولكن المنزل لم يكن هو المكان الذى يمكن أن اعود اليه ، إن المنزل هو شىء فى رأسى ولقد فقدته ، وبهذه الاحاسيس فإننى اتساوى مع الافارقة الذين يلبسون الخرق ، والذين يبدو عليهم البؤس فى المدينة التى نقوم بخدمتها .

-٧-

هاأنذا اكتشف الآن دروب الألم والشيخوخة التى يأتى بها ولم اكن مندهشا لأن "ميتى" وانا كان يجب علينا أن نكون قريبين فى هذه اللحظة التى فهمنا نحن فيها أن كلا منا يتعين عليه أن يمشى فى طريقه الخاص ، وما كان قد اعطى وهم القرب فى هذا المساء كان هو مجرد احساسنا بالاسف على الماضى وحزننا أن العالم لايقف ساكنا .

ولم يطرأ اى تغيير على حياتنا معا ، فلقد استمر "ميتى" فى أن يعيش فى حجرته بالشقة ، وكان يداوم ان يأتينى بالقهوة كل صباح ، اما الآن فلقد اصبح من المفهوم أن له حياة كاملة بالخارج ، لقد فقد البريق والمرح اللذين كانا يتميز بهما كخادم يعرف أن هناك من يرعاه ، ومن يقرر له القرارات كما فقد ماكان ملازما لهذا البريق وهو اللامبالاة لما يحدث والقدرة على النسيان والاستعداد لكل يوم جديد ، وبدا انه يحس بالمرارة الداخلية ، كانت المسئولية شيئا جديدا عليه ولهذا اكتشف الاحساس بالعزلة رغما عن اصدقائه وحياته العائلية الجديدة .

اما انا فلقد فقدت بعض الاساليب القديمة واكتشفت الاحساس بالعزلة ايضا والاحساس بالاكتئاب الذى يحوله الدين الى خوف وامل متسام ، ولكننى بقيت انظر الى هذا الاكتئاب نحو العالم كشىء علىَّ وحدى أن اواجهه وبمفردى ، وفى بعض الاوقات كان هذا الاحساس حادا وكان فى بعض الاوقات غير موجود .

وحينما كنت قد تمثلت هذا الحزن بشأن "ميتى" والماضى ، حينئذ جاء شخص من الماضى ، ومشى الى المحل ذات صباح يقوده "ميتى" للداخل صائحا فى هياج "سالم ، سالم" !! .

كان ذلك الشخص هو "اندار" الذى آثار احساسا بالاضطراب عند الساحل والذى واجهنى بعد مباراة فى الاسكواش فى ملعب منزله الكبير بمخاوفى الخاصة عن مستقبلنا وارسلنى من منزله برؤية يحيط بها الاحساس بنزول الكارثة ، وهو الذى اعطانى فكرة الهروب ثم ذهب الى انجلترا من اجل الجامعة ، اما انا فقد هربت الى هنا .

احسست الآن بينما "ميتى" يقوده الى الداخل انه قد امسك بى مرة ثانية وانا جالس على مقعدى فى المحل وكانت البضائع منثورة على الأرضية كما كان الوضع دائما والارفف الخاصة بالمحل مليئة بالملابس الرخيصة والبطاريات والكراريس .

قال لى : "سمعت منذ سنوات وانا فى لندن انك هنا ، وتعجبت لما تفعله هنا" ، وكان تعبيره باردا متوازنا بين الضيق والسخرية ، بدا كما لو كان يقول انه لم يعد يحتاج الى السؤال وانه لم يعد مندهشا بما رأى .

حدث هذا بسرعة ، وحينما آتى "ميتى" وهو يجرى صائحا : "سالم ، سالم" خمن من الذى هنا "احسست على الفور انه لابد ان يكون شخصا نعرفه نحن الاثنان انا و (ميتى) من الايام الخوالى ، وظننت انه ربما يكون (نصر الدين) أو احد افراد اسرتى ، فكرت فى انى لن استطيع ان اواجه الموقف ، ان الحياة هنا لم تعد هى الحياة القديمة وانا لااستطيع أن اقبل المسئولية ولا اريد أن ادير مستشفى .

ولأننى كنت اتوقع حينئذ احد الاشخاص الذى قد يأتى للسيطرة علىَّ بإسم العائلة أو المجتمع او الدين ، بدأت اجهز لملاقاته وجها واتجاها يناسب ذلك فوجئت وانا احس بثبوط العزيمة والخوف بـ "اندار" الذى يقوده "ميتى" وهو فى حالة من الفرح اخرجته عن طوره وكان يحس بالبهجة ان يقدم شيئا من الايام الاولى ، ايام كان على علاقة بالعائلات الكبيرة فى الساحل . وبدلا من أن اظهر حقيقة نفسى كرجل تملؤه الشكاوى وكرجل يود لو يصب مشاعر الكآبة فى نصيحة خشنة الى وافد جديد ربما يكون نصف مسحوق بالفعل : "ليس هناك مكان لك هنا ، وليس

هناك مكان للاجئين بغير بيت ، اذهب لتجد مكانا أخر غير هنا" ، وبدلا من ان اكون هذا الرجل كان عليَّ أن اكون النقيض ، ان ابدو كأنى الرجل الذى وافته الظروف واصبح فى حالة طيبة جدا ، رجل يخفى محله القذر اعمالا اكبر تدر عليه الملايين ، ويتعين عليَّ أن ابدو بصورة الرجل الذى خطط لكل شىء والذى آتى الى المدينة عن منحنى النهر لانه توقع وتنبأ بالمستقبل الغنى لها .

ولم اكن استطيع أن اكون غير ذلك مع "اندار" لقد كان دائما يجعلنى احس بأننى متخلف ، ورغم ان عائلته كانت حديثة فى الساحل فلقد تجاوزتنا جميعا وحتى بداياتهم الوضيعة القدر ـ ذلك ان جدهم كان عاملا بالسكك الحديدية ثم مرابيا بالسوق ـ قد اصبحت وفقا لما يتحدثه الناس على درجة من القداسة وجزءا من قصتهم العجيبة ، وكانوا يستثمرون اموالهم بأسلوب مغامر ويصرفون المال جيدا ، وكانت حياتهم ارقى بكثير من حياتنا ، كما كانت عندهم الرغبة العارمة فى الالعاب والتدريبات البدنية ، وكان تقديرى لهم انهم كانوا قوما عصريين على نموذج بعيد عنا بعض البعد ، ويستطيع المرء أن يتعود على هذه الاختلافات حتى انها تصبح طبيعية .

وحينما لعبنا الاسكواش بعد الظهر ، اخبرنى "اندار" انه سيذهب الى انجلترا والى الجامعة لم احس بالامتعاض أو الغيرة لما كان يفعله . وكان ذهابه الى الجامعة جزءا من نموذجه ، وكانت تعاستى هى تعاسة رجل احس بأنه قد تُرك فى الخلف وهو غير مستعد لما قد يأتى ، وكان حنقى عليه بسبب فقدان الامن الذى جعلنى احس به ، قال لى : "نحن نعيش كمن تجرفه المياه هنا" بدت الكلمات صادقة وكنت اعلم انها كذلك لكننى كرهته لانه نطق بها ، وكلامه كمن تنبأ بكل شىء واستعاد علاقاته .

مرت ثمانى سنوات منذ هذا اليوم ، وكان ما قال انه سوف يحدث قد حدث بالفعل ، فلقد خسرت اسرته كثيرا حيث فقدوا منزلهم ، وتناثروا جميعا مثل ماحدث مع اسرتى وكانوا قد اضافوا اسم المدينة على الساحل

الى اسم اسرتهم ، ورغما عن ذلك فانه عندما دخل الى المحل بدا ان المسافة بينى وبينه مازالت قائمة .

وكانت لندن تنعكس على ملابسه وبنطلونه وقميصه القطنى ذى الخطوط ، كما بدا واضحا على تسريحة شعره وحذائه ، وكنت انا فى المحل الخاص بى على الطريق الاحمر القذر وميدان السوق بالخارج ولقد انتظرت كثيرا وتحملت كثيرا ولقد تغيرت لكننى بالنسبة له لم اتغير على الاطلاق .

ظللت جالسا وحينما هممت بالوقوف سرت بجسمى رعدة من الخوف ، طاف بذهنى انه عاد للظهور لالشيء إلا لأنه يحمل لى اخبارا سيئة ، قلت له : "ما الذى أتى بك الى نهاية العالم ؟" فقال لى : "لن اقول هذا فهاأنت فى وسطها" .

وقلت له : "فى وسطها" ؟ .

ورد علىَّ : "حيث تحدث اشياء كبيرة وإلا لما كنت انا هنا" .

وكان هذا مدعاة للراحة فعلى الاقل لم يكن يعطينى اوامر المشى ثانية دون أن يخبرنى الى اين اذهب .

وكان "ميتى" طيلة هذا الوقت واقفا مبتسما يهز رأسه من جانب الى أخر يقول : "اندار . اندار" ، وكان "ميتى" هو الذى تذكر واجبنا كمضيفين حيث قال : "هل لك يا(اندار) ببعض القهوة ؟ كما لو كنا فى محل العائلة فى الساحل حيث يقفز الى الحارة التى يوجد بها كشك "نور" ليعود ومعه الاكواب النحاسية الصغيرة للقهوة والحلويات على صينية نحاسية ثقيلة" ، ولم تكن هنا قهوة من هذا النوع ، ولكن "الناسكافيه" التى تصنع فى ساحل العاج والتى تُقدم فى فنجان كبير من الصينى ، قال "اندار" سوف يكون هذا شيئا لطيفا يا"على" .

قلت له : "ان اسمه هنا هو "ميتى" وهى تعنى "مخلط الوالدين" .

قال "اندار" : هل تدعهم يقولون ذلك عنك يا"على" ؟

قال "ميتى" : انهم أفارقة وانت تعلم ماذا يعطون يا"اندار" .

وقلت انا : لاتصدقه انه يستحسن ذلك ، انها تجعله مرغوبا من الفتيات ، ان لعلى عائلة كبيرة الآن ، لقد ضاع .

وذهب "ميتى" الى حجرة المخزن ليغلى الماء "للنيسكافيه" ثم قال لى : "سالم ، سالم" ، لاتتخل عنى كثيرا .

وقال "اندار" انه فقد منذ زمن طويل مضى ، هل جاءك شىء من "نصر الدين" لقد رأيته فى اوغندا منذ عدة اسابيع .

وقلت "وكيف يبدو الحال هناك" ؟ .

وقال : الحال يستقر هناك اما الى أى حين يستمر ذلك فهذا موضوع آخر ، ولم تتحدث او تدافع صحيفة واحدة عن الملك ، هل تعرف هذا ؟ .

"ولكنك تقوم بسفريات عديدة" .

انه عملى وكيف حالك انت هنا ؟ .

الامور تسير سيرا حسنا منذ التمرد حيث تعيش المدينة حالة الرواج ، والعقارات تجارة خيالية ، الأرض تباع الآن فى بعض الاجزاء بسعر مائتى فرنك للقدم المربع .

ولم يبد على "اندار" انه اندهش او تأثر ولم يكن المحل مكانا له اى تأثير ، ولأننى كنت اريد أن اجعله يعرف ان فروضه بشأن وضعى هى فروض خاطئة ، وكنت فى الواقع اتصرف على اننى الشخصية التى كان يرانى بها وكنت اتكلم بنفس الطريقة التى سمعت التجار فى المدينة يتكلمون بها حتى اننى كنت اقول نفس الاشياء .

قلت وانا احاول أن اتحدث بلغة أخرى : "انه عمل تخصصى ، إن سوقا حساسة تكون اكثر سهولة فى بعض الطرق ، وهنا فإنه من الصعب عليك

ان تتبع مايروق لك ، ومالا يروق لك ، انه يتعين عليك أن تعرف تماما ماهى الحاجة المطلوبة ، وهناك بالطبع الوكالات وهى مستودع المال الحقيقى هنا" .

وقال "اندار" نعم .. نعم .. الوكالات ، انها مثل الايام الماضية بالنسبة لك ياسالم .

وقلت : لا اعرف كم من الوقت سوف تستمر هذه الحال بالرغم من ذلك ؟ .

قال : سوف تستمر مادام قد اراد رئيسكم لها ان تستمر ولن يستطيع اى شخص ان يقدر لها زمن الاستمرار ، انه رجل غريب ، يبدو أنه لايعمل شيئا على الأطلاق ثم فجأة يبدو انه يتصرف كجراح يقطع بعيدا بعض الاجزاء التى لايريدها .

قلت له : وهكذا كانت الطريقة التى سوى بها مسألة الجيش القديم ، لقد كانت رهيبة يا"اندار" لقد ارسل رسالة الى الكولونيل "ينى" وطلب منه ان ينتظر فى ثكنات الجيش ليرحب بقائد المرتزقة ، وهكذا انتظر على العتبات وهو فى زيه الرسمى الكامل وحينما وصلوا بدأ يمشى باتجاه البوابة ، حينئذ اطلقوا عليه الرصاص وهو يمشى ومن معه فى هذا الوقت .

ثم قال لى : لدى شىء لك ، ذهبت لأرى والدك ووالدتك قبل أن آتى الى هنا .

هل ذهبت الى المنزل ؟ تخوفت ان اسمع منه عن هذه الزيارة .

قال : "ذهبت الى هناك عدة مرات ، منذ وقوع الاحداث الكبرى ، ان الامور ليست سيئة جدا ، هل تتذكر منزلنا ، لقد دهنوه بألوان الحزب ، واصبح الآن نوعا من ابنية الحزب ، اعطتنى والدتك زجاجة من مخلل جوز الهند لكنها ليست لك وحدك ، انها لك ولـ"على" لقد شددت علىَّ فى ذلك ، وقال لـ "ميتى" الذى جاء بدورق الماء الساخن والاكواب وعليه :

"النيسكافيه" واللبن ، لقد بعثت لك الوالدة ببعض مخلل جوز الهند يا"على" .

وقال "ميتى" مخلل جوز الهند ؟ ان الطعام هنا رهيب يا"اندار" .

وجلسنا نحن الثلاثة حول المكتب نقلب الماء والقهوة واللبن .

قال "اندار" : لا اريد أن اعود هناك ، ليست هذه المرة الاولى التى لااظن ان قلبى سوف يتحملها ، ولكن الطائرة شىء رائع ، ان الطائرة اسرع من القلب فأنت تصل سريعا وترحل سريعا لهذا فأنت لاتحزن كثيرا كما أن هناك شيئا آخر عن الطائرة ، تستطيع أن تعود لنفس المكان عدة مرات ، ويحدث شىء غريب اذا عبرت عدة مرات ، حينئذ تتوقف عن الحزن على الماضى وترى ان الماضى شىء فى عقلك وحدك ولايوجد فى الحياة الحقيقية ، انك تدوس على الماضى وتسحقه ، وفى البداية يبدو الموضوع مثل أن تدوس على حديقة ، وفى النهاية تمشى على الأرض لااكثر ، وهذه هى الطريقة التى يتعين علينا ان نتعلمها لنحيا الماضى هنا فى القلب ليس هناك فى الطريق المترب .

احسست انه قال هذه الكلمات من قبل او انه تخيلها فى عقله واعتقد انه يجاهد كى يحافظ على طراز حديثه ، وربما كان قد تعذب اكثر من اى منا .

لقد جلسنا نحن الثلاثة نشرب القهوة واحسست بأنها لحظة جميلة .

ومع ذلك فلقد كانت المحادثة حتى الآن واحدة الجانب ، انه يعرف كل شىء عنى وانا لا اعرف شيئا عن حياته فى المرحلة الاخيرة ، لاحظت حينما جئت الى المدينة اول مرة ان المحادثة بالنسبة لمعظم الاشخاص تعنى الرد على الاسئلة التى تدور عنهم وقليلا مايسألونك عن نفسك وهو مايكشف انهم كانوا منعزلين لفترة طويلة ، ولم أشأ أن يحس "اندار" بهذا معى وبدأت فى السؤال .

قال انه كان فى المدينة منذ عدة ايام وانه سوف يبقى لمدة شهور قليلة وحينما سألته عما اذا كان قد جاء بالباخرة اجاب : "هل جُننت ؟" تريدنى

ان ابقى حبيسا مع الافارقة من صوب النهر لمدة سبعة ايام ، لقد جئت طائرا" .

وقال "ميتى" اننى لن اذهب الى اى مكان بالباخرة ، لقد اخبرونى بأنها فظيعة وانها لأكثر سوءا على الصندل حيث دورات المياه مع الطبخ والاكل فى كل مكان ، انه شىء فظيع كما قالوا لى .

سألت "اندار" عن المكان الذى ينزل فيه وخطر لى ان اقوم بإيماءة من الكرم فهل يقيم فى فندق "فان دير فايدن" ؟
كان هذا هو السؤال الذى ينتظر أن يسأل قال فى صوت هادىء بعيدا عن الادعاء : "اننى انزل فى املاك الدولة حيث يوجد لى منزل هناك ذلك اننى ضيف الحكومة" .

وتصرف "ميتى" بكرم اكثر منى واخذ يخبط المكتب صائحا : "اندار" .

وقلت له : هل دعاك الرجل الكبير ؟ .

وقال وهو يقلل من شأن الموضوع : "ليس ذلك تماما ، ان لى جهازى الخاص ، اننى ملحق بالتدريس فى المعهد الفنى لمدة نصف السنة ، هل تعرفه" .

وقلت : اننى اعرف شخصا ، انه مجرد تلميذ ، ثم قلت له : "هذا الطالب انه احد التجار وهى احدى عميلاتى" .

وقال لى : هذا احسن يجب عليك أن تأتى وتلتقى ببعض الاشخاص هناك ، وربما لن تحب مايجرى ولكن يجب الا تدعى انه لايحدث ويجب الا تكرر مثل هذا الخطأ .

وكنت اريد أن اقول له : "إننى اعيش هنا ، ولقد عشت كثيرا وعمقا طيلة السنوات الست الماضية" ، لكننى لم اقل هذا وفضلت ان اتيح له فرصة غرور نفسه ، لقد كانت لديه فكرته الخاصة عن نوع الرجل الذى

اكونه ولقد امسك بى حقيقة وانا فى محلى فى عملى المتوارث عن الاجداد ، وكانت لديه فكرته عما كان هو نفسه وماذا فعل ، وكانت المسافة بينه وبيننا من صنع يديه .

لم احس بالضيق من غروره ووجدت اننى اتذوقه على غرار الايام التى كنت فيها على الساحل كطفل ، لقد تذوقت من قبل قصص "نصر الدين" عن حظه ومباهج الحياة التى كان يحياها هنا فى المدينة الاستعمارية ، ولم اخبط المكتب مثلما فعل "ميتى" ولكننى كنت مبهورا بما رأيته من "اندار" ولقد كان مصدر راحة لى ان ازيح جانبا مشاعر الاحساس بالضيق التى جعلنى احسها وأن ابدى اعجابى المباشر لما استطاع هو أن يحققه لنفسه ولملابس لندن التى يلبسها وروح التمايز التى تجعله يبدو عليها بالاضافة الى سفرياته ومنزله فى املاك الحكومة ووظيفته فى المعهد الفنى .

وكان اظهار اعجابى به وظهورى بمظهر الذى لايتنافس معه مدعاة لراحته ، وكانت الثرثرة اثناء تناول القهوة بيننا فى الوقت الذى كان فيه "ميتى" يظهر بأسلوب الخدم ومن وقت لأخر يظهر اعجابه الذى كان سيده يظهره كذلك قد ادت الى ان يتخلى "اندار" عن عصبيته ، واصبح رقيقا ومهذبا ويبدو مهتما بالحديث ، وعند نهاية الصباح احسست آخيرا اننى خلقت صديقا من نوعى كنت احتاج اليه بشدة بالغة .

وكنت باستثناء دورى معه كمضيف ومرشد فلقد كان هو الذى يقودنى فى الحديث والافكار ، ولم يكن هذا شيئا سخيفا برمته ، ولم يكن لدىَّ الكثير الذى اريه له فكل الاماكن الرئيسية فى المدينة التى اعرفها كانت لاتستغرق اكثر من عدة ساعات لأريها له ، كما اكتشفت ذلك وانا اركب معه عربتى فى ظهر هذا اليوم .

وكان هناك النهر وامتداد المنتزه المحطم بالقرب من ارصفة الشحن ، وكانت هناك ارصفة الشحن نفسها وعنابر الاصلاح المفتوحة وبواباتها الحديدية وفناؤها المليء بالقطع الصدئة من الآلات كما كانت هناك اسفل النهر الكاتدرائية المحطمة والتى تبدو شيئا جميلا هائلا كأثر متحفى كما لو

كانت فى اوربا ، ولكنك لاتستطيع أن تنظر اليها إلا عبر الطريق فحسب ومن الخارج وذلك بسبب كثافة الاشجار والخضرة وخوفا من الثعابين التى كان الموقع يشتهر بها .

وبينما أسوق العربة ومعى "اندار" الى مبانى املاك الحكومة بدت المنطقة المتداخلة التى كانت فارغة واصبحت الآن مليئة بالاكواخ الخاصة بالقادمين الجدد من القرى ، كنت اراها للمرة الاولى ، سألنى "اندار" : كم عدد السنوات التى تقول انك قضيتها هنا ؟" .

"ست سنوات" .

وهل اريتنى كل شىء ؟ .

ولم يكن هناك الكثير الذى لم اره لـ "اندار" مثل بعض المداخل القليلة لبعض المحلات والمنازل والنادى الهللينى والبارات ، احسست وانا انظر الى المكان بعينيه بالذهول لمدى ضآلة الامكنة التى اعيش فى وسطها ، وبالرغم من كل شىء كنت احسه عن المدينة فلقد رأيتها الآن وانا بصحبة "اندار" مجرد تراكم متضخم من مستوطنات الاكواخ ، واحسست بأننى اقاوم المكان واننى اعيش فيه كالاعمى تماما مثل الناس الذين اعرفهم والذين كنت احس من اعماق قلبى بأنى مختلف عنهم .

لم احس بالراحة حينما اشار "اندار" فى حديثه الىَّ اننى اعيش مثل مجتمعى السابق فى الايام الماضية غير مهتم بما يدور حولى ، وحتى هذا الحد فإنه لم يكن مخطئا تماما ، انه يتحدث عن املاك الحكومة التى كانت بالنسبة لنا فى المدينة مجرد مصدر للتعاقدات ، ولم نعرف الكثير عن الحياة هناك ، ولم نود أن نعرف أو نكتشف ، ولقد كنا ننظر الى املاك الدولة بوصفها جزءا من الخراب والغباء اللذين تتسم بهما الدولة ولكن الاهم من ذلك اننا كنا ننظر اليها على أنها جزء من سياسة الرئيس ، ولم نكن نريد أن نتدخل فى هذا الموضوع .

وكنا على علم بأن هناك اجانب جدا على حدود المدينة وانهم لايبدون

كالمهندسين أو الباعة او الصناع الذين نعرفهم ولهذا كنا نحس ببعض الضيق ازائهم ، وكان رجال املاك الحكومة مثل السياح ألا يعرفون النقود ولكن حاجاتهم ومطالبهم على حساب املاك الحكومة ، ولم يبد الاهتمام بنا وكنا نحس انهم قوم يتمتعون بالحماية وانهم منفصلون عن الحياة الحقيقية للمدينة ، لهذا كنا نرى انهم اقل واقعية من انفسنا .

ودون ان ندرى بذلك ونحن نحس طيلة الوقت بأننا نجعل رؤوسنا محنية للاسفل واننا نتسم بالحكمة ومحاولة صيانة اعمالنا فلقد اصبحنا مثل الافارقة الذين يحكمهم الرئيس وكنا مجموعة من الناس لاتحس إلا بوطأة سلطة الرئيس ، وكانت املاك الحكومة قد صنعها الرئيس لاسباب خاصة به وانه هو الذى أتى بالاجانب كى يعيشوا فيها هناك ، وبالنسبة لنا كان ذلك كافيا ولم يكن لنا ان نسأل او أن ننظر عن قرب اكثر من اللازم .

وفى بعض الاحيان بعد أن أتى "فيردناند" الى المدينة ليرى والدته اثناء احدى جولات التسويق التى تقوم بما قمت بتوصيله بعربتى الى مكانه فى بيوت الطلبة فى مبانى املاك الحكومة ، وكان مارأيته هو كل ما كنت اعرفه عن المكان حتى أتى "اندار" واصبح دليلى .

كان الامر كما قال "اندار" ان له نزلا فى املاك الحكومة وانه كان ضيفا عليها ، وفى العالم الغريب لأملاك الدولة ظهر "اندار" وهو ضيف محترم فيها ، وكان من الاسباب التى جعلته يحظى بهذا الاحترام طبيعة الجهاز الذى كان ينتمى اليه ، ولم يستطع "اندار" ان يشرح لى ماهو الجهاز الذى ارسله فى جولاته الافريقية او انه ظهر اننى لم افهم لاننى بالغ السذاجة ، ولكن بعض الناس فى املاك الحكومة كانوا يبدون وكأنهم ينتسبون الى اجهزة كانت على درجة من الغموض وكانوا ينظرون الى "اندار" ليس على انه رجل من مجتمعنا او بوصفه لاجئا من الساحل ولكن كواحد منهم ، وكان ذلك مدعاة للاحساس بالغرابة من جانبى .

وكان هناك الاجانب من ذوى الطراز الجديد الذين نراهم فى المدينة منذ فترة من الوقت ، رأيناهم وهم يلبسون الملابس الافريقية وكنا نلاحظ مرحهم على عكس حذرنا الذى كنا نحس به بالاضافة الى احساسهم

بالسعادة من كل شيء يجدوه ، وكنا ننظر اليهم بوصفهم طفيليين وانصاف خطرين يخدمون قضية خفية تابعة للرئيس مما جعلنا نعتبرهم اناسا يجب الحذر منهم .

اما الآن بعد ان اصبحت معهم فى املاك الدولة التى كانت هى مهجعهم وبعد ان اقتربت بسهولة من حياتهم وعالمهم الخاص بالمنازل الخلوية واجهزة التكييف وراحة الاجازات وبعد ماسمعت منهم اثناء حديثهم المثقف اسماء المدن الشهيرة حينئذ انتقلت الى الجانب الآخر من رؤيتى وبدأت انظر كيف تبدو حياتنا بالنسبة لهم مغلقة ورثة وأسنة داخل المدينة ، وبدأت احس ببعض معانى الاثارة الاجتماعية فى الحياة داخل املاك الحكومة والناس الذين يرتبطون فى شكل جديد من الانفتاح العقلى وقلة الاحساس بالاهتمام بالخطر والاعداء والاستعداد للابتهاج والتسلية والنظر الى القيمة الانسانية فى الانسان الآخر .

وفى املاك الحكومة كانت لهم طريقتهم الخاصة فى الحديث عن الناس والاحداث حيث كانوا على اتصال دائم مع العالم ، ولكى تكون معهم يجب أن يكون لديك احساس بالمغامرة .

ونظرت فى حياتى الخاصة وحياة "ميتى" وحياة "شوبا وماهيشن" وعزلتهم الحارة وحياة الايطاليين واليونانيين بخاصة وكيف انها حياة متقوقعة ومتوترة بالهموم العائلية والعصبية فى التعامل مع افريقيا والافريقيين ، وكان معنى ان تسافر هذه الاميال القليلة من المدينة الى مبانى املاك الدولة هو دائما ان تقوم بتعديلات وان تتخذ اتجاهات جديدة وتبدو وكأنك كنت ترى بلدا جديدا كل مرة ، وكنت احس بالخجل من نفسى وانا احكم بأحكامى الجديدة على اصدقائى "ماهيشن وشوبا" اللذين عملا الكثير لى طيلة هذه السنوات واللذين كنت احس معهما بالامان ، لكننى لم استطع أن اقاوم هذه الافكار وكنت اميل الى الجانب الاخر وهو الحياة فى املاك الدولة كما رأيتها فى صحبة "اندار" .

وكنت واعيا بحقيقة اننى انتسب الى العالم الاخر وانا داخل املاك

الدولة ، وكنت اجد القليل لاقوله حينما اقابل الناس فى صحبة "اندار" حتى اننى رحت افكر ان اتركه واتخلى عنه ، لكنه لم يخطر بباله شىء من هذا القبيل بالنسبة لى ، وكان "اندار" يقدمنى كصديق لعائلته عند الساحل وعضو فى مجتمعه ، ولم يكن يريد منى ان اشاهد نجاحه مع سكان املاك الدولة من معارفه واصدقائه ، ولكنه كان يريد منى ان اشترك فيه كذلك ، وكان ذلك بمثابة مكافأة لى عن اعجابى به وكنت ارى فيه اناقة ولطفا لم اره فيه قط عند الساحل ، وكان الجو المصطنع فى املاك الدولة قد اعطاه خلفية كاملة لاظهار موهبة سلوكه ورقته .

واخذنى "اندار" ذات مساء الى واحدة من ندواته فى حجرة محاضرات فى المبنى الضخم للمعهد الفنى ، ولم تكن الندوة جزءا من اى مادة للدراسة ، ولكنها كانت اضافة للمنهج وقد وصفت على باب الحجرة بأنها تمرين فى اللغة الانجليزية ، ولكن كان هناك المزيد الذى كان متوقعا من "اندار" وكان هناك "فيردناند" مع مجموعة من زملائه .

ولم تكن هناك على الحائط المجرد فى حجرة المحاضرة التى كان لها لون البسكويت اى شىء غير صورة للرئيس ولكن ليس فى الزى العسكرى وانما فى كاب للزعماء مصنوع من جلد الفهد ، وچاكيت قصير الاكمام ، وبدأ "اندار" الذى يجلس اسفل الصورة فى الحديث بسهولة ويسر عن الاجزاء الاخرى من افريقيا التى زارها وكان الشبان الصغار مبهورين بالاستماع اليه وكانت براءتهم وتطلعهم شيئا مدهشا ، وبالرغم من الحروب والانقلابات التى يسمعون عنها فمازالت افريقيا بالنسبة لهم القارة الجديدة وكانوا يتصرفون وكأن "اندار" واحد منهم ، وتحول التمرين فى اللغة الى مناقشة عن افريقيا ، وكنت احس ان موضوعات المعهد الفنى وموضوعات المحاضرة تقفز للامام وللسطح فى هذه المحاضرة ، وكانت بعض الاسئلة كالمتفجرات فى شدتها ولكن "اندار" كان ثابتا دائما ولم يصب بالدهشة ، وكان مثل الفيلسوف يحاول أن يجعل الشبان الصغار يختارون بعناية كلماتهم التى يستعملونها .

وتحدثوا لبرهة طويلة عن الانقلاب فى اوغندا وعن الاختلافات القبلية

والدينية هناك ، ثم بدأوا فى الحديث عن الدين بشكل عام فى افريقيا .

وكانت هناك حركة ما فى المجموعة المحيطة بـ "فيردناند" ووقف "فيردناند" الذى لم يكن واعيا بوجودى ليسأل : "هل يسمح الزائر الكريم بأن يعلن لنا عما اذا كان يحس بأن الافريقيين تأثرت شخصيتهم الاصلية بالديانة المسيحية" ؟ .

وفعل "اندار" مافعله سابقا حينما اعاد صيغة السؤال وقال : "انى افترض انك تسأل حقيقة عما اذا كانت افريقيا يمكن أن يخدمها دين غير افريقى فهل الاسلام دين افريقى ؟ فهل تحس بأن الشخصية الافريقية قد تأثرت بهذا ؟ .

ولم يرد "فيردناند" وكان ذلك شأنه شأن الايام القديمة حينما كان لايفكر ابعد من درجة معينة .

وقال "اندار" حسنا اننى استطيع أن افترض انك بوسعك ان تقول ان الاسلام قد اصبح دينا افريقيا لانه كان فى داخل افريقيا منذ زمن بعيد كما انك تستطيع أن تقول نفس الشىء عن المسيحيين الاقباط .

وقال "فيردناند" : إن الزائر الكريم يعرف كل المعرفة نوع المسيحية الذى اعنيه وهو يخلط الموضوعات ، وهو يعرف الوضع السيىء للديانة الافريقية ويعرف جيدا أن هذا هو سؤال مباشر اليه عن مدى ارتباط الديانة الافريقية مع غيرها والزائر هو جنتلمان متعاطف مع افريقيا الذى زار اقطارها وباستطاعته ان ينصحنا وهذا هو سبب السؤال ودوت اصوات الاغطية الخشبية للمقاعد تعبيرا عن الموافقة على كلام "فيردناند" .

وقال "اندار" لكى اجيب على هذا السؤال فإنه يتعين عليك ان تسمح لى بأن اسألك سؤالا : انكم طلبة ولستم قرويين ولا تستطيعون أن تدعوا انكم كذلك ولسوف تقومون قريبا بخدمة رئيسكم وحكومته فى صور عديدة ولسوف تكونون رجالا من العالم العصرى الحديث فهل انتم تحتاجون الى ديانة افريقية ؟ ام انكم تحسون بالمشاعر العاطفية نحوها ؟ وهل انتم فى ضيق من فقدانها ؟ أم انكم تريدون التمسك بها لمجرد انها تخصكم ؟ .

وخبط "فيردناند" مقعده وقد تحجرت عيناه وقال : انك تسأل سؤالا معقدا ؟ وكان معنى كلمة معقد بالنسبة للتلاميذ هو عدم الموافقة .

وقال "اندار" : انك انت الذى اثرت السؤال وقد نسيت اننى لم اثر السؤال وانما كنت اطلب بعض المعلومات .

وبهذا الرد من جانب "اندار" تم استعادة النظام وتوقف خبط المقاعد وتحول "فيردناند" الى صديق للمحاضر وبقى كذلك حتى نهاية الندوة حينما بدأ تقديم القهوة والبكسويت والحلويات وكان ذلك جزءا من النظام الذى امر به الرئيس لأملاك الدولة .

وقلت لـ "فيردناند" : لقد ضايقت صديقى بكثرة الاسئلة .

وقال : إننى ما كنت افعل ذلك لو عرفت انه صديقك .

وقال "اندار" : ماهى مشاعرك عن الديانة الافريقية ؟ .

وقال : "فيردناند" لاعرف ولهذا سألت انه ليس سؤالا سهلا بالنسبة لى .

وبعد ذلك حينما غادرت انا و"اندار" مبنى المعهد الفنى لنمشى حتى منزله قال لى "اندار" لقد كان ذلك الشاب مدهشا ، اليس هو ابن عميلتك التاجرة ، ان هذا يوضح لماذا كانت له هذه الخلفية الغنية .

- ٨ -

قال "اندار" : إننا سوف نذهب الى حفل بعد العشاء وهو حفل تقدمه "ايفيت" هل تعرفها ؟ إن زوجها "رايموند" لايظهر كثيرا فى الصورة لكنه يدير العرض كله هنا ، ان الرئيس او "الرجل الكبير" كما تسميه قد بعث به الى هنا ليشرف على كل شىء لهذا فهو الرجل الابيض للرئيس ، وفى كل الاماكن ، فإن هناك واحدا على شاكلته ، ان "رايموند" مؤرخ ويقولون ان الرئيس يقرأ كل ما يكتبه كما تقول القصة أن "رايموند" يعرف عن البلد اكثر من اى شخص أخر فى العالم .

ولم اكن انا قد سمعت عن "رايموند" اما الرئيس فلقد رأيته فقط فى الصورة اولا فى الزى العسكرى ، ثم فى الچاكيت القصير الاكمام ، وربطة العنق ثم غطاء الرأس المصنوع من جلد الفهد والخاص بالزعيم والعصا المنحوتة رمز الزعامة لكن لم يخطر على بالى أن يكون الرئيس قارئا ، وماقاله لى "اندار" جعل الرئيس يصبح اكثر قربا فى نفس الوقت الذى كشف ذلك لى عن المدى الذى نبدو انا وامثالى فيه بعيدين عن مقعد السلطة ، وحينما نظرت الى نفسى من هذه المسافة رأيت كيف نبدو صغارا وبلا حماية ولم يكن يبدو حقيقيا أن اكون وانا فى ملابسى هذه مستعدا للتنزه حتى مبانى املاك الحكومة بعد العشاء كى اقابل بعض الناس الذين هم على صلة مباشرة "بالرجل الكبير" .

ولقد توقعت مما قاله لى "اندار" ان "رايموند" و"ايفيت" ربما كانا فى وسط العمر ولكن السيدة التى جاءت لتستقبلنا بعد أن قادنا الصبى ذو الچاكيت الابيض كانت شابة فى نهاية العشرينات مثلى فى العمر وكانت هذه هى المفاجأة الاولى وكانت المفاجأة الثانية انها كانت حافية القدمين

اللتين كانتا بيضاوى اللون وجميلتين ودقيقتى الشكل ، وكان أن نظرت الى قدميها قبل أن اتأمل وجهها وبلوزتها المصنوعة من الحرير الاسود ومطرزة حول فتحة العنق الواسعة والتى كانت من قماش ثمين لايوجد فى مدينتنا مثله .

وقال "اندار" : هذه السيدة الجميلة هى مضيفتنا واسمها "ايفيت" وانحنى "اندار" عليها وبدا كما لو كان يحتضنها ، وكان ذلك نوعا من البانتوميم ، واحنت هى ظهرها فى شىء من الدلال لتستقبل احتضانه لها ولكن كل ما كان هو أن خده لمس خدها ولم يلمس ابدا ثديها كما ارتاحت اطراف اصابعه فوق ظهرها لتلمس البلوزة الحريرية .

وكان المكان هو منزل من منازل املاك الدولة مثل منزل "اندار" لكن جميع الاثاثات قد نقلت من حجرة الصالون واستبدلت بها المساند والفرش والسجاجيد الافريقية وكان هناك اثنان او ثلاث من لمبات القراءة موضوعة على الأرضية لهذا كانت بعض جوانب الغرفة مظلمة .

وتذكرت ماقاله "اندار" لى واحسست بأنها تتحدث من موقع التمايز وهو التمايز الذى يصفه قربها من الرئيس .

وكان هناك عدد من الناس قد جاءوا بالفعل وتبع "اندار" "ايفيت" داخل الحجرة وتبعت انا "أندار" .

وقال "اندار" كيف حال "رايموند" ؟ .

وقالت "ايفيت" : انه يعمل وسوف يأتى بعد ذلك .

وجلس ثلاثتنا بالقرب من خزانة للكتب واستند "اندار" الى احدى الوسادات الطويلة فى احساس بالراحة ولكن تركيزى انا كان على الموسيقى ، وكنت كما هى عادتى حينما اكون مع "اندار" فى املاك الحكومة اكتفى بالمشاهدة والاستماع وكان هذا شيئا جديدا بالنسبة لى فلم اكن قد ذهبت الى حفل فى املاك الحكومة وكان الجو كله فى الحجرة شيئا لم اعرفه من قبل .

وكان هناك اثنان او ثلاثة ازواج من الناس يرقصون ، وكنت استطيع ان ارى بعض سيقان السيدات وخصوصا احدى البنات فى فستان اخضر كانت تجلس على احد كراسى المائدة التى كان عددها اثنى عشر ، واخذت اتأمل ركبتيها وساقيها وحذائها ، ورغم ان ساقيها لم تكنا جميلتين جدا إلا انها لفتت نظرى رغم ذلك .

وكانت كل حياتى اليافعة بعد البلوغ تضيع بحثا عن المتعة فى بارات المدينة حيث كنت اعرف من النساء اللاتى ادفع لهم النقود ، اما الجانب الآخر من حياة العاطفة والاحضان التى تؤخذ وتعطى فلم اكن اعرف عنها شيئا حتى اننى اصبحت انظر اليها على انها شىء غريب ليس لى فيه نصيب ، ولهذا اصبحت تجاربى الجنسية كلها فى بيوت الدعارة ، ولم يكن فيها من المتعة الحقيقية شىء ، واحسست بهذه التجارب تأخذنى بعيدا عن الحياة الصادقة للحواس وكأنها جعلتنى غير قادر على مثل هذه الحياة .

ولم يحدث من قبل أن جلست فى حجرة يرقص فيها النساء والرجال من اجل المتعة المتبادلة وبدافع المتعة فى صحبة الآخر ، رحت انظر الى الفتاة ذات الساقين الممتلئتين والفستان الاخضر حتى قامت للرقص فأخذت اتأمل حركاتها وساقيها وحذاءها وتحركت فى نفسى مشاعر اللذة حتى اننى احسست بأن جزءا من نفسى كان قد غاب ثم استعدته الآن ، لم انظر ابدا الى وجه الفتاة وكان من السهل بسبب الظلمة فى المكان ان اجعل ذلك يستمر مجهولا بالنسبة لى وكنت اريد أن اغوص فى هذه اللذة ، ولم اكن اريد أن يقطع هذه الحالة التى انا فيها اى شىء .

وكانت المتعة النفسية التى احسها تبدو اكثر جمالا ، ثم سكنت الموسيقى التى تعزف وتوقف الرقص ، وكانت الحجرة تسبح فى ضوء لالاء ، وما حدث بعد ذلك ذهب مباشرة الى قلبى حيث بدأت الجيتارات الحزينة والكلمات واغنية تغنيها الفتاة الامريكية "باربارا الان" كان ذلك الصوت لايحتاج الى موسيقى كما لم يحتج حتى للكلمات ، فلقد خلق خطا للنغم الحلو ، وعالما كاملا من الاحاسيس ، كان الصوت يجعلنا نصرخ

ونلقى بأوراق النقود والذهب عند قدمى المغنية ، وكنت وانا استمع الى هذا الصوت احس بأن اعمق اعماق نفسى قد استيقظت وكان ذلك هو الجزء فى نفسى الذى يعرف الضياع والحنين للوطن والحزن والذى يتشوق للحب .

وقلت لـ اندار" : من هذه المغنية ؟ .

فقال : إنها "جوان بایاز" مشهورة جدا فى الولايات المتحدة .

واضافت "ايڤيت" بقولها : وهى مليونيرة كذلك !! .

وبدأت احس بسخريتها التى جعلتها تظهر وكأنها قالت شيئا بينما هى لم تقل الا القليل ، وكانت "ايڤيت" تبتسم نحوى ، ربما بسبب ماقالته وربما بسبب انى صديق "اندار" او انها تبتسم لأن الابتسام يليق بجمالها .

قال "اندار" ان سالم آتى من واحدة من اقدم العائلات عند الساحل ، وهى عائلة ذات ماض عريق ، هنا وضعت "ايڤيت" يدها البيضاء على فخدها الايمن ، وقال "اندار" : "دعنى اريك شيئا" .

وانحنى على ساقى ومد يده نحو خزانة الكتب واخذ منها كتابا ثم فتحه واراني الصفحة التى يتعين علىَّ قراءتها ، ونزلت بالكتاب نحو الارض كى اضع الصفحة فى ضوء لمبة القراءة وقرأت أسم "ايڤيت" و"رايموند" ضمن قائمة من الاسماء وكان المؤلف قد اشار الى انهما "اكثر المضيفين كرما منذ وقت غير طويل فى العاصمة" .

واستمرت "ايڤيت" فى الابتسام ، ولم يبد عليها الارتباك او التواضع أو السخرية وانما الاحساس بالاهتمام بوجود اسمها فى الكتاب .

واعدت الكتاب الى "اندار" وذهبت بنظرى بعيدا عن "ايڤيت" وعنه ثم عدت الى الصوت الشادى ، لم تكن كل الاغنيات مثل "باربرا آلان" فبعضها كان حديثا عن الحرب والظلم والاضطهاد والتدمير النووى ، ولكن

هناك فى وسط هذه الاغنيات الحان حلوة ، وهى التى كنت انتظرها ، اخيرا هناك الصوت الذى يربط مابين نوعى الاغنية وما بين الفتيات والعشاق والموت الحزين للايام الخوالى وبين ناس اليوم الذى كانوا مضطهدين وعلى وشك الموت .

ومثل الاخرين فى هذه الحجرة الجميلة بأشيائها البسّيطة مثل السجاجيد الافريقية على الأرض والاشياء المعلقة على الجدران مثل الرماح والاقنعة كنت تحس بأن العالم يمضى ويمضى وانت آمن فى داخله .

وكان الوضع مختلفا فى الخارج وان واحدا مثل "ماهيشن" ربما كان قد تهكم السخرية ، ولقد قال : انه ليس هناك لاصحيح ولا خطأ هنا ، وانما لايوجد الصحيح . وبالنسبة لى كان من الاحسن أن يدعى الانسان كما كنت افعل انا الأن وكان من الافضل أن اشارك فى ألفة هذا الادعاء وان تحس انه فى هذه الحجرة فإننا جميعا نعيش فى جمال وشجاعة مع الظلم والموت القريب وكان عزاؤنا هو الحب ، وحتى قبل ان تنتهى الاغنيات احسست بأننى وجدت نوع الحياة التى اريدها ولم اعد اريد ان اصبح عاديا مرة أخرى .

وكان الوقت متأخرا حينما عاد "رايموند" بعد ان قمت تحت الحاح "اندار" بالرقص مع "ايفيت" واحسست بملمس جلدها تحت حرير البلوزة التى تلبسها ، وحينما رأيت "رايموند" اخذت افكارى تقفز فى هذه المرحلة من المساء من امكانية الى آخرى ، وكانت اولى هذه الخواطر هى فارق السن بين كل من "ايفيت" و"رايموند" ، لاشك أن هناك ثلاثين عاما هى فارق السن بينهما إذ أن "رايموند" يبدو فى الخمسينات المتأخرة .

واحسست بالامكانيات وهى تخبو كالاحلام حينما رأيت نظرة الاهتمام فى وجه "ايفيت" او فى عينها على الاصح ذلك أن ابتسامتها لاتزال هناك ، ثم نظرت الى الهدوء والامن فى سلوك "رايموند" وتذكرت وظيفته ومركزه وتأملت التمايز فى مظهره وكان ذلك راجعا الى ذكائه وجهده الثقافى ، ونظر بعد ان خلع نظارته وبدت عيناه الرقيقتان وقد علتهما جاذبية الارهاق .

وبعد هذه النظرة التى عكست الاهتمام نحو زوجها عادت "ايڤيت" الى الاسترخاء من جديد ومازالت تصحبها ابتسامتها ، قام "اندار" وبدأ فى البحث عن كرسى من كراسى المائدة الموجودة عند الحائط الآخر واشار "رايموند" علينا بالجلوس ورفض أن يجلس بجوار زوجته ، حينما عاد "اندار" بالكرسى جلس عليه "رايموند" .

قالت "ايڤيت" دون أن تتحرك : "هل تحب أن تأخذ شرابا يا"رايموند" ؟ .

ورد "رايموند" عليها قائلا : سوف يفسد مزاجى يا"ايڤى" سوف اذهب الى حجرتى بعد لحظة .

وكان وجود "رايموند" فى الحجرة قد اصبح ملحوظا ، رأينا شابا وفتاة يحومان حولنا وجاء شخص أو اثنان الى حيث مجموعتنا واطلقوا بعض التحيات .

قال "اندار" نرجو الا نكون قد ازعجناك .

ورد "رايموند" انها خلفية جميلة ، واذا كنت ابدو مجهدا بعض الشىء فإن ذلك مرده اننى احس فى هذه الغرفة الآن بأنى حائر النفس وانا اتساءل مثلما اتساءل كثيرا عما اذا كانت الحقيقة يمكن التوصل اليها ومعرفتها ، ان الفكرة ليست جديدة ولكن هناك اوقاتا حينما تصبح شيئا مؤلما بصورة خاصة ، احس ان كل مايفعله المرء يذهب الى ضياع .

قال "اندار" ماتقوله يا"رايموند" كلام فارغ ، انه بطبيعة الحال تأخذ الامور وقتا بالنسبة لواحد مثلك كى يحصل على الاعتراف به ، ولكنها تتحقق فى النهاية ، انك لاتعمل فى حقل له شعبية .

وقالت "ايڤيت" ارجو أن تخبره بهذا نيابة عنى لو سمحت ! .

وقال رجل من الوقفين حولنا : "إن الاكتشافات الجديدة تجعلنا على الدوام نعيد صياغة افكارنا عن الماضى والحقيقة دائما هناك يمكن التوصل اليها والعمل يجب أن يتم وهذا كل مافى الموضوع .

وقال "رايموند" : إن الزمن هو كشاف الحقيقة اننى اعرف ذلك انها فكرة كلاسيكية او فكرة دينية ، ولكن هناك من الاوقات التى تبدأ فيها بالتساؤل ، هل نعرف حقا تاريخ الامبراطورية الرومانية ؟ وهل نعرف حقا ماحدث اثناء فتح بلاد الغال ، لقد كنت اجلس فى حجرتى وانا افكر فى حزن عن كل الاشياء التى ذهبت دون أن تدون ، وهل تظن اننا سوف نحصل على معرفة الحقيقة بشأن ماحدث فى افريقيا فى القرن الماضى أو الخمسين عاما الماضية من كل الحروب وكل حركات التمرد وكل الزعماء وكل الهزائم .

وكان هناك صمت حيث بدأنا ننظر الى "رايموند" الذى ادخل هذا العنصر من المناقشة على امسيتنا ، ولكن الروح كانت لاتزال هى روح المطربة "چوان باياز" واغانيها لكننا ولبرهة قصيرة ودون مساعدة الموسيقى جعلنا نتأمل حزن القارة الافريقية .

وسأل "اندار" : هل قرأت مقالة "موللر" ؟ .

ورد "رايموند" عن تمرد بابيندا ؟ ارسل لى نسخة منها سمعت انها لاقت نجاحا هائلا .

وقال "اندار" : لقد قلت لـ "سالم" يا "رايموند" انك انت الرجل الوحيد الذى يقرأ له الرئيس .

وقال "رايموند" : لا اعتقد أن لديه الآن الوقت الكافى للقراءة . قال الشاب وصديقته قريبة منه : "كيف تسنى لك ان تقابله" .

وقال "رايموند" انها قصة بسيطة وغير عادية ، ولكنى لا اظن أننا لدينا الوقت لها ، ثم نظر الى زوجته "ايڤيت" .

وقالت هى : لا اظهر ان احدا سوف يخرج مسرعا فى هذه الدقيقة .

وقال "رايموند" : حدث ذلك منذ وقت طويل مضى ايام العصر الاستعمارى ، حين كنت احاضر فى احد المعاهد فى العاصمة وكنت آنذاك

أقوم بدراساتى التاريخية ، ولكن لم يكن هناك طبعا فى هذه الايام موضوع لنشر ذلك ، إن الرقابة كانت مفروضة رغم أن الشعب يدعى انها غير موجودة رغم القانون العتيد لعام ١٩٢٢ ، ولم تكن افريقيا حينئذ بطبيعة الحال هى الموضوع ، ولم اكن قد جعلت ما احسه أو ماهو موقفى شيئا سريا ، وافترض أن كلماتى قد ذاعت بين الناس ، وفى احد الايام وانا فى المعهد اخبرنى احد الخدم أن هناك سيدة افريقية كبيرة فى السن تريد أن ترانى ، وكان الخادم الافريقى الذى أتانى بالخبر قد اظهر عدم الاهتمام بالزائر القادم الىَّ ، وطلبت منه ان يدخلها الىَّ ، وكانت سيدة متوسطة العمر وليست مسنة تعمل كخادمة فى احد الفنادق الكبيرة فى العاصمة ، لقد أتت الىَّ بشأن ابنها ، كانت تنتسب الى قبيلة خطيرة بلا حول ولا طول فى الشئون العامة واعتقد أنه لم يكن هناك من اهلها من تستطيع أن تلجأ اليه ، ترك ابنها المدرسة والتحق بأحد الاندية السياسية واخذ ينخرط فى بعض الاعمال المختلفة ، ولكنه تركها جميعا ولم يعد يفعل شيئا غير البقاء فى المنزل ، وامتنع عن زيارة اى شخص فى الخارج ، ورغم انه لم يكن مريضا إلا انه كان يحس بصداع فى رأسه ، وظننت انها تريد منى أن اعثر للصبى على عمل ولكن الواقع انها تريد منى لاغير أن ارى الصبى وان اتحدث اليه .

اثرت فى نفسى الى حد بعيد وكان كبرياء هذه الخادمة فى الفندق شيئا عظيما ، ومن المحتمل أن غيرها من السيدات ربما فكرت فى ان ابنها مصاب بمرض سحرى وان تقوم بعمل ما يناسب هذا المرض ، ادركت المرأة بطريقتها البسيطة ان ابنها مصاب بسبب التعليم الذى تلقاه وهو السبب الذى جعلها تلجأ الىَّ بوصفى مدرسا فى المعهد .

وطلبت منها أن ترسل الصبى الىَّ ، ورغم انه لم يكن يحب فكرة امه فى الحديث الىَّ إلا أنه أتى ليرانى ، بدا عصبيا كقطة صغيرة ، وكان ماجعله غير عادى هو نوعية اليأس الذى يعانيه ولم يكن بسبب الفقر او انعدام الفرصة امامه ولكن الامر الاكثر عمقا من ذلك ، وكانت محاولة النظر إلى العالم من وجهة نظره الخاصة كفيلة بأن تصيبك بالصداع ، لقد كان غير قادر على مواجهة العالم الذى تعمل فيه امه كأمرأة فقيرة من افريقيا تتحمل

كل هذا الهوان ولم يكن هناك مايبعد عنه هذا الاحساس بأن هناك عالما افضل .

قلت له : سمعتك وانا اعرف ان حالة اليأس سوف تذهب يوما ما ويبقى عليك أن تتحرك . عليك أن تتوقف عن الانخراط فى السياسة كما هى موجودة ذلك ان هذه النوادى والجمعيات هى دكاكين للكلام وجمعيات للنقاش حيث يعارض فيها الافريقيون الاوربيين وسوف يأكلون عاطفتك ويدمرون مواهبك ، ولعل ماسوف اقوله لك الآن قد يبدو غريبا أن يصدر منى : يجب عليك أن تلتحق بالجيش ورغم انك لم تصعد عاليا فيه إلا انك سوف تتعلم حرفة ما ، وسوف تتعلم عن السلاح والنقل كما سوف تتعلم معرفة الرجال ، وما ان تعرف مايجعل قوة الدفاع متماسكة حتى تعرف ايضا مايجعل الوطن يبدو متماسكا ايضا ، وقد تقول لى "أليس من الاحسن أن اكون محاميا وينادينى الناس بلقب "ميتر" ولكنى اقول لك انه افضل لك أن تكون نفرا فى الجيش وان تقول لرئيسك فى الرتبة "سيدى" وليست هذه نصيحة اقولها لأى شخص ولكنى اقولها لك وحدك" .

وحينما توقف عن الحديث سمحنا للصمت أن يستمر بينما كنا نواصل النظر اليه وهو جالس على كرسى المائدة وهو يلبس چاكت السفارى متميزا بشعره وعينيه المجهدتين حتى ليبدو وكأنه فتى مدلل على طريقته الخاصة .

واستمر "رايموند" : انه رجل عظيم ولا اعتقد أننا اعطيناه حقه من التقدير الذى يستحقه عما فعله وننظر الى ذلك كأمر مسلم به ، لقد نظم الجيش وأتى بالسلام الى هذه الارض ذات الشعوب المتعددة واصبح من الممكن مرة ثانية أن تعبر البلاد من اقصاها الى اقصاها ، ولعل ماهو اكثر عظمة هو أن ماتم عمله كان بدون قهر ، وبرضاه الشعبى تماما ، انك لاترى شرطيا فى الشوارع ولا ترى البنادق ولا ترى الجيش .

وكان "اندار" جالسا بجوار "ايڤيت" التى لاتزال على ابتسامتها وبدا وكأنه يحاول تغيير وضع ساقيه توطأة للحديث ولكن "رايموند" رفع ذراعه ولم يتحرك "اندار" .

قال "رايموند" هناك ايضا الحرية ، كما ان هناك الترحيب الواسع الذى يعطى لكل شكل من اشكال الفكر اينما كانت وايا كان نظامها ، ولا أظن وبدأ يوجه حديثه باتجاه "اندار" مباشرة كما لو كان يعوضه عن بقائه صامتا : ان هناك احدا قد اشار اليك تلميحا عن اشياء يجب أن تقال واشياء لايجب الحديث عنها .

وقال "اندار" لقد كانت لنا هنا سهولة الحركة .

وقال "رايموند" لا اظن انه قد خطر بباله ان يحاول الرقابة عليك يحس بأن كافة الافكار يمكن أن تؤدى الى خدمة القضية ، ويمكنك القول بأن هناك جوعا مطلقا للافكار كما يقول هو وانه يقوم باستخدامها جميعا بطريقته ، وهذا هو الشىء الرائع فى هذا الرجل من ابناء افريقيا .

والآن فى هذه الايام فإننا نراه فى صوره العديدة وهو فى الملابس الافريقية ، ولابد أن اعترف بأننى انزعجت حينما بدأت هذه الصور تظهر وبهذا الصدد الكبير ، ولقد اثرت الموضوع معه فى احد الايام فى العاصمة ، ولقد هزتنى الرؤية الثاقبة فى اجابته ، وقال لى منذ خمس سنوات مضت يا"رايموند" كنت اتفق معك ، ومنذ خمس سنوات كان شعبنا الافريقى بسخريته القاسية التى يملكها كان يمكن أن يضحك وأن هذه السخرية كانت كفيلة بتدمير بلدنا التى لاتزال لها روابط هشة ، ولكن الازمنة تغيرت ، فالشعب الآن حصل على السلام ويريد شيئا مختلفا ، لهذا فإنهم لم يعودوا يرون صورة الجندى ولكنهم يرون صورة الافريقى وهذه ليست صورتى انا يا"رايموند" ولكنها صورة كل الافريقيين .

وقلت انا وكان هذا معبرا عن شعورى الخاص : نعم ليس هناك من بيننا فى المدينة من يحب الصورة القديمة ، ولكن الامر يختلف فى مبانى املاك الحكومة الخاصة حينما نرى الصور الحديثة .

وسمح "رايموند" لهذه المقاطعة ان تمر وكانت يده اليمنى مرفوعة كما لو كانت اشارة بالاستمرار فى الحديث .

وفكرت فى أن اتحقق من هذا ، حدث ذلك فى الاسبوع الماضى ، حينما تقابلت بالمصادفة مع احد طلاب المعهد ولكى اكون مثيرا للحديث فلقد القيت عن قصد بملاحظة ما عن عدد الصور الخاصة بالرئيس ، وكان ان واجهنى الشاب بعنف وسألته عن احساسه عندما يرى صور الرئيس ولسوف يدهشك ان ترى ماقاله هذا الشاب الذى كان واقفا منتصبا مثل اى جندى : انها صورة الرئيس ولكنى هنا فى املاك الدولة وكطالب فى المعهد الفنى فأننى اعتبرها ايضا بمثابة صورة لى ، وهذه هى صفات الزعماء العظماء الذى يتحسسون حاجات شعوبهم قبل أن تتم ظهور هذه الحاجات وصياغتها ، وهو مايجعل الافريقى يحكم افريقيا وهو مالم تفهمه القوى الاستعمارية ابدا ، ومهما كان لنا الحظ من دراسة افريقيا ، ومهما كانت درجة تعاطفنا فلسوف نظل مجرد دخلاء .

سأل الشاب الذى يجلس على السجادة مع فتاته : هل تعرف الرمز الخاص بالثعبان المرسوم على عصا الرئيس ؟ وهل صحيح أن هناك قيمة فى بطن الصورة الآدمية فوق العصا ؟

وقال "رايموند" لا اعرف شيئا عن هذا ، انها مجرد عصا ، عصا للزعيم وهى تشابه الصولجان أو التاج ، لا اعتقد اننا يتعين علينا ان نسقط فى الخطأ الخاص بالبحث عن اشكال الغموض الافريقية فى كل مكان .

اكمل "رايموند" اتيح لى مؤخرا ان اتأمل وابحث فى كل خطب الرئيس ، والأن اى كتاب سوف يخرج لو طبعت هذه الخطب معا ، والمهم ليس هو الخطب كلها التى تتحدث بالضرورة عن العديد من الامور العابرة ، ولكن المختارات من هذه الخطب والافكار الاساسية فيها .

وسأل "اندار" : هل تعمل الآن فى هذا الموضوع وهل طلب هو منك هذا الامر ؟ .

ورفع "رايموند" راحة يده وثنى كتفه ليقول ان ذلك ممكن ولكنه لايستطيع أن يتحدث عن موضوع مازال فى دائرة السرية ، ويستمر "رايموند" أن المثير فى هذه الخطب حينما تتم قراءتها فى تتابعها الزمنى

هو تطورها. وهناك تستطيع أن ترى بجلاء ماسبق أن وصفته بالجوع للأفكار ، فى البداية كانت هناك افكار بسيطة ، الوحدة والماضى الاستعمارى والحاجة الى السلام ثم تتحول الافكار لتصبح اكثر تعقيدا وجمالا حينما تدور حول افريقيا والحكومة والعالم الحديث ، وهذا العمل لو تم اعداده بصورة كافية فإنه سوف يصبح دليلا للعمل الثورى الحقيقى فى كل القارة الافريقية ، وتستطيع دائما أن تلمس نوعية اليأس لهذا الشاب وهى التى تركت فى نفسى اثرا عميقا منذ زمن طويل ، ودائما تحس أن الضرر ربما لايمكن أبدا تفاديه ، ودائما هناك هذه النغمة لمن لهم اذن تسمع لهذا الشاب الذى ينعى مهانات والدته خادمة الفندق ولقد ظل دائما مخلصا لهذا ، ولا اعتقد أن الكثيرين يعلمون انه فى بداية العام قام هو واعضاء حكومته بالحج الى القرية الخاصة بهذه المرأة الافريقية ، فهل حدث مثل هذا من قبل ؟ وهل قام احد الحكام بمحاولة اضفاء القداسة على الغابة فى افريقيا ؟ وهذا الفعل من افعال الخشوع لهو شىء يجعل الانسان يزرف الدموع ، فهل تستطيع أن تتخيل حجم المهانات التى كانت تعانيها خادمة افريقية فى احد الفنادق فى عصر الاستعمار ؟ اى ان درجة من الخشوع لاتكفى لتعويض هذا ولكن الخشوع هو كل مانستطيع أن نقدمه .

قال "اندار" أو اننا نستطيع أن ننسى ونستطيع أن ندوس على الماضى .

قال "رايموند" : هذا مايفعله معظم قادة افريقيا ، انهم يريدون أن يبنوا ناطحات السحاب فى الغابة ، بينما يحاول هذا الرجل أن يبنى قبرا مقدسا .

وقال "رايموند" : اننى اود أن اكون معكم ولكن لسوء الحظ فإنه يتعين علىَّ أن اعود الى عملى وإلا فإننى قد افقد شيئا ، اننى ارى ان اصعب الاشياء فى كتابة الرواية النثرية هو ربط شىء بشىء آخر ، وقد تكون الرابطة مجرد جملة او حتى كلمة فحسب تلخص ماحدث من قبل وتعد القارىء لما سوف يأتى ، وحينما كنت جالسا معكم جاءتنى فكرة لحل ممكن

لمشكلة كانت تبدو عويصة ، ولهذا يجب أن اذهب واسجل ملحوظة والا فسوف انسى .

وبدأ يتحرك بعيدا عنا ثم توقف وقال : اظن أنه ليس بمفهوم بدرجة كافية كيفية الصعوبة فى محاولة الكتابة عن شىء لم يكتب عنه من قبل ، ولهذا بدأت أنظر الى "تيودور مومسن" عملاق الكتابة التاريخية الحديثة ، ان كل ماننناقشه الآن عن الجمهورية الرومانية هو مجرد استمرار د ."مومسن" وتستطيع إن تقول أن المشاكل والقضايا والسرد الروائى نفسه وبخاصة لهذه السنوات البالغة الاضطراب فى الجمهورية المتأخرة كل هذا تمكنت العبقرية الالمانية من كشفه جميعا ، وكان من حسن حظ "مومسن" أن موضوع كتابته كان موضوعا عظيما ، اما بالنسبة لنا نحن الذين نكتب فى مجالنا الخاص فليس لدينا هذا التأكيد وليس لدينا اى فكرة عن الاهمية التى سوف تلحقها الاجيال القادمة ، بالاحداث التى نحاول تسجيلها وليس لدينا اى فكرة عن الجبهة التى تتحرك نحوها القارة ولكننا نستمر مجرد الاستمرار فى العمل .

وانهى "رايموند" حديثه فجأة ثم غادر الحجرة وتركنا فى صمت ننظر الى حيث اختفى وهكذا تحرك انتباهنا ببطء الى "ايفيت" التى اصبحت الآن ممثلته فى الحجرة والتى كانت على ابتسامتها وهى تتقبل احترامنا .

وبعد قليل سألنى "اندار" هل تعرف عمل "رايموند" ؟ .

وقلت له : لا .. لا اعرف عمله .

وقال "اندار" هذه هى مأساة المكان .. ان الرجال العظماء لافريقيا غير معروفين .

وحينما بدأنا نستعد للخروج احتضن "اندار" "ايفيت" كما اتيح لى ان احتضنها كذلك بوصفى صديق "اندار" ، وكان هذا شيئا لذيذا كنهاية لهذه الامسية ان اضم هذا الجسد قريبا منى رقيقا فى هذه الساعة المتأخرة وان احس بملمس الحرير الخاص بالبلوزة والجسد الذى تحت الحرير كذلك ، الآن ظهر القمر ولم يكن قد ظهر من قبل ، بدا صغيرا وعاليا

وكانت السماء مملوءة بالسحاب الكثيف وكان ضياء القمر يأتى ويروح , وراح السكون يخيم على المكان حتى اننا كنا نسمع صوت الشلالات على بعد ميل واحد .

وقلت لـ "اندار" : دعنا نذهب الى النهر ووافق "اندار" وكانت المبانى الجديدة فى املاك الحكومة التى كانت ارضا مسطحة واسعة تبدو صغيرة والارض تبدو شاسعة وسط النهر والغابة ، وكان ضياء القمر يعرج المسافات وكان الظلام حينما هل يبدو كأنه ينزل فوق رؤوسنا .

وقلت لـ "اندار" مارأيك فيما قاله "رايموند" ؟ .

وقال "اندار" : "رايموند" يحكى القصة جيدا ، معظم ما يقوله صحيح ، وما قاله عن الرئيس والافكار التى لديه صحيح ايضا الرئيس يستخدم هذه الافكار جميعها ويجعلها تعمل معا ، وهو زعيم افريقى عظيم ، وانه رجل الشعب ، رجل عصرى يحب التمدين وهو الافريقى الذى اعاد اكتشاف الروح الافريقية ، وهو محافظ وثورى وكل شىء ، انه يعود الى الطرق القديمة وهو ايضا الرجل الذى يسير الى الامام ، ويستعد لكى يجعل البلاد قوة دولية مع مجىء عام ٢٠٠٠ ، ولست ادرى ما اذا كان قد فعل ذلك بطريق المصادفة ام ان شخصا ما اوصاه بأن يفعل هذا ، ولكن الامور تسير لانه دائم التغير وليس كالاشخاص الاخرين ، انه المحارب الذى قرر ان يكون زعيما من الطراز القديم وهو الزعيم الذى كانت امه خادمة بالفندق وهو ما يجعله يصبح كل شىء وهو يلعب كل الادوار ، وليس هناك فى البلد من لم يسمع بقصة هذه الام التى كانت خادمة فى فندق .

وقلت لـ "اندار" : لقد امسكوا بى بهذه الرحلة الى قرية الام حينما قرأت فى الصحف انها زيارة غير دعائية ونظرت اليها على هذا الاساس ، انه يقيم هذه المزارات المقدسة فى الغابة لتكريم هذه الام فى نفس الوقت الذى يبنى فيه افريقيا الحديثة ، ويقول "رايموند" انه لايبنى ناطحات السحاب ولكنه رغم هذا يبنى املاك الحكومة المكلفة الثمن .

ان "نصر الدين" كان يمتلك بعض الاراضى هنا فى الايام الماضية ، باعها مقابل لاشىء ، هل انت تريد ان تخبرنى بذلك فهذه قصة افريقية ؟ .

لا .. إن "نصر الدين" قد باع بسعر جيد ، لقد باع ابان قمة الرواج قبل الاستقلال ، ولقد جاء فى احد أيام الاحاد ، وقال : ولكن هذه غابة فحسب ثم قرر البيع .

من الممكن أن يعود ذلك مرة ثانية .

وكان صوت الشلالات قد اصبح عاليا ، لقد تركنا مبانى املاك الدولة وراءنا واقتربنا من اكواخ الصيادين التى تبدو ميتة فى ضياء القمر ، وكانت الكلاب العجفاء للقرية تبدو شاحبة فى ضوء القمر وهى تجر خلفها ظلالها بينما تمشى فى كسل بعيدا عنا ، اما قوارب الصيادين وشباكهم فتبدو داكنة امام البريق المتكسر للنهر ، ثم اقتربنا من نقطة المراقبة القديمة التى تم اصلاحها وقد وضعت حولها الحيطان وكان صوت المياه النازلة على الصحف يغرق كل شىء ، وكان دغل من السنبل البرى يتجمع فى الماء وكان لونه الابيض فى ضوء القمر يبدو ساطعا بالنسبة لفروع الكرم الملتفة فى الظلال السوداء ، وحينما اختفى القمر لم يعد هناك شىء ينظر اليه وتحول العالم الى الصوت القديم للمياه التى تنحدر بشدة .

وقلت لـ "اندار" : لم اخبرك حتى الآن عن سبب حضورى الى هنا ، انه ليس مجرد الهروب من الساحل او من اجل ان ادير هذا المحل ، لقد تعود "نصر الدين" أن يخبرنا بقصصه العجيبة عن الايام التى عاشها هنا ، وهذا هو سبب مجيئى هنا ، ذلك اننى فكرت فى اننى سوف اصبح قادرا على أن اعيش حياتى الخاصة كما ظننت اننى فى وقت قصير سوف استطيع أن اجد ماوجده "نصر الدين" ثم سرعان ما توقفت خطواتى ، ولست اعرف ماذا كان بوسعى أن افعل لولا مجيئك ، ولو لم تأت ماكان لى أن اعرف مايحدث هنا امام عينى .

"انها شىء مختلف عما كنا نعرف ، فهى بالنسبة لأناس مثلنا كانت بالغة الاثارة وهى أن توجد اوربا فى افريقيا بعد الاستعمار ، ولكن الواقع

انه ليس هناك اوربا او افريقيا وهى شىء مختلف من الداخل وهو ما استطيع ان اؤكده لك .

"هل تعنى أن الشعب لايؤمن بها ؟ انهم لايؤمنون بما يقولون أو يفعلون" .

"انه ليس هناك اى شخص بمثل هذه السطحية ، اننا نؤمن ولا نؤمن ، نؤمن لانه بهذه الطريقة تبدو كل الاشياء اكثر بساطة واكثر قابلية للفهم ، ولكننا لانؤمن بسبب هذا ، ثم لوح "اندار" بيده نحو قرية الصيادين والغابة والنهر الذى يضيؤه القمر .

واصل "اندار" حديثه بعد فترة : إن "رايموند" فى شىء يشبه الورطة ، يتعين عليه أن يواصل ادعاءه بأنه الدليل والمستشار وأن يبعد نفسه عن معرفة ان الوقت سوف يكون تقريبا هنا حينما سوف تصدر اليه الاوامر سوف يصاب بالجنون اذا بدأ الاعتراف بأن هذا هو وضعه الان ، انه الآن فى وظيفة كبيرة ولكنه يقف على الطريق المنحدر ، لقد تم ارساله من العاصمة والرجل الكبير له طريقه الخاص ولم يعد يحتاج الى "رايموند" ، إن الجميع يعرفون هذا ولكن "رايموند" لايظن انهم لايعرفون ، انه شىء مخيف أن يحس رجل فى هذه السن بأن الحال كذلك .

لم يجعلنى ماقاله "اندار" افكر فى "رايموند" ولكننى كنت افكر فى "ايفيت" التى اقتربت من خيالى بسبب القصة المحزنة لزوجها "رايموند" وبدأت استعيد الصور التى لها فى هذا المساء وبدأت اعيد الفيلم فى خيالى مرة ثانية اعيد بناءه ثم تفسيره لاعيد خلق صورة هذه المرأة التى سحرتنى وتذكرت قدميها البيضاويين وساقا من ساقيها ممدوة والاخرى وقد ثنيت على الأرض ثم تذكرت وجهها وابتسامتها ولمست الصورة كلها بالحالة النفسية التى آتت بها اغنيات "جوان باياز" وما اثارته الاغنيات فى نفسى ثم اضفت الى كل هذا ضوء القمر والشلالات والسنابل البرية البيضاء فوق هذا النهر العظيم لافريقيا .

- ٩ -

ولقد كان هذا المساء عند النهر وبعد أن تحدث "اندار" عن "رايموند" بدأ يحدثنى عن نفسه ، ان هذا المساء الذى اثارنى قد اثار ضيق "اندار" واصابه بالكآبة واصبح مصدر عصبيته فور خروجنا من منزل "ايفيت" .

وفى بداية المساء وحينما كنا نمشى فى طريقنا الى المنزل لحضور الحفل تحدث "اندار" عن "رايموند" بوصفه نجما وشخصا قريبا من السلطة والرجل الابيض فى حاشية الرجل الكبير لكنه تحدث عنه بطريقة مختلفة عندما كنا بالقرب من الشلالات ، وبوصفه دليلى كان "اندار" يعنيه أن افهم جيدا طبيعة الحياة فى املاك الدولة ومركزه هو شخصيا هناك ، وبعد أن تلمست الوهج المثير لهذا العالم اصبح "اندار" مثل دليل فقد الايمان فيما قام بعرضه هو نفسه .

وكان ضياء القمر الذى جعلنى ابدو على شىء من المرح قد عمق من احساس "اندار" بالكآبة وبسبب هذه الكآبة بدأ الحديث ، ولم يكن جو المساء قد بقى فى نفسه رغم انه فى اليوم التالى قفز ثانية وتهلل كما كان يبدو دائما ، ولكنه كان مستعدا اكثر من اى وقت لأن يعترف بسوء حالته النفسية ، وما كان قد افصح عنه بإيجاز فى هذا المساء عاد فى اوقات أخرى ليكمله حينما تأتى المناسبة او حينما يعود ثانية الى الحالة النفسية السابقة .

يجب علينا يا"سالم" أن نتعلم ان ندوس على الماضى ، هكذا اخبرتك حينما التقينا ، انه يجب ألا يكون ذلك سببا للدموع ، لان ذلك ليس حقيقيا بالنسبة لى ولك ، ان هناك بعض الاجزاء من العالم مثل البلدان الميتة أو

الآمنة او التى تخلفت حيث يمكن للرجال أن يحتفلوا بالماضى ويفكروا فى نقل الاثاث او قطع الصينى الى ورثتهم ، ان الناس فى وسعهم أن يفعلوا هذا ربما فى السويد أو كندا أو فى بعض الاجزاء الخاصة بالفلاحين فى فرنسا او فى مدينة متهاوية للقصور القديمة فى الهند او مدينة ميتة استعمارية فى احد بلاد امريكا الجنوبية التى لااصل لها ، اما فيما عدا ذلك من البلدان فهناك الرجال فى حركة دائمة والعالم فى حركة دائمة والماضى يكون دائما مدعاة للالم .

ومع ذلك فإنه من غير السهل أن تدير ظهرك للماضى ذلك انه ليس شيئا يمكن أن تقرر ان تقوم به هكذا ، ولكنه شىء يجب عليك أن تسلح نفسك استعدادا له وإلا فإن الحزن سوف يوقع بك ، ويدمرك ، وهذه الفكرة عن الماضى جاءت الىَّ فى نهاية سنتى الثالثة فى انجلترا ومن الغريب أن يحدث لى ذلك وانا بجوار نهر آخر من الانهار ، لقد قلت لى اننى قدتك هنا الى نوع الحياة التى احسست انت بالحاجة اليها ، ولقد كان شيئا قريبا مما حدث لى حينما بدأت احس بهذا بجوار هذا النهر فى لندن حيث قمت باتخاذ قرار حول نفسى ، ولقد كان نتيجة غير مباشرة لهذا القرار ان جئت الى افريقيا ثانية ، رغم اننى كنت قد نويت الا اعود ابدا اليها حينما رحلت عنها .

كنت فى منتهى التعاسة حينما رحلت وأنت تتذكر ذلك ، حاولت ان افرض عليك الكآبة والحقيقة كنت احاول جرحك لكننى فعلت هذا لاننى فى منتهى الاحساس بالكآبة آنذاك ، وكانت فكرة ذهاب جهد جيلين من اسرتى الى الضياع شيئا مؤلما جدا .. وكانت فكرة خسارتنا للمنزل الذى بناه جدى والفكرة الخاصة بالمخاطر التى قام بها هو ووالدى فى اقامة عمل لهما من الصفر والشجاعة والليالى التى عاشوها بلا نوم كانت كلها اشياء مؤلمة ، وفى بلد آخر كان هذا الجهد وهذه الموهبة كفيلين بجعلنا مليونيرات وارستقراط او على الاقل آمنين لعدة اجيال قادمة ، ولكن ذلك كله تحول الى دخان ، ولم يكن غضبى مقصورا على الافريقيين ولكنه كان موجها كذلك الى مجتمعنا ، وحضارتنا التى اعطتنا الطاقة وجعلتنا فى كل

الحالات الاخرى تحت رحمة غيرنا ، فكيف لا يستبد بك الغضب امام شىء كهذا .

ظننت حينما ذهبت الى انجلترا اننى سوف القى بكل هذا خلف ظهرى ولم يكن لى خطط ابعد من هذا ، وكانت كلمة الجامعة تبهرنى ببريقها وكنت من البراءة بحيث اعتقدت انه بعد الوقت الذى سأقضيه فى الجامعة فإن حياة ساحرة سوف تكون فى انتظارى ، وفى مثل هذه السن كانت ثلاث سنوات تبدو فترة طويلة من الزمن وكنت تحس بأن أى شىء يمكن أن يحدث ، لكننى لم اكن افهم الى اى مدى كانت حضارتنا هى سجننا ، كما لم افهم الى اى مدى كنا قد تم صنعنا فى المكان الذى تربينا فيه وكيف صنعنا بأفريقيا والحياة السهلة عند الساحل وكيف اصبحنا غير قادرين على فهم العالم الخارجى ، ولم يكن بوسعنا أن نفهم جزءا بسيطا من الفكر والعلم والفلسفة والقانون الذى تم به تكوين العالم الخارجى ، اننا قبلناه ببساطة ، وتربينا على مدحه ولم يكن هناك ماهو اكثر لنفعله ، وكنا نحس بالعالم العظيم الذى هناك ببساطة شىء كتب للمحظوظين منا ان يكتشفوه وفقط عند الاطراف ، ولم يدر بعقلنا أن نسهم نحن انفسنا بشىء فيه وهذا هو السبب الذى جعلنا نفقد كل شىء .

وحينما هبطنا الى مكان مثل مطار لندن لم يهمنا سوى ألا نظهر كأغبياء أنه شىء اكثر جمالا وتعقيدا من اى شىء حلمنا به ولكن كل ماكان يهمنا هو ان ندع الناس يرون أننا نستطيع تدبير امورنا واننا لسنا مأخوذين بالخوف ، وربما كنا ايضا ندعى بأننا كنا نتوقع ماهو احسن ، وكان هذا هو طبيعة غبائنا وعجزنا ، وهكذا قضيت وقتى فى الجامعة فى انجلترا غير مأخوذ بالخوف ، ولكن دائما خائب الامل بعض الشىء لا افهم شيئا واقبل كل شىء ولا احصل على اى شىء ، وكنت ارى وافهم قليلا جدا حتى اننى كنت اميز بين البنايات وبعد نهاية وقتى بالجامعة بمجرد حجمها وكنت غير واع بتغير الفصول الا قليلا ومع هذا فلقد كنت رجلا ذكيا احشو عقلى بالدروس استعدادا للامتحانات .

وفى احدى المرات طوال الشهر تناولت الغداء مع سيدة المحاضرات فى الجامعة وفى حوالى الثلاثين ولم تكن رديئة المظهر بدت عطوفة جدا

معى ، ولم تكن شخصية عادية لانها على سلام مع نفسها هذا هو سبب جمالها لقد جعلتنى افعل هذا الشىء العبثى الذى سوف اقوم بوصفه الآن .

وكانت هذه السيدة ترى أن الناس من امثالى يعيشون فى بحر لاننا آدميون قادمون من عالمين ، وكانت هى مصيبة فى رأيها بطبيعة الحال ، ولكن الامور لم تبد آنذاك هكذا لى ، وكنت اعتقد أننى ارى كل شىء بوضوح تام ، وارى انها حصلت على فكرتها هذه من احد الشبان من مدينة بومباى او شىء من هذا القبيل وكان المقصود بهذه الفكرة هو أن يبدو هذا الشاب مهما ، ولكن السيدة كانت تظهر أن تعليمى وخلفيتى قد جعلا منى شخصا غير عادى ولم استطع أن اقاوم هذه الفكرة عن تميزى .

وكانت الفكرة عن انى شخص غير عادى وله عالمان تستلزم أن يكون لى وظيفة غير عادية كذلك ، واقترحت ان اكون دبلوماسيا ، هذا هو ماقررت أن افعله ، وكانت البلد الذى قررت أن أخدم فيه هو الهند ، وكنت اعرف انه عبث حتى وانا بصدد فعله ولكنى كتبت الى اللجنة العليا الهندية ووصلنى رد واعطى لى موعد للمقابلة .

وذهبت الى لندن بالقطار ولم اكن اعرف لندن بصورة جيدة ولم أكن احب ما اعرفه واحببت ما اعرفه اقل فى هذا الصباح ، تحولت فى شارع براين بمكتباته الخاصة المخلة بالآداب ، ورأيت طريق ادجوير حيث توجد المحلات والكافتيريات وشاهدت المحلات والزحام الخاصة بشارع اوكسفورد وريجينت ستريت ، وكان اتساع ميدان الطرف الاغر قد اعطانى انتعاشة وذكرنى بأننى كنت تقريبا فى نهاية رحلتى بدأت احس بالحرج من جراء مهمتى .

واحذنى الاتوبيس الى بداية الشارع حيث توقف بى عند منحنى الدويتش وعبرت الطريق الى المبنى الذى حدد لى على انه بيت الهند ، وتساءلت مع نفسى كيف يمكن أن تغيب عنى معرفة المبنى رغم كل الصور والرسوم الهندية المطبوعة على الجدران الخارجية له ؟ وعند هذه المرحلة

بلغ احساسى بالحرج اقصاه ، كنت ألبس بدلتى الداكنة وربطة العنق الخاصة بالجامعة وأنا على وشك أن ادخل الى احد مبانى لندن وهو مبنى انجليزى على الطراز الهندى وهو هند آخرى غير التى تحدث لى عنها جدى فيما مضى .

وللمرة الاولى فى حياتى احسست بالغضب الاستعمارى يملأ نفسى ولم يكن هذا الغضب بسبب بريطانيا أو لندن ولكن بسبب هؤلاء الناس الذين يتحلقون الخيال الاجنبى ، ولم يهدأ غضبى حتى بعد أن دخلت الى المبنى ، وكان السعاة من لابسى البدلة الرسمية انجليزا متوسطى العمر ، وكانوا من الجيل الذى عمل مع الادارة القديمة ، ويحاولون العمل الآن تحت الادارة الجديدة ، واحسست فى هذا المبنى اننى فقدت جزءا هاما من فكرتى عما اكون ، واحسست بأننى حصلت على اقسى شكل من المعرفة عن مكانى فى العالم ولقد كرهت هذا .

ولقد تحدث موظف الاستقبال الى احد كبار السعاة الانجليز ليقودنى اليه حيث مشى بى وهو يلهث الى حجرة بها عدة مكاتب وعلى احدها يجلس الرجل الخاص بى ، وكان مكتبه عاريا اما الرجل نفسه فيبدو فارغا وسهل العريكة ، وله عينان صغيرتان مبتسمتان ، ولم يبد عليه انه يعرف لماذا جئت اليه .

وفتح درج مكتبه وهو يطلب الخطاب الذى كتبه هو بنفسه وعرف اننى ابحث عن وظيفة والتمعت عيناه بإحساس التسلية ثم قال لى : "من الاسلم أن تذهب لترى السيد "ڤيرما" ، وقادنى الساعى الانجليزى الذى تختنق انفاسه بشدة الى مكتب جديد ثم تركنى وحدى .

وكان السيد "ڤيرما" الذى يلبس نظارات سميكة يجلس فى مكتب اقل ازدحاما وامامه الكثير من الاوراق والملفات ، وعلى الحائط رأيت صورا من الايام البريطانية لمبان هندية صور طبيعية للهند ، وكان الموظف يبدو اكثر اهتماما من الرجل الذى سبقه ، اربكه الخطاب الذى معى كما اقلقه منظرى بالبدلة الداكنة وربطة العنق الجامعية ، وحاول أن يجرى معى المحادثة الخاصة ، ودق جرس التليفون ولم تبدأ المحادثة ثم خرج السيد "ڤيرما"

واخبرنى بعد عودته الى المكتب وهو يحمل بعض الاوراق أن اذهب الى مكتب فى دور آخر من المبنى ووصف لى مكان المكتب الجديد .

وكانت الغرفة التى دققت بابها صغيرة مظلمة مخصصة للانتظار ، رأيت رجلا ضئيل الحجم يجلس خلف آلة كاتبة عتيقة ونظر الىَّ فى شىء يشبه الرعب ، وكان ذلك من تأثير البدلة الداكنة ، وربطة العنق ولم يعد اليه هدوؤه الا بعد ماقرأ خطابى ، حينئذ طلب منى الانتظار ولم تكن هناك اية كراسى للجلوس فظللت واقفا .

اختفت رغبتى فى العمل فى الحياة الدبلوماسية الآن وأخذت انظر الى صور كل من غاندى ونهرو وعجبت كيف امكن لهما أن يخرجا كرجلين من وسط هذا الزحام ، ولقد كان غريبا فى مبنى يقع فى قلب لندن أن ارى هذين الرجلين العظيمين بهذا الشكل الجديد من الداخل ، وكنت حتى هذا الوقت لا اعرف عنهما اكثر مما قرأت فى الصحف والمجلات حيث اعجبت بهما ذلك انهما كانا ينتميان الىَّ ولقد أعطيانى شيئا من الاحساس بالنبل مكانا فى العالم ، ولكنى الآن احس بالعكس ، ففى هذه الحجرة التى ذهب الموظف الضئيل الحجم منها وتركنى واقفا جعلتنى هذه الصور لهذين الرجلين العظيمين احس بأننى فى قعر احدى الآبار .

وحينما عاد السكرتير الى الحجرة لاحظت انه يمشى على اطراف قدميه وانه منكفىء للامام كما لو كان أحدب ، وكنت احس بالاضطراب وانا استعيد لنفسى انطباعاتى عن الرجل حتى قام فقادنى الى المكتب الداخلى عبر باب مشترك حيث يوجد رجل اسود ممتلىء يلبس بدلة داكنة وكان من الهنود السود ويجلس خلف مكتب اسود ضخم ويفتح الظروف على مكتبه .

وأخيرا قال وهو لا ينظر الىَّ "ماذا" ؟ .

قلت له : لقد كتبت عن الالتحاق بالسلك الدبلوماسى ولدىَّ خطاب من "اجراوال" جئت لأراه .

وقال وهو لايزال يفتح ظروف الخطابات : "مستر اجراوال" ؟ .

واحسست بالسعادة ان اصبح هناك شيء يمكن النزاع حوله وقلت "يبدو أن اجراوال لا يعرف كثيرا فأرسلنى الى "ڤيرما" ، ويبدو أن "ڤيرما" لايعرف كثيرا ايضا حيث قضى وقتا طويلا مع شخص يدعى "ديڤيدى" .

وقال "ديڤيدى" ؟ .

وقلت يائسا من الاعيبه وانا احس بالتعب : ارسلنى هو اليك ، وقال لى : ولكنك قلت فى خطابك انك من افريقيا ، فكيف يمكن لك ان تلتحق بهيئتنا الدبلوماسية ؟ فكيف لنا ان نأخذ رجلا منقسم الولاء ؟ وفكرت فى نفسى : كيف تجرؤ على أن تحاضرنى عن التاريخ والولاء ايها العبد ؟ لقد دفعنا بمرارة لأناس من امثالك ، والى من يتجه ولاؤك بعيدا عن نفسك وعائلتك وطائفتك ؟ .

ثم قال : انتم كنتم تعيشون حياة طيبة فى افريقيا فلما بدأت الامور تصبح صعبة بعض الشيء تريدون الهروب ولكن عليكم أن تلقوا برهانكم كله مع الشعب المحلى .

ثم قال : حينما تصبح مواطنا هنديا فهناك الامتحانات ولقد جهزنا لها أن تتم فى احدى الجامعات هنا ، وكان يجب على مستر "ڤيرما" أن يقول لك هذا ولايبعث بك الىَّ .

خرجت بينما السكرتير الاحدب منكبا على الألة الكاتبة العتيقة ولايكتب شيئا ، كانت يداه النحيفتان كالعنكبوت تقبض على المفاتيح ، نظر الىَّ نظرة اخيرة من الرعب وكنت ارى فى هذه النظرة سؤالا آخر وهو : "هل تفهم الآن وضعى" ؟ .

وفى اثناء نزولى على السلالم تحيطنى رسومات الهند الاستعمارية رأيت مستر "ڤيرما" بعيدا عن مكتبه ومعه كثير من الاوراق لكنه بدا كما لو كان قد نسانى تماما ، ثم خرجت عبر الباب الدوار الى هواء لندن .

استغرق امتحانى فى الدبلوماسية اكثر من ساعة ، وكان الوقت بعد

الثانية عشرة متأخرا بالنسبة لتناول قهوة وقطعة من الحلوى كما ذكرتنى احدى لافتات البارات ، وطفقت امشى وانا ممتلىء بالغضب واتبعت شارع الدويتش حتى النهاية ثم عبرت الممر ونزلت الى طريق النهر .

رحت افكر وانا امشى : "لقد حان الوقت أن تعود الى الوطن ، ولم تكن مدينتنا هى التى كنت افكر فيها أو قطعة الساحل الافريقى كذلك" .

ورأيت طريقا إقليميا تحده الأشجار الظليلة الباسقة ورأيت الحقول والماشية وقرية تحت الشجر . ولم أدر من أى كتاب أو صورة حصلت على هذه الأشياء منها أو لماذا كان مثل هذا المكان قد بدا لى آمنا . وكانت ساعات الصباح والندى والزهور المتفتحة وظل الأشجار فى منتصف النهار والنيران فى المساء هى التى أحسست بأنها هى الحياة التى أعرفها وهى التى تنتظرنى ثانية فى مكان ما . وكان ذلك كله خيالا فى خيال بطبيعة الحال .

وفى أفريقيا على الساحل ركزت انتباهى على لون واحد فحسب هو لون البحر . وكل ماعدا ذلك كان مجرد لون الغابة الأخضر والملىء بالحياة أو بنى اللون وميت . وفى انجلترا حتى الآن كنت امشى وعيناى على مستوى المحلات ولا أرى شيئا . وكانت المدينة حتى لندن مجرد سلسلة من الشوارع وكان الشارع هو صف من المحلات . والآن بدأت انظر بصورة مختلفة وأدركت لندن لم تكن مجرد مكان موجود هناك كما يتحدث الناس عن الجبال ولكنها مكان صنعه الرجال وتفننوا فى صناعته حتى أدق التفاصيل .

وبدأت أدرك فى نفس الوقت ان احساسى بالهم لأنى رجل منساق مع التيار وبلا جذور هو احساس زائف ولم يكن حلمى بالنسبة لى بالوطن والأمان ليس أكثر من حلم للعزلة يتسم بالخطأ فى التاريخ والغباء والضعف الزائد . اننى انتمى إلى نفسى فحسب ولن أسلم رجولتى لأحد . وبالنسبة لواحد مثلى فإن هناك حضارة واحدة ومكانا واحدا مثل لندن أو مكانا يشبهها ، أن أى مكان آخر كان خداعا للعقل . الوطن من أجل ماذا ؟ هل هو من أجل أن أنحنى أمام رجالنا العظماء ؟ أم للاختباء ؟ وبالنسبة لأناس

في مثل وضعنا أناس أقتيدوا للعبودية فإن هذه أكبر خدعة على الاطلاق . نحن لانملك شيئا . بل نعزى أنفسنا بمجرد الفكرة الخاصة بالرجال العظام لقبيلتنا أمثال غاندى ونهرو ولكننا نخفى أنفسنا أى أننا نقول "خذ رجولتى واستثمرها لى أو خذ رجولتى وأصبح رجلا عظيما من أجلى . لا . انني اريد أن أكون رجلا بنفسى" .

وفى بعض الأوقات فى بعض الحضارات يستطيع الزعماء العظام أن يأتوا بالرجولة والفتوة إلى الشعب الذى يقوده . ولكن الأمر مختلف مع العبيد حيث لا يلام الزعماء لأنه جزء من هول الموقف . ولعله من الأفضل أن تنسحب من الموضوع برمته إذا ما استطعت وأنا استطيع . ولعلك تقول يا "ياسالم" كما أعلم أنك فترت فى هذا وأننى أعطيت ظهرى لمجتمعى وبعت كل شىء . وأن اتساءل : بعت لمن وبعت لماذا ؟ ماذا لديك لكى تعطينى ؟ وما هو نصيب أسهامك ؟ وهل تستطيع ان ترد إلى رجولتى ونخوتى ؟ وعلى أى حال فلقد كان هذا هو قرارى فى هذا الصباح وأنا بجوار النهر فى لندن بين حيوانات الدرفيل والجمال التى رسمها فنانون ماتوا وتركوا رسومهم كى تجمل مدينتهم .

حدث هذا منذ خمس سنوات مضت . وكنت دائما اتساءل عما يحدث لى لو لم أتخذ هذا القرار . اتخيل أننى كنت أسقط أو أجد ثقبا كى أحاول الاختباء أو المرور . وبعد كل شىء فإننا نضع أنفسنا وفقا لفكرتنا عن الامكانيات الخاصة بنا . وربما إختبأت فى جحرى وقد أصابنى الشلل بفعل العاطفية الخاصة بى أفعل ما كنت أفعله بجدارة ولكن دائما أحن إلى حائط المبكى . وما كان بوسعى أن أرى العالم كمكان غنى كما هو فى الواقع . وما كان بوسعك أن ترانى هنا فى افريقيا أفعل ما أفعله الآن . ما كان لى أن أريد أن أفعل هذا وربما كنت أقول : "انتهت كل شىء بالنسبة لى ولهذا ما الداعى لأن أترك نفسى ليستغلها أى واحد آخر ؟ ان الأمريكيين يريدون أن يكسبوا العالم . انها معركتهم وليست معركتى . ولكن هذا من الغباء . من الغباء ان تتحدث عن الأمريكيين . فهم ليسوا قبيلة كما يمكن أن تتخيل من الخارج . ولكنهم أفراد كلهم يحارب كى يشق طريقه ويحاولون بقوة مثلى ومثلك كى لايهبطوا للقاع .

ولم يكن الأمر سهلا بعد تخرجى من الجامعة . وكنت ماأزال أريد أن أحصل على وظيفة وكان الشىء الذى عرفته الآن هو هذه الأشياء التى لا أريدها كوظيفة كى لا أريد أن أستبدل سجنا بسجن آخر . ان الناس من أمثالى عليهم أن يصنعوا بأنفسهم الوظائف التى يريدونها . انها ليست شيئا يأتى إليك فى ظرف نبى لتنبئك بأن الوظيفة هناك تنتظر . ولكنها لا توجد بالنسبة لك أو أى شخص آخر حتى تكتشف انها لك ولك وحدك .

كنت أقوم ببعض التمثيل فى الجامعة ، بدأت بمشهد فى فيلم صغير قام به أحد الأشخاص عن شاب وفتاة يمشيان فى منتزه . ثم التحقت مع بقايا هذه الفرقة فى لندن وابتدأت أعمل فى عدة أعمال للتمثيل . وكانت لندن تزخر بالفرق التمثيلية الصغيرة التى تكتب مسرحياتها الخاصة ويحصلون على منح من الشركات والمجالس المحلية هنا وهناك . والعديد من هذه الفرق يعيش على اعانة البطالة . ولقد لعبت بعض الأدوار الانجليزية ولكن عادة ما كانوايكتبون ادوارا خاصة لى وهكذا كنت بصفتى ممثلا أجد نفسى الشخص الذى لا أريد أن أكونه فى الحياة الواقعية . ولقد مثلت دور طبيب هندى يزور أما من الطبقة العاملة وهى على وشك الموت كما لعبت دور طبيب هندى آخر أتهم بجريمة الاغتصاب كما لعبت دور محصل اتوبيس لايريد أحد أن يعمل معه . وفى احدى المرات لعبت دور "روميو" وفى مناسبة أخرى كانت هناك فكرة إعادة كتابة "تاجر البندقية" باسم "ماليندى رجل البنوك" حتى يمكننى ان ألعب دور "شيلوك" ولكن الموضوع أصبح معقدا وفشل .

كانت حياة بوهيمية لها جاذبيتها فى أول الأمر لكنها أصبحت مثيرة للغاية فيما بعد . والذى حدث أن البعض تخلى عن التمثيل وحصل على وظائف أخرى وكنت تعرف أن لهم ارتباطات قوية جدا مع الجهات . وكان هذا مخيبا للآمال وكانت تمر بى بعض الأوقات أثناء هذين العامين كنت أحس بالضياع وأجاهد بصعوبة كى استعيد لنفسى هذه الحالة التى أحسستها بجانب النهر . كنت أنا الوحيد بين كل هؤلاء المحظوظين الظرفاء الذى هو طريد عاطل . لست ألوم هؤلاء الناس فلقد فعلوا كل

مايستطيعون من أجل أن يتيحوا لى الفرصة وهو ما يعد أكثر ما يمكن أن يفعله شخص خارجى لك وهذا هو اختلاف الحضارة .

أخذنى أحد الأصدقاء فى يوم من أيام الآحاد للغداء عند أحد أصدقائه . ولم يكن هناك شىء بوهيمى فى المنزل أو الغداء اكتشفت اننى دعيت من أجل واحد من الضيوف وكان هذا الشخص أمريكيا له اهتمام بافريقيا وكان يتكلم عن افريقيا بطريقة غير عادية . يتكلم عنها كأنها طفل مريض وأنه هو أبوه . أصبحت فيما بعد قريبا جدا من هذا الشخص لكننى اثناء هذا الغداء أحسست بأنه ضايقنى مما جعلنى أكون خشنا معه . وكان هذا بسبب اننى ألتقى بمثل هذا الشخص من قبل . لديه كل هذه النقود ليصرفها على افريقيا يرد بكل جهده ان يفعل الشىء الصحيح . وكنت أعتقد ان القاء كل هذه الأموال فى الضياع هو مدعاة للحزن . لكنه كانت لديه الأفكار البسيطة للقوة العظمى عن إحياء افريقيا .

أخبرته أن افريقيا لن ينقذها أو يكسبها أحد بنشر شعر "ايفتشنكو" أو بالحديث لشعبها عن شر حائط برلين . ولم يبد عليه أنه أصيب بالدهشة . عرفت أننى دعيت الى الغداء لأقول الأشياء التى قلتها بالفعل . وهنا فهمت أن كل الأشياء التى تجعلنى بلا قوة فى العالم هى التى جعلت لى بعض القيمة وانني كنت مدعاة لاهتمام هذا الأمريكى لأننى بالضبط بلا جانب انتمى إليه .

وكان هذا هو كيف ابتدأ الموضوع . وكان هذا مدعاة لاكتشافى لكل المنظمات التى كانت تستخدم فائض الثروات فى العالم الغربى لحماية هذا العالم . وكانت الأفكار التى طرحتها بعنف أثناء هذا الغداء وبطريقة هادئة وعملية فيما بعد افكار بسيطة جدا . ولكنها تأتى من شخص مثلى أنا من افريقيا أنها بلا قيمة على الاطلاق لنوع الحرية التى قد أتت إلى افريقيا .

وكانت فكرتى هى الآتى : لقد تآمرت كل العوامل لتدفع بافريقيا السوداء الى كل اشكال الاستبداد . وكنتيجة لذلك أصبحت أفريقيا مليئة باللاجئين ومثقفى الجيل الأول . ولم تكن الحكومات الغربية تريد أن تعرف فى الوقت

الذى كانت فيه القوى الافريقية القديمة فى وضع لا تفهم فيه - انهم مازالوا يحاربون معارك قديمة . وكانت فكرتى هى نقلهم من الدول التى لا يعملون بها وارسالهم ولو لفترات قصيرة الى أجزاء القارة التى يستطيعون العمل فيها . وكان هذا التبادل القارى من أجل أن تعطى هؤلاء الرجال الأمل وأن تعطى افريقيا أنباء طيبة عن نفسها وان تقوم بداية الثورة الافريقية الحقة .

ولقد عملت هذه الفكرة عملها بصورة جميلة . وكنا نحصل كل اسبوع على دعوة من هذه الجامعة أو تلك حيث يطلبون استمرار نوع من الحياة الثقافية فيها دون التورط فى السياسة المحلية .

إننى محظوظ . أحمل العالم فى داخلى . أنت ترى يا "سالم" أن الشحاذين فى هذا العالم هم وحدهم الناس الذين يختارون . أما غيرهم فإنهم أناس يتم اختيار الجانب الخاص بهم من الخارج . اننى استطيع ان أختار . الان فالعالم مكان غنى والأمر كله يعتمد على ماتختاره منه . وتستطيع ان تكون عاطفيا وتحتضن الفكرة الخاصة بهزيمتك . وان تكون دبلوماسيا هنديا وأنت تكون دائما فى الجانب الخاسر . انها مثل العمل بالبنوك . من الغباء القيام بالعمل فى البنوك فى بلد مثل كينيا أو السودان . وكان هذا بشكل او بآخر هو مافعلته أسرتى على الساحل . ماذا تقول البنوك فى تقاريرها السنوية عن هذه الأماكن ؟ ان الكثير من الناس هم خارج القطاع النقدى . انك لن تكون "روتشيلد" فى هذه الأماكن . ان الناس من أمثال "روتشيلد" قد أصبحوا كذلك لأنهم اختاروا أوربا فى الوقت المناسب . أما اليهود الآخرون والذين كانوا على نفس القدر من الموهبة والذين ذهبوا للعمل بالبنوك فى الامبراطورية العثمانية فى تركيا أو مصر أو أى ما كان المكان هناك فلم يأتوا بشىء طيب . فلا أحد يعرف أسماءهم وهذا ما فعلناه منذ عدة قرون . لقد كنا متمسكين بفكرة الهزيمة ونسينا اننا آدميون شأننا شأن غيرنا من الناس ذلك اننا كنا نختار الجانب الخطأ . ولقد تعبت من ان أكون فى الجانب الخطأ . إننى أعرف بالضبط من أنا وأين أقف فى العالم . ولكنى الآن أريد أن أكسب وأكسب

- ١٠ -

بدأ "اندار" قصته فى نهاية هذا المساء الذى قضاه عند "رايموند" و"ايفيت" . ولقد أضاف اليه فى أوقات مختلفة تالية . بدأ قصته فى الليلة الأولى التى رأيت فيها "ايفيت" ، وكلما رأيت "ايفيت" بعد ذلك كانت فى صحبته . ولقد كانت لى متاعبى مع شخصيتها لكننى لا استطيع أن أضيق الخناق على أى منهما .

وفى عقلى كانت لدى صورتى الخاصة عن "ايفيت" ولم تتغير ابدا هذه الصورة . لكن الشخص الذى رأيته فى أوقات مختلفة من النهار وفى ظل أشكال مختلفة من الضوء والطقس وفى ظل ظروف مختلفة عن هذه التى رأيتها فيها أول مرة كان دائما شخصا جديدا ومفاجأة لى . أصبحت عصبيا فى رؤيتى لوجهها بعد أن أصبحت متسلطة على عقلى .

كما أن شخصية "اندار" بدأت تختلف بالنسبة لى . وأصبح فى عيونى حينما استمر فى سرد قصته شخصا آخر غير الشخص الذى قدم نفسه لى فى المحل منذ عدة اسابيع . لقد رأيت آنذاك فى ملابسه لندن وشكله الموحى بالتحايز . رأيت أنه يجاهد لكى يحتفظ بنمطه الخاص لكننى لم أر أن نمطه الخاص كان شيئا صنعه بنفسه . رأيت انه بشكل أوضح قد لمسته فتنة العالم العظيم ورأيت اننى بعد ان حصلت على الفرصة أن أكون ضمن عالمه فلقد لمستنى هذه الفتنة كذلك . وكنت أود فى الأيام الأولى غالبا ما ان اقول له : "ساعدنى على أن أبعد عن هذا المكان وأرنى الطريق كى أجعل نفسى مثلك أنت !!

ولكن هذا لم يعد الآن هكذا لا استطيع ان أحسد طرازه أو وسيلته

لصنع هذا الطراز . ارى ذلك على أنه رصيده الوحيد . أحسست منذ هذا المساء الذى قضياه عند "ايفيت" . هذا المساء الذى رفعنى الى أعلى والقى به الى الدرك الأسفل واننا تبادلنا الأدوار . لم أعد أراه بمثابة دليلى وانما أصبح هو الرجل الذى يحتاج ان يقاد .

ولعل هذا كان هو السبب والسر وراء نجاحه الاجتماعى الذى كنت احسده عليه . وكانت رغبتى .. والتى كانت مثل رغبة هؤلاء الناس فى لندن الذين تحدث لى عنهم والذين أوسعوا مكانا له .. هى أن أبعد من نفسه هذه العدوانية والاكتئاب التى تخنق هذه الرقة التى أعرفها فيه . وكنت محصنا ضده وضد شكلية طرازه ومبالغاته وأوهامه .. وأريد أن أبعد هذه الأشياء عن درجة الايذاء . ولقد أحزننى أنه سوف يترك المكان خلال فترة قصيرة كى يقوم باداء محاضراته فى مكان آخر . ذلك وفقا لروايته ان عمله كمحاضر يجعله غير متأكد من مستقبله فى هذا الدور مثلما كان فى الأدوار السابقة .

وكان الأصدقاء الوحيدون فى المدينة الذين قدمته لهم هما "ما هيشن" و"شوبا" . وكنت أرى أنهما الناس الوحيدون الذين قد يجدون فيه شيئا مشتركا بينهم . لكن ذلك لم ينجح ولم يتحقق فلقد كانت هناك الشكوك من الجانبين رغم ان هؤلاء الثلاثة كانوا متشابهين فى كثير من الأشياء بوصفهم مرتدين لايعنيهم غير جمالهم الشخصى متخذين من هذا الجمال الشكل الأسهل للحصول على الكرامة . وكان كل واحد منهم يرى فى الآخر أنه صورة منه وكان كل منهم "شوبا" و"ماهيشن" فى جانب و"اندار" فى جانب آخر يتشممون الزيف فى شخصية الآخر .

وفى غداء فى شقتهما فى أحد الأيام وكان غداء طيبا وبذل فيه بعض التعب من جانب "شوبا" و"ماهيشن" حيث كانت الفضة والنحاس يلمعان والستائر مسدلة لمنع ضوء الشمس واما اللمبة ذات الفروع الثلاثة فقد أضاءت السجادة الفارسية على الحائط فيما كانت "شوبا" لـ "اندار" وهى تسأله : "هل هناك أى نقود فيما تفعله ؟" رد "اندار" : "اننى أحصل على شىء من هذا" . لكنه وحينما أصبحنا فى الخارج فى ضوء

الشمس والتراب الأحمر وأنا أوصله بعربتى الى مبانى املاك الدولة أخذ يصيح فى غضب . أصدقاؤك لا يعرفون من أنا ولا ما قمت بصنعه . أنهم حتى لايعرفون أين كنت . ولم يكن "اندار" يشير الى رحلاته ولكنه يعنى انهم لم يعجبوا بأنواع المعارك التى خاضها . وقال لى "أخبرهم ان قيمتى هى التى أضفيها على نفسى . وليس هناك سبب ألا تكون خمسين الف دولار فى العام أو مائة ألف" .

وكانت هذه حالته النفسية حينما أصبح وقته فى أملاك الدولة على وشك الانتهاء . وكان سهل الاحساس بالضيق والكآبة . أما بالنسبة لى خلال هذه الأيام المتتالية فلقد بقيت املاك الدولة وكان جميل الاحتمالات . تمنيت ان تأتى ليلة أخرى مثل هذه الليلة التى قضيتها هناك حيث الجو الذى أخفته أغانى "جوان باياز" والسجاد الأفريقى على أرضية الحجرة وامرأة مثيرة فى ملابس سوداء خفيفة ورحلة الى الشلالات تحت ضوء القمر والسحاب الذى يسير . وبدا كل هذا كأنه خيال حافظت عليه فى نفسى كانت الأسرار بعيدا عن "اندار" .

أما "ايفيت" فكنت أحس بالارتباك كلما رأيتها فى الضوء الكهربائى الساخن أو ضوء النهار العادى وكان هذا الاحساس الذى تكرر مرات يجعلها مختلفة عما كنت اتذكرها به .

ومرت الأيام وانهت الفصل الدراسى فى المعهد الفنى . وجاء "اندار" ليقول وداعا بصورة مفاجئة فى أحد الأيام عصرا وكان يبدو كرجل لايريد ان يعمل ضجة كبيرة حول الوداع ولم يرد منى ان أودعه . ولقد أحسست ان املاك الدولة والحياة هناك قد أغلقت بالنسبة لى وإلى الأبد .

وكان "فيردناند" قد تقرر سفره هو أيضا الى العاصمة ليقوم بالتدريب الادارى هناك . ولقد كان "فيردناند" هو الذى قمت بتوديعه عند الباخرة حينما جاءت نهاية الفصل الدراسى . وكانت السنابل البرية تطفو على وجه النهر وفى ايام التمرد تحدثوا عن الدماء وفى العصارى الثقيلة للحرارة والضوء تحدثوا عن التجربة بلا مذاق .

ولقد وصلت الباخرة عصر اليوم السابق وكانت تجر وراءها صندل الركاب ولكنها لم تكن تحمل "زابت" وزورقها الصغير ولم يكن "فيردناند" يريد لها ان تكون هناك . وقلت لـ"زابت" ان "فيردناند" يفعل ذلك لأنه أصبح فى سن يريد معه ان يبدو مستقلا تماما . وكان هذا صحيحا لدرجة ما . ولقد كانت الرحلة الى العاصمة مهمة لـ"فيرناند" ولأنها بمثل هذه الأهمية فلقد حاول هو ان يخفف من وقعها على أمه .

رأى "فيردناند" نفسه مهما دائما . بسبب الاتجاه الجديد غير المدهش نحو نفسه والذى تهيأ له . ولقد قفز "فيرناند" عدة قرون فى وثبة واحدة بعد ما تحول من القارب الخشبى الى كابينة من الدرجة الأولى فى الباخرة ومن قرية فى الغابة الى المعهد الفنى والتدريب الادارى . ولم يكن مروره بهذه القفزات شيئا سهلا فلقد كان يرغب اثناء التمرد فى الهرب والاختفاء ولكنه تعلم منذ هذا التاريخ ان يتقبل كل جوانب نفسه وكل جوانب وطنه ولم يرفض شيئا . عرف وطنه فحسب وما اعطاه له هذا الوطن من اشياء وهو يريد ان يجعل من ذلك حقا له . وكان ذلك يبدو غرورا ولكنه كان أيضا شكلا من الراحة والقبول . ولقد ابدى هذا الاحساس بالراحة فى كل مقام وتقبل كل موقف وكان هو نفسه فى كل مكان .

وهذا ما ظهر منه فى هذا الصباح حينما جئت الى املاك الدولة لأخذه بالسيارة الى رصيف الميناء وكان التغير من مبانى املاك الدولة إلى المستعمرات السكنية التى تشبه العشش والأكواخ وما حولها من أعشاب الشعير المتناثرة وجداول القذارة والروابى العالية للقمامة كل هذا هز نفسى اكثر مما أثر فيه . وكنت أفضل وأنا معه آخذا فى اعتبارى كبرياءه أن أتجاهل هذه الأشياء لكنه هو الذى تحدث عنها ولكن ليس بطريقة النقد ولكن بوصفها جزءا من مدينته . وحينما كنا فى املاك الدولة وهو يودع الناس الذين يعرفهم كان يتعرف كمتدرب ادارى وكان معى فى العربة يحس بسعادة هادئة وكان يتسم بالصبر مثل عضو فى تجمع افريقى اخذته ضجة السوق .

وكان هناك فى هذه الأيام كثير من الموظفين معظمهم يبدو نشطا فى هذه المنطقة أيام سفر الباخرة ولم يكونوا جميعا فى ملابس الشرطة او

الجيش . وكان الرئيس قد قرر باسم والدته التى ماتت والتى كانت خادمة بالفندق والتى اطلق عليها اسم سيدة "افريقيا" فى خطبة ان يحتفى باكبر عدد من النساء وكان ان جعل منهم موظفات بالحكومة دون ان تكون لهن واجبات محددة فى معظم الأحوال .

ولقد ابدا "فيرددناند" وأنا والحمال كمجموعة ظاهرة حيث كان "فيردناند" يبدو أكثر طولا من رجال المنطقة ولقد توقفنا ست مرات بمعرفة الموظفين الذين يريدون ان يروا أوراقنا وكانت احدى المرات على يدى سيدة تلبس رداء طويلا افريقيا من القطن وتحدثت معنا بطريقة خشنة وامسكت بالتذاكر الخاصة بـ"فيردناند" وهما تذكرة السفر وتذكرة الغداء وهما مقلوبتين ثم أخذت تفحصهما وهى مقطبة الجبين !! ولم يبد على وجه "فيردناند" أى تعبير بالسخرية أو الغضب وعندما اعادت له التذاكر قال لها ، شكرا "ايتها المواطنة" مما جعل تقطيبتها تتحول الى ابتسامة . وكشف هذا عن جوهر الموضوع فى الفحص الذى تم وان المرأة كانت تريد ان تظهر لنا الاحترام وان نناديها باسم المواطنة ذلك ان المسيو والمدام والولد قد تم الغاؤها كأدوات للتخاطب بصفة رسمية واصدر الرئيس مرسوما بأن نصبح جميعا مواطنين ومواطنات وكان يردد هذا فى خطبه مرات ومرات كأنها جمل موسيقية .

وقلت لـ"فيردناند" : أظن أن هؤلاء الناس سوف يطلبون شهادة بوضعك المدنى كما كان يحدث فى الماضى قبل ان يسمح لك بالصعود الى الباخرة .

ولم يضحك "فيردناند" ذلك لم يكن يعلم شيئا عن الماضى الاستعمارى . ولم تكن ذكرياته عن العالم الكبير بدأت الا مع الأيام الغامضة حينما جاء الجنود المتمردون والغرباء الى قرية امه يبحثون عن الرجال البيض لقتلهم وقامت أمه "زابت" بطردهم ولكنهم أخذوا عددا من نساء القرية .

وكان هناك شىء بارز على طرفى سطح الباخرة وهو الكابينة الفاخرة وهذا ماكانت تقوله اللوحة المعدنية القديمة المموهة بالدهان ، فوق

الأبواب . وقال "فيردناند" ماذا تحتوى هاتين الكابينتين . وهل لنا ان نلقى نظرة ؟ ودخلنا الكابينة المظلمة كانت النوافذ مغلقة تماما وعليها ستائر كثيفة . وكان هناك حمام وكرسيين بمساند احدهما مكسور فى احد جوانبه مائدة ومعها كرسيان آخران يتأرجحان ومصباح للجدار بدون لمبة كهربية وستائر منزوعة من سرير الكابينة وجهاز تكييف . وتساءلنا من الذى له هذه الفكرة المثيرة للسخرية عن حاجاته من بين هذا الزحام الموجود فى خارج الباخرة .

وجاء صوت ازعاج من النهاية الأمامية لسطح الباخرة وكان هناك شخص يشكو عاليا باللغة الانجليزية .

وقال "فيردناند" : أظن اننى اسمع صوت صديقك" .
إنه "اندار" يحمل حملا غير عادى وكان مستغرقا فى عرقه ويملؤه الغضب . ويحمل صندوقا مسطحا ولكنه عريض جدا من الكرتون مفتوحا من أعلى ويبدو انه يستطيع الامساك به جيدا ، كان من الواضح أن الصندوق ثقيل وبداخله بعض الأغذية والزجاجات الكبيرة التى تصل الى عشرة أو إثنتى عشرة زجاجة . وبعد المشى لهذه المسافة من بوابات الرصيف وغير درجات الباخرة بدا ان "اندار" قد وصل الى نهاية جهده العضلى والجسمانى وأصبح على وشك البكاء .

وتأرجح "اندار" الى الخلف وهو يدخل الكابينة الفاخرة ورأيته وهو يلقى بصندوق الكرتون على سرير الكابينة . وبدا بعد ذلك وهو يحرك اطرافه كمن يقوم برقصة للعذاب البدنى بالخبط على الأرضية وثنى ولى ساعديه كما لو كان يريد ان يطرد التعب من كل عضلاته النائحة بالألم .

واستمر طويلا فى استعراضه هذا، كان هناك من يراقبه وليس انا الذى بدا أنه ولكن "ايفيت" وراءه ولم يكن فى حالة نفسية للاعتراف بوجودها . وكانت تحمل له حقيبة اليد . وصاح نحوها قائلا وهو يحتمى باللغة الانجليزية . الحقيبة الكبيرة هل احضرها ذلك الوغد ؟" وكانت "ايفيت" تبدو عليها آثار الاجهاد والعرق لكنها ردت عليه مطمئنة له "نعم . نعم" .

حينئذ ظهر رجل بقميص مشجر ومعه الحقيبة الكبيرة وكنت أظن انه من المسافرين .

رأيت "اندار" و"ايفيت" معا العديد من المرات ولكننى لم أرهما فى مثل هذه العلاقة الحميمة . وخطر بذهنى للحظة عابرة انهما ذاهبان مع بعضهما البعض إلى مكان بعيد . وقالت "ايفيت" بعد ان استعادت ابتسامتها واعتدلت فى وقفتها موجهة حديثها لى : "هل أنت تودع أيضا شخصا ما ؟ حينئذ ادركت ان قلقى كان غبيا" . قلت له : ظننت أنك قد أخذت الطائرة .

وقال : "انتظرنا عدة ساعات فى المطار بالأمس . وكانوا يقولون انها أتية آتية . وفى منتصف الليل اعطونا كوبا من البيرة وقالوا ان الطائرة سحبت من الخدمة - ليس مجرد أنها تأخرت ولكن هكذا سحبت واخذت كذلك . وقالوا ان الرجل الكبير أراد ان يأخذها ولايوجد من يعرف متى يعيدها . ثم قمت بشراء تذكرة الباخرة هذه هل فعلت هذا من قبل ؟ وهناك مختلف اللوائح عن متى يبيعون ومتى لايبيعون والرجل المختص غالبا غير موجود والباب اللعين مغلق دائما . وكل خمس ياردات تجد شخصا ما يريد ان يرى أوراقك وحينما حاول الرجل حساب قيمة التذكرة وملحقات الكابينة الفاخرة فانه اعاد الحساب عشرين مرة على ماكينة الجمع . عشرين مرة فهل كان ينتظر من الماكينة ان تغير رأيها ؟ ولقد أخذ ذلك مايزيد على نصف الساعة . ثم جاء بعد ذلك وشكرا لله ان ذكرتنى "ايفيت" بالطعام والماء وهو ما جعلنا نذهب لشراء حاجياتنا من السوق . وحصلنا على ست زجاجات مياه معدنية من فيشى للأيام الخمسة للرحلة وكان هذا هو كل الموجود لديهم وهكذا اتيت الى افريقيا لأشرب مياه فيشى !! وكان السعر دولارا ونصفا للزجاجة - وست زجاجات من النبيذ الأحمر هذا المشروب البرتغالى الحمضى الذى تراه هنا . ولو كنت اعرف اننى سوف أحمل كل هذا فى الصندوق لاستغنيت عن هذا كله .

كما اشترى "اندار" خمس علب سردين ، واحدة لكل يوم من ايام الرحلة وعلبتين من اللبن وعلبة من النيس كافيه والجبنة الهولندية وبعض البسكويت وكمية من الكعك بالعسل البلجيكى .

كانت كعكة العسل هى فكرة "ايڤيت"، وقالت انها مليئة بالقيمة الغذائية ، كما انها تستمر دون عطب فى الحرارة .. وقال "اندار" ان موقف الغذاء فى هذا المكان مرعب وكل شىء فى المحلات مستورد وغالى الثمن ورغم ان هناك هذه الغاية وهذه الافكار الا ان هذه المدينة مهددة بالمجاعة .

أصبحت الكابينة أكثر ازدحاما عما كانت عليه . وجاء رجل حافى القدمين وقدم نفسه على أنه كبير الخدم للكابينة الفاخرة وبعده جاء الخادم المختص بالحسابات ومعه منشفة ملقاة على إحدى كتفيه وبيده مفرش للمائدة . وازاح خادم الحسابات الخادم الأول وفرش المفرش فوق المائدة ثم خاطب "ايڤيت" :

"اننى أرى ان الجنتلمان قد احضر معه طعامه وشرابه ، ولكن ليس هناك حاجة لذلك يامدام . اننا مازلنا نطبق اللوائح القديمة . ان مياهنا نقية . ولقد عملت انا على بعض بواخر المحيطات وذهبت الى العديد من مدن العالم . وها انذا الآن بعد ما أصبحت عجوزا أعمل على هذه الباخرة الافريقية . ولكننى معتاد على المسافرين البيض واعرف طرقهم جيدا . ان الجنتلمان يجد مايخفيه يامدام ولسوف نهتم به جدا هنا . احرص على اعداد طعامه بشكل مستقل وسوف اقدمه له بيدى فى كابينته .

وكان الرجل الخادم عجوزا ويبدو انه من أصل مخلط اذ ان اباه أو أمه كان اسمر اللون ووقف الرجل بعد ان استخدم الكلمات المحرمة "مسيو ومدام" وقام بفرش المفرش على المائدة ينتظر مكافأته واعطاه "اندار" مائتى فرنك .

وقال "فيردناند" : "اعطيته كثيرا ومن ناحيته فان حسابه قد تم تسويته ولن يقوم بعمل اى شىء آخر لك" .

وبدا أن "فيردناند" كان محقا فى قوله . ذلك انه حينما نزلنا الى البار وخادم الحسابات يستند على الكاونتر وهو يشرب البيرة وتجاهلنا نحن الأربعة ، لم يقم بعمل شىء حينما طلبنا البيرة وقال البارمان "انتهى الوقت" ولو لم يكن هو يشرب البيرة ولو لم يكن هناك رجل آخر ومعه ثلاث

سيدات أنيقات يشربن البيرة ايضا على احدى الموائد لكان كلامه مقنعا . وكان البار وفى اعلاه صورة للرئيس وهو فى ملابس الزعيم ممسكا بعصاه المنحوته ومعها التميمة خاليا من اى شىء .

وقلت للبارمان : ايها المواطن وردد "فيردناند" بقوله : "ايها المواطن لدينا اجتماع والبيرة تأتى من الحجرة الخلفية . وقال "إندار" : "انك يا "فيردناند" سوف تكون دليلى" .

وكان الوقت بعد الظهر وحارا للغاية اما البار فقد امتلأ بمياه النهر المنعكس وومضات راقصة ذهبية اللون . ولقد عللتنا البيرة ونسى "اندار" آلامه وأوجاعه واستمر فى حديثه الى "فيردناند" عن مزرعة تركها الصينيون أو ابناء تايوان عند مبانى املاك الحكومة . كما استرخت أحاسيسى بالعصبية وأصبحت فى حالة من السرور ذلك اننى سوف أترك الباخرة واذهب مع "ايفيت" .

ووضع "اندار" يده على فخذ "ايفيت" وحينما استدارت اليه قال لها فى لطف : "سوف أرى ماذا استطيع ان أعمل بشأن كتاب "رايموند" . ولكنك تعرفين هؤلاء الناس فى العاصمة فانهم اذا لم يردوا على خطاباتك لأنهم لايريدون ان يردوا ان يقولوا نعم أولا . ولن يقولوا شيئا ولكننى سوف ارى" .

وكان احتضانه لها قبل ان تخرج ليس اكثر من شىء تقليدى . وكان "فيردناند" هادئا فلم يقم بالسلام باليد ولكنه اكتفى بقوله "سالم" وبالنسبة لـ"ايفيت" أكتفى بالايماءة بدلا من الانحناء .

وقفنا على الرصيف نراقب حركة الباخرة . وبعد بعض المناورات كانت السفينة قد تركت حائط الرصيف والحق بها الصندل .

ويمكن للرحيل ان يصبح مثل الهجران أو الفرار حكما على المكان والناس الذين خلفهم وراءه . وهذا هو ما حاولت ان أوطن نفسى عليه منذ اليوم الماضى حينما ظننت اننى ودعت "اندار" وبسبب اهتمامى به كنت

انظر اليه مثلما انظر الى "فيردناند" على انه الرجل المحظوظ الذى يذهب الى تجارب اكثر غنى تاركا اياى لحياتى الضئيلة فى مكان أصبح ثانية بلا أى قيمة .

لكننى لم أظن ذلك الآن وأنا واقف مع "ايفيت" على الرصيف المكشوف بعد حادثة اللقاء مع "اندار" وتوديعه مرة ثانية لحسن الحظ . وكنت أراقب الباخرة والصندل وهما يعتدلان فى خط سيرهما فى النهر البنى على خلفية المكان فى فراغ الشاطىء البعيد الذى يبدو شاحبا فى حرارة الجو وكجزء من السماء البيضاء .

- ١١ -

كانت الساعة الثانية بعد الظهر وكان من المؤذى فى مثل هذا الوقت فى الأيام المشمسة يقف الانسان فى العراء . ولم يكن عندنا كلينا أنا و"ايفيت" ما نأكله ولم نكن قد أخذنا شيئا غير البيرة المثيرة للانتفاخ ولم ترفض "ايفيت" فكرة ان نذهب لنتناول بعض الشطائر فى مكان بارد .

وكان الأسفلت الذى يعلو منطقة الرصيف رقيقا تحت الأقدام . وكانت الظلال السوداء القاسية قد انسحبت حتى حوافى المبانى وهى المبانى التى عند الرصيف منذ العصر الاستعمارى ضخمة وذات حيطان حجرية مد هونة بتراب الحديد ونوافذ خضراء طويلة لها سياج حديدى . وكانت احدى السبورات خارج المكتب المغلق للباخرة مازال عليها وقت رحيل الباخرة لكن الموظفين ذهبوا كما ذهب الزحام الذى كان موجودا خارج بوابات الرصيف . وكان السوق المحيط بالحائط الجرانيتى للنصب التذكارى المحطم قد أزيلت معالمه .. وكانت أوراق الشجر الزاهية الألوان وتشبه الريش لا تقدم ظلا حيث كانت الشمس تغرب بأشعتها دون عائق .

لم نذهب الى البار الخاص بـ"ماهيشن" تجنبا للتعقيدات ذلك أن "شوبا" لم تكن تقر علاقة الارتباط بين "ايفيت" و"اندار" ذهبنا بدلا من ذلك الى محل التيفولى الذى لم يكن بعيدا . وكان التيفولى مكانا جديدا وجزءا من الرواج المستمر فى المدينة وتملك المحل عائلة كانت تدير مطعما فى العاصمة قبل الاستقلال والآن عادوا الى هنا ليحاولوا العمل مرة ثانية بعد أن قضوا عدة سنوات فى أوربا . ولكنى لا أعرف شيئا عن الاوربيين وعادات المحلات الخاصة بهم . وكان التيفولى مخصصا للأوربيين عندنا وكان محلا للعائلات وكان يخدم الرجال ذوى العقود القصيرة الذين يعملون

فى المشروعات المختلفة فى منطقتنا مثل املاك الحكومة والمطار وجهاز المياه والمحطة الهيدروكهربية . وكان الجو فى المطعم أوربيا وكان الأفارقة يبتعدون عنه . لم يكن هناك موظفون يلبسون ساعات ذهبية واطقم ذهبية من الاقلام كما هو الحال فى محل "ماهيشن" . وحينما تكون فى التيڤولى فانك تغدو فى حالة بعيدة عن التوتر .

لكنك لاتستطيع ان تنسى اين أنت حيث ان صورة الرئيس معلقة بارتفاع ثلاثة أقدام . وكانت صور الرئيس الرسمية فى زيه الافريقى تتكاثر فى فخامتها وجودة ألوانها التى يقال انها تصنع فى اوربا . ولقد أصبحنا جميعا شعبة حتى هنا فى تيڤولى فاننا يجرى تذكيرنا بأننا فى كل الأحوال نعتمد عليه .

وكان من الطبيعى ان ترى الجرسونات فى حالة ترحيب ودية وهم يبدون نشطين فى حركتهم . ولكن ميعاد الغداء انتهى وكان الابن الطويل الممتلىء للعائلة أصحاب المحل والذى يقف خلف الكاونتر قريبا من ماكينة القهوة ليشرف على الأمور يأخذ نصيبه من نوم الظهيرة ولم يكن هناك أحد آخر من اعضاء العائلة وكان الجرسونات يقفون بلا عمل مثل الغرباء بستراتهم الزرقاء ، ولم يكونوا وقحين ولكنهم كانوا ضائعين بلا دور يقومون به .

وكان التكييف مصدرا للترحيب من جانبنا وكذلك عدم وجود الضوء الشديد وجفاف الجو بدلا من الرطوبة الزائدة فى خارج المحل . واستعادت "ايڤيت" حيويتها وبدت اقل احساسا بالضيق . ولمحنا احد الجرسونات وانى لنا بدورق من النبيذ البرتغالى الاحمر المثلج وطبقين من السالمون المدخن الاسكتلندى على خبز مقدد . وكان كل شىء فى المحل مستوردا وباهظ الثمن وكان السالمون المدخن اقل الطلبات سعرا .

قلت لـ"ايڤيت" ان انذار ممثل بعض الشىء . فهل كانت الأشياء حقيقة على هذا القدر من السوء .

وقالت "ايڤيت" انها كانت اسوأ . لقد تركنا "اندار" لكى يصرف شيكاته السياحية" .

وكانت هناك عائلة مكونة من خمسة يجلسون على مائدتين وقد أو شكلوا على الانتهاء من غدائهم انهم يتكلمون بصوت مرتفع . كانوا أناسا عاديين من تجمع العائلات الذى تعودت ان أراه فى التيڤولى . لكن "ايڤيت" لم ترض عن هذا الازعاج واحسست بأنها غاضبة بعض الشىء وقالت : "اذا كنت لا تستطيع ان تخبر عنهم فأنا استطيع" .

ورغما عن احساسها بمسحة الغضب بدا وجهها يحمل شبح ابتسامة اما عيناها المائلتان فهما نصف نائمتين فوق فنجان القهوة الذى تمسكه بحذاء فمها . ولم ادر بالتحديد سبب ضيقها بالعائلة : هل هو المكان الذى اتت منه العائلة او العمل الذى يعمله الرجل ام السلوك واللغة والصوت العالى لهم اثناء الحديث ؟ وقلت لنفسى ماذا سوف تفعل اذا زادت نوادينا الليلية .

وقلت لها : «هل تعرفين» اندار» من قبل ؟

«قابلته هنا» ثم وضعت فنجان القهوة ونظرت الى وكأنها قد قررت شيئا وقالت : «انك تعيش حياتك ثم يظهر غريب وكأنه حمل ثقيل لاتحتاج اليه لكن الحمل يصبح عادة » .

ولم تكن تجربتى مع النساء خارج عائلتى تجربة خاصة ولكنها محدودة . لم يكن لى خبرة بالتعامل مع امرأة مثل هذه ولا خبرة فى اللغة كهذه ولا خبرة بامرأة لها هذه الاشكال من المضايقات والاعتقادات . لقد رأيت مما قالته الآن شيئا من الصدق والجرأة التى بدت لرجل فى مثل تجربتى وخلفيتى شيئا مفزعا الى حد ما وساحرا لهذا السبب نفسه .

لم اكن اريد ان اجعل انا وهى من «اندار» موضوعا مشتركا ذلك انها و"اندار» قد جعلا من «رايمون» موضوعا مشتركا لهما ، وقلت لها لست أستطيع ان اصف لك مدى اعجابى بكونى فى منزلك فى هذه الليلة ولم انس قط البلوزة التى تلبسينها .. اننى اتمنى ان اراك بها مرة ثانية وبذلك الحرير الاسود المفصوص والمطرز بصورة جميلة . ولم أكن استطيع ان

المس موضوعا احسن من هذا . وقالت هى : «لم تكن هناك فرصة كذلك ولكنى اؤكد لك انه مازال هناك »

وقلت : لا اظن انه هندى الصنع ان التفصيل والشغل الذى فيه هو اوربى» .

قالت «ايفيت» : «انه من كوبنهاجن من محل «فارجرت برانت» وكان ذلك حينما ذهب «ايمنون» فى احد المؤتمرات .

وعن الباب الخاص بالتيفولى وقبل ان نخرج مرة ثانية فى الحرارة والضوء وخلال هذه اللحظة من الانتظار التى تعادل فى الاماكن الاستوائية لحظة الانتظار قبل ان نخرج الى المطر قالت «ايفيت» لى كما لو كانت خاطرا غير عابر : «هل تحب ان تأتى للغذاء فى المنزل غدا؟ سوف نستضيف احد المحاضرين ويرى «رايموند» ان مثل هذه المناسبة شيىء هام فى هذه الايام » .

الغت «ايفيت» الغداء ، لكنها لم تجعلنى اعرف ذلك . وحينما ذهبت قادنى احد الخدم الذى يلبس جاكت ابيض الى احد الغرف التى من الواضح انها لاتنتظر اى ضيوف وليست كالحجرة التى كنت اتذكرها سابقا .

ولكى ارى الحجرة على هذا النحو بينما تعيش «ايفيت» فى داخلها كل يوم ولكى اضيف معرفتى بمركز «رايموند» فى البلد كان معناه ان اراها وهى على غير استعداد وان اخذ فكرة حول حياتها الزوجية عن التوترات والاحباطات التى فى حياتها فى املاك الحكومة التى لاتزال لها رونقها فى نظرى حتى الآن . وكنت اخشى ان اتدخل فى حياتها واتمنى ان اندهش وارتاح لغياب خيالاتى عنها . ولكن الراحة والخوف استمرا حتى جاءت وكانت الدهشة بالنسبة لى هى «ايفيت» نفسها ذلك انها بدت كأنها تسلت بالموقف اكثر من ان ابدت اعتذارها عنه . لقد نسيت ولكنها كانت تعرف ان شيئا كان يتعين عليها ان تتذكره بمناسبة هذا الغذاء وذهبت بعيدا لتعد لنا بعض البيض المخفوق بطريقة جنوب افريقيا . وجاء احد الخدم ليخلى

المائدة البيضاوية من بعض الاوراق . وخطرت لى كلماتها عن «اندار» «انت تعيشن حياتك ثم يظهر غريب ويكون حملا ثقيلا » .

وعلى الرف الاعلى للمكتبة رأيت الكتاب الذى كان «اندار» قد اراني اياه في ذلك المساء والذى جاءت فيه اشارة الى «رايمون» و«ايفيت» على انهما من اكثر المضيفين كرما حينما كان فى العاصمة فى قت ما وهو ما اظهرت «ايفيت» اهتماما به . واخذت كتابا آخر ووجدت عليه توقيع «رايموند» بتاريخ ١٩٣٧ وكانت ملحوظة بملكية الكتاب وتعبيرا من جانب «رايموند» عن ايمانه فى مستقبله . وكان الكتاب قد اصابه القدم واصبح اثرا بعد عين .

قلت لـ «ايفيت» ونحن نأكل البيض المخفوق : «اريد ان اقرأ شيئا لـ«رايموند» ذلك ان «اندار» قد قال لى ان «رايموند» يعرف عن البلد اكثر مما يعرف اى شخص اخر على قيد الحياة فهل نشرت له اى كتب؟

اجابت : انه يعمل فى هذا الكتاب ومنذ عدة سنين وان الحكومة هى التى سوف تقوم بنشره ولكن تبدو الآن هناك بعض المتاعب . «اذن ليست هناك اى كتب؟».

«هناك رسالته الجامعة وقد تم نشرها فى كتاب ولكنى لا أوصى بقراءتها . ذلك انى لااستطيع ان اتحمل قراءتها وحينما قلت ذلك لـ«رايموند» قال لى انه تحمل بصعوبة كتابتها كذلك . وهناك عدة مقالات فى العديد من الصحف لكنه لم يعد لديه الوقت لها . ولكنه يقضى وقته كله فى كتاب عن تاريخ البلد » .

وقلت : «هل صحيح ان الرئيس قرأ بعض اجزاء من هذا الكتاب؟
وقالت : «انه يقال هذا» .

لكنها لم تخبرنى عن طبيعة هذه الصعوبات . وكل ما عرفته هو ان «رايموند» قد تخلى مؤقتا عن مشروع كتابه عن تاريخ البلد ليعمل فى موضوع اخر هو منتخبات من خطب الرئيس . وبدا ان غداء ناقد اصبح حزينا . وبعد ان فهمت موقف «ايفيت» فى املاك الدولة الآن وبعد ان

عرفت ان القصص الخاصة بـ«رايموند» لابد انها قد سمعت بمعرفة الآخرين غيرى حينئيذ بدأت احس ان المنزل بالنسبة لـ«ايفيت» لابد انه اصبح سجنا لها وان هذا المساء القديم الذى قدمت فيه حفلتها وهى تلبس هذه البلوزة الحريرية من صنع «مارجت برانت» كانت هى الاستثناء من ظروفها الحزينة .

قلت وانا استعد للخروج : «يجب عليك ان تأتى معى الى النادى الهللينى احد الايام بعد الظهر . يجب ان تأتى غدا . استمر الناس هنا منذ عدة سنين ورأوا كل شىء اخر شىء يريدون ان يتحدثوا فيه هو موقف البلاد» .

ابدت «ايفيت» موافقتها وقالت : «لكن يجب الا تنساهم» ولكنى لم يكن لدى فكرة عما كانت تتحدث عنه . وتركت هى الغرفة ثم عادت ومعها بعض المجلات وكان بعضها مطبوعا فى مطبعة الحكومة فى العاصمة . وكانت المجلات تضم مقالات لـ «رايموند» وهكذا اصبح «رايموند» مرة ثانية قاسما مشتركا بيننا كما كان فى البداية .

وحضرتنى كلمات «نصر الدين» القديمة : «هذه لا شىء . انها مجرد غابة» ولكن مخاوفى المزعجة لم تكن مثل هذه المخاوف الخاصة بـ«نصر الدين» ذلك انها ليست متعلقة بمستقبل عملى التجارى . لقد رأيت الاماكن الخالية لاملاك الحكومة والعاطلين من القرى الأخرى الذين يسكنون الارض هكذا بوضع اليد وكانت افكارى تدور حول «ايفيت» وحياتها فى املاك الحكومة . ولم يكن الوضع هو اوربا داخل افريقيا كما كان يبدو لى حينما كان «اندار» هناك ولكن حياة فى الغابة وكان خوفى هو فى نفس الوقت الخوف من الفشل معها وان اترك دون شىء والخوف من نتائج النجاح معها كذلك .

لكن هذا الانزعاج اختفى بعد ظهر الغد فى اليوم التالى حينما جاءت الى شقتى حيث جاءت اليها من قبل مع «اندار» . وكان لها قدر كبير من رونقها وجاذبيتها القديمة . ولقد رأيت طاولة البينج بونج ورأت ساحة المنزل الفارغة والركن الخاص بـ «ميتى» ورأت رسومات الموانىء الاوربية

التى وهبتها لى السيدة البلجيكية ومعها الاستديو الابيض وحجرة الجلوس .

وبعد ان تحدثنا عن الرسومات والنادى الهلليني وجدنا انفسنا كلينا واقفين ووراءنا هذا الحائط الأبيض وقد استدارت «ايفيت» بجانبها حينما حاولت الاقتراب منها وليس فى حركتها ما يعتبر رفضا لى او تشجيعا وانما مجرد التعب من قبول حمل جديد . وكانت هذه اللحظة كما قرأتها هى مفتاح لكل ما جاء بعد ذلك . وكان التحدى الذى رأيته حينئذ هو الذى رأيته دائما وكان تحديا لم افشل من قبل فى الاستجابة له .

وكانت خيالاتى كلها حتى الآن تحكمها خيالات الانتصار والانحطاط فى علاقتى ببيوت الدعارة والتى فيها المرأة الضحية المستجيبة والشريك فى علاقة الانحطاط الخاصة بها . وهذا هو كل ما أعرفه من بيوت الدعارة والنوادى الليلية فى مدينتنا . ولم يكن صعبا على ان اهجر هذه الاماكن حينما كان «اندار» بالقرب منى لقد تمرست بمعرفة ان هذه المناسبات للرذيلة كانت مثبطة بالنسبة لى . ولفترة ما ورغم انه كانت تثيرنى رؤية هؤلاء النساء وهن فى مجموعات فى البار او فى الحجرة الامامية لبيت الدعارة فاننى ابتعدت عن ممارسة الجنس مع النساء اللاتى يبعن انفسهن مكتفيا باشباعات اخرى مع نفسى . ولقد نما فى نفسى احساس باحتقار ما يقدمه هؤلاء النساء ولكن شأنى شأن الذين يلجأون الى بيوت الدعارة وحدها قد اصبحت احس بأننى ضعيف . وكان هيامى بـ«ايفيت» قد اخذنى بالدهشة بدت المغامرة معها «تلقائية وليست مشتراة» ، والتى بدأت فى غرفة الجلوس البيضاء تجربة جديدة جدا بالنسبة لى .

ان النساء يشكلن نصف العالم . ولقد ظننت اننى وصلت الى المرحلة التى لايدهشنى فيها ان ارى امرأة عارية . لكننى احسست الآن اننى اجرب شيئا جديدا واننى ارى امرأة لأول مرة . ولقد كنت مأخذوا لأننى رغم هيامى بـ«ايفيت» فلقد اعتبرت اشياء كثيرة امورا مسلما بها . وكان الجسد على السرير بالنسبة لى هو كشف عن شكل المرأة .

ولكى اكتب عن المناسبة باسلوب المجلات الفاضحة سوف يكون اكثر

من شيء زائف ويبدو كما لو كنت احاول ان اخذ صورا فوتوغرافية لنفسي وان اكون انا الناظر لحركاتي .

كنت مستغرقا يقظا فى نفس الوقت . فلم ارد ان افقد نفسى فى احترام الذات والاستغراق النفسى فى هذا الخيال الاعمى . بل اريد ان أفوز بمالكة هذا الجسد .. وهو الجسد الذى اراه كاملا من جراء الرغبة فى الفوز بصاحبته . لقد اصبحت طاقتى وعقلى كلاهما موجها لهذه الغاية الجديدة بالفوز بهذا الشخص . واصبحت كل اشباعاتى تسير فى هذا الاتجاه واصبح الفعل الجنسى بالنسبة لى هو شيء جديد تماما ونوع جديد من التحقق الدائم .

قالت «ايفيت» : «ذلك لم يحدث لى منذ اعوام» وكانت هذه الشهادة ـ اذا كانت صحيحة ـ مكافأة كافية لى . آه لو كانت ما تقوله صحيحا !! لم تكن لى القدرة على حساب رد فعلها واستجابتها ذلك انها كانت الشخص المجرب وانا مجرد المبتدىء .

كانت هناك مفاجأة اخرى وهى اننى لم احس بالتعب ولم تداهمنى الرغبة فى النوم فى نهاية الموضوع . وعلى العكس ففى هذه الحجرة البيضاء النوافذ والتى يتوهج بياضها بضوء ما بعد الظهر وفى هذه الحجرة الساخنة وبينما احس بالعرق الشديد الذى غمر جسمى الا اننى شعرت بأنى مفعم بالطاقة وانه بوسعى ان اذهب للعب الاسكواش فى النادى الهلليني . واحسست بالانتعاش والحيوية وكان لى جلد جديد . وكنت ممتلئا بالاحساس بالعجب لما حدث لى وكنت وانا استيقظ دقيقة بعد دقيقة من مشاعر الاشباع احس بمدى حرمانى السابق الرهيب واكتشفت جوعا هائلا لايمكن اسكاته فى نفسى .

وكانت «ايفيت» وهى مازالت عارية غير محرجة المشاعر وشعرها مسترسل وكانت قد استعادت نفسها بعد فورة الاحساس واصبحت هادئة النظرة وجلست وهى تضع ساقا على ساق على حرف السرير لتتحدث فى التليفون . تتحدث باللغة المحلية وتطلب من خادم المنزل ان يخبر «رايموند» بانها سوف تعود حالا . ثم لبست ملابسها واصلحت من شأن

السرير ثم قامت وقبل ان تترك حجرة النوم توقفت وقبلتنى فوق سطح البنطلون ثم انتهى الامر . سارت عبر المطبخ المخيف لـ«ميتى» ثم الفناء ثم ضوء ما بعد الظهيرة ثم اشجار الافنية الخلفية ثم التراب فى الهواء ودخان الطبخ ثم صوت قدمى «ايفيت» تدقان السلالم الخارجية للمنزل .

وكانت هذه الايماءة بتقبيل بنطلونى التى لاتفسر فى مكان اخر الا على انها لمسة ود من الداعرات وايماءة من عاهرة حصلت على نقود كثيرة قد اصابتنى بالحزن والشك . فهل كانت هذه الايماءة مقصودة ؟ وهل هى حقيقية هكذا ؟

وفكرت فى الذهاب الى النادى الهلينى لاستخدام الطاقة التى جاءت الى وان اعرف اكثر ولكننى لم اذهب . ومضيت ادور داخل الشقة وانا اتسلى بمرور الوقت . وبدأ الضياء يخفت ونزل على السكون وانا احس بالنعمة والتجدد ووددت انى استمر وحدى فى ظل هذا الاحساس لفترة من الوقت .

وفيما بعد وانا اتذكر العشاء ركبت عربتى الى النادى الليلى بالقرب من السد . وكان العمل فى النادى الليلى يمضى على ما يرام نظرا لحالة الرواج وتوافد الغرباء . ولكن المبنى نفسه لم يكن قد اضيف اليه شىء ومازالت له صفة مؤقتة مجرد حائط من اربع قوالب تزيد او تنقص حول مساحة من الفضاء داخل الغابة . وجلست فى الخارج تحت الاشجار فوق منطقة مرتفعة واخذت انظر الى السد الذى يغرقه الضوء حتى اتى واحد ولاحظنى ففتح النور المعلق فوق الاشجار بعد ان كنت فى الظلام وانا احس بتجدد جلدى . وكانت السيارات تأتى وتقف كما كانت هناك اللهجة الفرنسية لاوربا وافريقيا . وكانت بعض السيدات الافريقيات يأتين مثنى مثنى او ثلاثة ثلاثة فى التاكسيات قادمات من المدينة . وكانت السيدات معممات ومنتصبات العود ولكن كسالى يتحدثن بصوت عال وهم يجرجرون الشباشب على الارض العارية . كان ذلك هو الوجه الاخر لعائلة المهاجرين الذى اغضب «ايفيت» فى محل التيفولى . اما بالنسبة لى فلقد كان ذلك كله بعيدا عنى بمشاعرى هو والملهى الليلى والمدينة والشحاذون والمغتربون والموقف فى البلاد كل ذلك قد اصبح مجرد خلفية لأفكارى .

كانت المدينة حنيما شقت عربتى وانا فى طريق العودة قد استسلمت لحياة الليل . وباليل الآن وفى الشوارع التى تزداد ازدحاما يخيم جو القرية بمجموعات من الناس غير منتظمة حول الاكشاك الصغيرة لبيع الشراب فى المناطق التى تزدحم بالاكواخ ونيران الطعام فوق الارصفة ووضع الاسوار على اماكن النوم والناس الكبار فى السن من المجانين والسكارى وهم فى خرق بالية وهم مستعدون للمشاركة كالكلاب ويحملون طعامهم الى الاركان البعيدة ليأكلوا بعيدا عن العيون . وكانت فاترينات المحلات الخاصة بالملابس بسلعها الغالية المستوردة تغمرها الاضواء كاجراء احتياطى لمنع السرقة .

وفى الميدان وليس بعيدا عن الشقة كانت هناك امرأة شابة تصرخ صراخا افريقيا . وكان يجذبها الى الرصيف رجلان يمسك كلا منهما بذراع من ذراعيها ولم يفعل اى واحد من الواقفين فى الميدان اى شىء وكان الرجلان من «حرس الشباب» . وكان الضباط يحصلون على راتب من «الرجل الكبير» وقد اعطيت لهم بعض عربات «الجيب» من الحكومة . لكنهم مثل موظفى رصيف الميناء يبحثون عن شىء يعملونه وكانت هذه هى «دورية الآداب» . والواقع ان الفتاة التى تم اخراجها من البار لابد ان تكون قد ردت على اهانتها او انها لم تدفع المعلوم .

وفى الشقة وجدت النور فى حجرة «ميتى» مضاء وناديت عليه قائلا «ميتى» ورد على من داخل الباب «سيدى» . وتوقف عن ندائى باسمى «سالم» ولم نعد نلتقى انا وهو خارج المحل كثيرا منذ فترة من الوقت . احسست بان هناك شيئا من الحزن فى صوته وحينما ذهبت إلى حجرتى الخاصة وانا اتذكر مدى حظى قلت فى نفسى يالـ«ميتى» المسكين . كيف ستنتهى الامور بالنسبة له . انه ودود للغاية لكنه فى نهاية المطاف دائما بدون اصدقاء . كان من الافضل له ان يظل فى الساحل فلقد كان له مكان هناك حيث يوجد ادميون من امثاله لكنه هنا ضائع تماما .

تحدثت الى «ايفيت» فى التليفون صباحا وكانت هذه هى اول مرة تتحدث فيها بالتليفون . لم تنطق باسمى او اسمها اثناء المكالمة . قالت : «هل ستكون بالشقة اثناء الغداء ؟» كنت نادرا ما اتناول غدائى بالمنزل فى

أيام الاسبوع قلت : نعم فقالت هى «سوف اراك هناك» وكان هذا هو كل الحديث .

لم تتح لى اى تمهل او صمت ولم تعطنى اى وقت للأندهاش . وانتظرتها فى الحجرة البيضاء بعد الثانية عشرة بقليل وكنت اقف بجوار طاولة البينج بونج اقلب فى احدى المجلات وانا لا احس بالدهشة . احسست بان المناسبة هى مجرد استمرار لشىء كنت اعيش معه زمنا طويلا .

سمعت دقات قدميها المسرعتين على السلالم التى نزلت عليها عصر امس . ولم اتحرك بدافع اى شكل من اشكال الوجبية وكان الباب عمومى مفتوحا وباب حجرة الجلوس مفتوحا ايضا وكانت خطواتها نشطة رشيقة غير متعثرة . وكنت فى قمة الابتهاج لرؤيتها وانا احس بالراحة القصوى لذلك . ورغم الرشاقة فى سلوكها بدا ذلك واضحا على وجهها «انها لمتكن تبتسم . وكانت عيناها جادتين وبهما وميض مزعج يدعو للتحدى وينم عن الجشع .

قالت : «كنت افكر فيك طيلة فترة الصباح ولم استطع ان ابعدك عن عقلى «وبدا انها دخلت حجرة الجلوس لتتركها وكأن وصولها للشقة كان استمرارا للمكالمة المباشرة منها فى التليفون ولم تترك لنا اى وقت للكلام ومضت الى حجرة النوم وبدأت تخلع ملابسها .

وكان الامر كما كان معى من قبل وانا ارى مواجهتها حينئذ ابعدت كل خيالاتى واستجاب جسدى لكل دوافعه الجديدة واكتشف فى نفسه مصادر لتلبية حاجاتى الجديدة . وكانت كلمة جديدة هى الكلمة الصحيحة رغم انى الفت بجسدى الحدث وكانت استجابتى الجسدية تتطلب الخشونة والسيطرة والنعومة فى وقت واحد . واحسست فى النهاية التى اردت لها ان تكون كما اردت لما سبقها بالحيوية والانتعاش كما احسست باننى اخذت لعالم من السحر يفوق ما احسست به بالامس .

احسست بالانزعاج لأول مرة بشأن نفسى وبداية الانهيار بالنسبة للرجل الذى اعرفه فى نفسى وبدت لى رؤى الشحاذة والشيخوخة تدب فى عقلى ان الرجل الذى ليس هو من افريقيا قد ضاع فى افريقيا ، ولم تعد لديه القوة او الهدف اكثر مما يحس به فى كل الامور السكارى الجائعون

فى ملابسهم الرثة والذين يتسكعون حول الميدان ينظرون الى اكشاك الغذاء ويتوسلون الى جرعة من البيرة وذلك بالاضافة الى البلطجية الصغار من اماكن الاكواخ فى المدينة وهم يلبسون قمصانا طبعت عليها صور الرجل الكبير . وكان هذا النوع من الشباب يتحدث عن الاجانب والربح وهم يطلبون المال لاغير (مثل فيرديناند واصدقائه ايام الليسيه الماضية) وكانوا يأتون الى المحلات ويساومون بصورة عدوانية على سلع لايريدونها بالفعل وهم يصرون على سعر التكلفة لهذه السلع .

دفعنى هذا الاحساس بالخطر بشأن نفسى وهو مبالغ فيه لأنه جاء الىّ لأول مرة الاحساس بالغضب من «ميتى» الذى احسست نحوه ليلة امس بالشفقة ثم عدت وتذكرت ان الامر لم يكن غلطة «ميتى» ذلك انه كان فى الجمارك يخلص على بعض السلع التى كانت قد وصلت بالباخرة التى اخذت كلا من «إندار» و«فيرديناند» بعيدا ومازال امامها يوم لتصل الى العاصمة .

الفصل الثالث

الرجل الكبير

■ ١٢ ■

فكرت كثيرا حول المصادفة التى جعلتنى ارى «ايفيت» للمرة الاولى فى هذا المساء فى منزلها فى مثل هذا الجو الاوربى داخل افريقيا وحينما كانت تلبس بلوزتها السوداء من محل مارجريت برانت والاضواء الموضوعة على الارض تحتويها مما اثار فى نفسى مع صوت «جوان بايان» كل اشكال الاحساس بالحزين .

وربما لو ان هناك خلفية اخرى وفى وقت اخر لما كان لها ان تترك هذا الانطباع على نفسى . وربما لو قرأت مقالات «رايموند» فى نفس اليوم الذى اعطتهم لى «ايفيت» لما حدث بيننا فى عصر اليوم التالى حينما جاءت للشقة . وربما كان ذلك سببا فى الا تعطينى بروفيل وجهها على خلفية الحائط الأبيض لحجرة الاستوديو وربما كنا قد ذهبنا إلى النادى الهللينى بدلا من ذلك . اصابتنى رؤية منزلها فى ضوء النهار فى منتصف اليوم بشىء من الانزعاج . ولقد كان فهم «رايموند» بصورة افضل وبصورة مباشرة بعد ذلك جعلنى اراها بصورة اكثر وضوحا وبخاصة طموحها وحكمها الخاطىء وسقوطها .

وما كان سقوط مثل هذا يجعلنى اختار ان اتورط . ومع ذلك كانت رغبتى فى المغامرة مع «ايفيت» تؤخذ الى عنان السماء لتأخذ مكانها وحدها داخل حياتى وجمودها والتوتر غير المعروف والذى بلا غاية والموقف فى البلاد . ولم تكن رغبة فى التورط مع اناس واقعين فى فخ مثلى .

ولكن هذا هو ما أنا فيه الآن وليس مفتوحا امامى باب الانسحاب . وكنت بعد عصر اليوم الاول حين اكتشافى لها مملوكا لـ«ايفيت» مملوكا لهذا الشخص الذى لم اكف عن الرغبة فى الفوز يه . ولم يحل الاشباع اى شىء ولكنه فتح فراغا جديدا وحاجة جديدة .

تغيرت المدينة بالنسبة لى واصبح لى روابط جديدة اصبحت لى ذكريات مختلفة وحالات نفسية مرتبطة بأماكن واوقات بالنهار وتغيرات الجو .

وفى درج مكتبى فى المحل كانت مجلات «رايموند» قد بقيت منسية لمدة يومين ، هناك الآن صور لـ «ايفيت» بعض هذه الصور قديم جدا ولابد دانها غالية بالنسبة لها . وكانت هذه الصور هداياها الىّ قدمت فى اوقات مختلفة كجوائز وشواهد على الرقة . وعلى الرغم من الاساليب الجسدية الفاسدة التى اصبحت عواطفنا تأخذ شكلها فلقد كانت الصور التى فضلتها هى الصور الاكثر نقاء وبراءة . وكنت اميل كثيرا إلى هذه الصور حينما كانت «ايفيت» فتاة فى بلجيكا وكان المستقبل امامها غامضا .

وبعدما اصبحت هذه الصور فى مكتبى اصبح المنظر من المحل له رؤية مختلفة وفيها الميدان والاشجار المتسخة واكشاك السوق والقرويون الجوالين والطرق غير المرصوفة التى تبدو متربة فى النهار والشمس محمرة اثناء المطر . واصبحت المدينة المحطمة والتى احسست بأننى فيها محايد امكنة جاءت الىّ جميعها .

ومع هذا فلقد نما لدى نوع جديد من الاهتمام السياسى والذى اصبح تقريبا نلقا سياسيا . ولقد كان فى استطاعتى ان اعيش بدون ذلك الا أن هذا لم يكن امرا ممكن التجنب فيه .

ومن خلال «ايفيت» اصبحت مرتبطا بـ«رايموند» ومن خلال «رايموند» اصبحت مرتبطا وبشكل وثيق اكثر من اى وقت مضى بحقيقة او معرفة قوة الرئيس . ولأنى ارى حور الرئيس فى كل مكان فلقد جعلنى ذلك احس بأننا سواء كنا افريقيين اولا اصبحنا شعبة . ولقد اضيف الى هذا الآن وبسبب «رايموند» الاحساس بأننا نعتمد على الرئيس وانه ايا كانت الوظيفة التى

نفعلها ومهما كانت فكرتنا اننا نعمل من اجل انفسنا فالحقيقة اننا جميعا نخدم الرئيس .

ومنذ هذه اللحظة القصيرة حينما صدقت ان «رايموند» كما وصفه «اندار» هو الرجل الابيض الخاص بالرجل الكبير اصبحت احس بالانفعال والبهجة بسبب قربى من اعلى سلطة فى البلد . احسست بأننى قد اخذت عاليا فوق البلد الذى اعرفه واعرف همومه اليومية واكوام القمامة التى اصبحت كالجبال والطرق السيئة والموظفين المتعبين ومدن الاكواخ والناس الذين يأتون كل يوم من الغابة ولايجدون شيئا يعملونه ولايجدون سوى القليل الذى يأكلونه ثم الشكر وحوادث القتل السريع والمحل الخاص بى كذلك . ان السلطة والحياة بالقرب من الرئيس فى العاصمة قد بدت لى هى الشىء الحقيقى واللازم للبلد .

عندما فهمت مكان «رايموند» ارتفع شأن الرئيس مرة ثانية واصبح عاليا مؤقتا . ولكن الآن بقيت هناك رابطة معه وهى معنى السلطة الخاصة به كشىء شخصى والذى كنا نحن مرتبطين به كما لو كنا بخيوط يمكن له ان يشدها أو يتركها تقع .

وشأننا شأن غيرنا من المغتربين الأخرين فى المدينة فلقد فعلت ما كان منتظرا منى أن افعله حيث نقوم بتعليق الصور الرسمية فى محلاتنا ومكاتبنا واسهمنا ماليا فى الصناديق المختلفة التابعة للرئيس . لكننا حاولنا ان نجعل من كل هذا كخلفية متفصلة عن حياتنا الخاصة . وعلى سبيل المثال فاننا فى النادى الهللينى لم نتكلم فى السياسة المحلية رغم انه لم يكن هناك ما يمنع هذا .

لكن الآن انغمست فى السياسة من خلال «رايموند» و «ايفيت» وبعد فهمى لكل مغزى وراء كل صورة رسمية وكل تمثال للسيدة العذراء الافريقية وطفلها فانى لم اعد استطيع ان اعتبر هذه الصور والتماثيل مجرد خلفية فحسب . وربما قيل لى ان الآلاف مدينون فى اوروبا لمن يطبعون

هذه الصور ولكن لكى تفهم قصد الرئيس من هذا هو ان تتأثر به . ويمكن للزائر ان يضحك مستهزئا من هذه السيدة العذراء الافريقية لكننى لا افعل مثله .

وبالنسبة للاخبار الخاصة بكتاب «رايموند» عن تاريخ البلد فإنها سيئة حيث لم تكن هناك اية اخبار . ولم يكتب «اندار» رغم وعده بتقصى الاحوال عن مصير الكتاب (والذى كان لمسة وداع فوق فخذ «ايفيت» فوق الباخرة) ولم يعزى «ايفيت» ان تسمع ان «اندار» لم يكتب لى كذلك وانه رجل ذو مشاكل كبيرة خاصة به . ولم تكن «ايفيت» مهمومة بشأن «اندار» لكنها كانت تريد اخبارا وكانت بعد رحيل «اندار» بزمن طويل تريد ان تسمع كلمة من العاصمة .

وفى الوقت نفسه انتهى «رايموند» من عمله الخاص بخطب الرئيس وعاد بعد ذلك الى كتابه عن التاريخ . وكان «رايموند» موفقا فى اخفاء قلقه واحساسه بخيبة الأمل . ولكن هذه المشاعر كانت منعكسة بوضوح على «ايفيت» وحينما كانت تأتى للشقة فانها تبدو اكبر من سنها بأعوام وكانت كمية من اللحم قد بدأت تتشكل اسفل الذقن وكانت تبدو جلية التجاعيد حول العينين .

يالها من فتاة مسكينة ان هذا الذى يحدث لها لم يكن ما كانت تتوقعه من حياتها مع «رايموند» كانت طالبة تدرس فى اسيا واوربا حينما التقت معه وكان هو قد ذهب الى هناك مع وفد رسمى . كان دوره كمستشار للرجل الذى اصبح منذ فترة قصيرة رئيسا للبلاد موضوعا سريا لكن قيمته وارتفاع شأنه اصبحت معروفة للجميع ودعى للمحاضرة فى الجامعة التى كانت فيها «ايفيت» .

راحت تكتب رسالة حول فكرة العبودية فى الكتابات الفرنسية بالاهتمام الذى أبداه «رايموند» نحوها كان «رايموند» متزوجا من قبل وطلق زوجته قبل عدة سنوات من الاستقلال حينما كان مدرسا ثم عادت زوجته وابنته الى اوربا .

وقالت «ايفيت» : يقولون ان الرجل يجب ان ينظروا الى ام البنت التى ينوون الزواج منها . ولكن تستطيع ان تتخيل كيف ان مثل هذا الرجل الانيق والمتميز وهو «رايموند» قام بأخذى إلى العشاء للمرة الاولى فى واحد من اغلى الاماكن . فعل ذلك وهو غائب عن الوعى تماما ، لكنه كان يعرف نوع العائلة التى اتيت منها . يعرف ما يفعله وانفق «رايموند» على هذا العشاء اكثر مما كان ابى يكسب فى اسبوع كامل . كنت اعرف ان النقود هى من مصروفات الوفد الذى كان «رايموند» يتبعه ولكن هذا لم يكن يهم . ان النساء غبيات ولولا انهن غبيات لما دارت الدنيا والحياة .

«ويجب علىّ ان اقول انه شيىء ساحر حينما خرجنا سويا وحينما دعانا الرئيس الى العشاء بانتظام وكنت اجلس على يمينه فى المرات الاولى ، كان يقول انه لايستطيع ان يفعل اقل من هذا بالنسبة لزوجة معلمه ولم يكن هذا صحيحا لأن «رايموند» لم يكن مدرسا له ابدا وكان هذا التصريح من اجل الصحافة الاوربية . وكان الرئيس ساحرا بصورة غير عادية ولم تكن هناك أى اشارة إلى أى هراء . واضافت : وكانت المرة الاولى للحديث بيننا هى عن المائدة بالتحديد . وكانت مصنوعة من خشب محلى ومنقوشة برسومات افريقية حول اطرافها . وقال الرئيس : ان الافارقة لديهم مهارات هائلة كنحاتين للخشب وان البلد تستطيع ان تمد العالم كمله بموبيليات ذات مستوي عظيم . وكان ذلك مثل الحديث القريب عن منتزه صناعى على شاطىء النهر هو مجرد فكرة للحديث عنها . لكننى كنت جديدة فى هذا الوقت وكنت اريد ان اصدق كل ما يقال إلرى .

وكانت هناك دائما الكاميرات . وكان دائما يأخذ الاوضاع للقطات الكاميرا وانت تعرف هذا ، كان ذلك يجعل الحديث صعبا . ولم يسترح ابدا وانما دائما يقود الحديث بنفسه . ولم يدعك تبدأ ابدا فى الحديث عن موضوع جديد فكان ببساطة يستدير بعيدا . هذا هو اتيكيت العظمة الخاصة به التى تعلمها وانا تعلمتها منه »

« وكنا كثيرا ما نخرج معه فى جولاته . ونظهر فى الخلفة فى بعض الصور الرسمية القديمة على اننا بيض فى خلفية الصورة . لاحظت ان

ثيابه تتغير لكنى ظننت انها طريقته فى لبس ملابس مريحة وبخاصة هذه الملابس ذات الطراز الأفريقى . وكنا فى كل مكان نذهب اليه نرى الترحيب والرقصات القبلية . وكان يحرص على ذلك ويقول انه يريد ان يعطى القيمة والكبرياء لهذه الرقصات التى اهانتها هوليوود والغرب عموما وكان ينوى بناء المسارح لها . كنت قد تورطت فى بعض المتاعب فى احدى هذه الحفلات الراقصة الافريقية لاستقبال الرئيس وذلك عندما وضع عصاه على الارض ولم اكُن اعرف ان لذلك معناه . ولم اعرف اننى يجب على ان اكف عن الحديث وكان معنى ان اتكلم والعصا على الارض بالنسبة للايام الاولى للزعماء هو ان يتم ضربى حتى الموت .

كنت قريبة منه وقلت كلمة تافهة تماما عن مهارة الرافضين . ولم يفعل غير ان زم شفيته فى غضب ورفع رأسه ونظر بعيدا . لمن يكن هناك اى طبيعة مسرحية لما فعله . وكان الافارقة كلهم قد اصيبوا بالفزع لما فعلته . احسست ان الخداع المسرحى تحول إلى امر فظيع واننى جئت الى مكان مفزع .

وبعد هذا لم أستطع ان اظهر معه فى مكان عام ولكن هذا ليس السبب فى قطيعته مع «رايموند» والحق انه كان اكثر ودا مع «رايموند» بعد ذلك . ولكنه قطع علاقته مع «رايموند» حينما قرر انه لن يحتاج اليه وكان هذا جزء من اتجاهه الجديد نحو الرجل الابيض الذى اصبح مصدرا لاحراجه فى العاصمة . اما بالنسبة لى فلم يتحدث إلى على الاطلاق لكنه كان يبعث بتحياته الى واحيانا يرسل موظفا رسميا للسؤال عن كيفية حياتى واحوالى . كان يحتاج الى نموج يحتذيه فى كل شىء وانا اعتقد انه سمع عن «ديجول» كان يتعود ارسال التحيات الشخصية الى زوجات اعدائه السياسيين .

ولهذا اظن انه لو كان «اندار» قام ببعض الاستفسارات عن كتاب «رايموند» فى العاصمة لكانت هذه الاستفسارات قد بلغت الرئيس ، ذلك ان كل شىء يجرى ابلاغه اليه ذلك ان المكان هو احتفال رجل واحد كما تعرف . وكنت اتوقع ان تصلنى عبارات غير لائقة لكنه طوال هذه الشهور لم يرسل لى تحياته » .

ولقد تعذبت «ايفيت» اكثر من «رايموند» ذلك انها كانت فى بلد مازال غريبا عليها وكانت هى معلقة ومعتمدة على الاخرين . اما «رايموند» فلقد كان فى مكان اصبح هو وطنه وبيته . وكان فى موقف عاشه من قبل حينما كان مدرسا مجهولا فى العاصمة الاستعمارية . وربما عاد هو الى شخصيته القديمة واحساسه بالكبرياء الذى توصل اليه كمدرس وكرجل يعرف قيمته بطريقة هادئة ومليئة بالتحدى . ولقد احسست بان «رايموند» يتبع بشكل واع نمطا فى السلوك قد ابتدعه لنفسه وهو ما اعطاه الاحساس بالصفاء .

منعه هذا النمط السلوكى من التعبير عن خيبة الامل او الحسد وفى هذا فلقد كان مختلفا عن الرجال الشبان الذين يستمرون فى الذهاب الى املاك الدولة ويزورونه ويستمعون اليه .

ومازال «رايموند» له وظيفته الكبيرة ، ومازال لديه هذه الصناديق من الاوراق التى يبغى الكثير من الناس ان يعرفونها ، وبعد كل هذه السنوات كان الرجل الابيض الخاص بالرجل الكبير وكل هذه السنوات بوصفه الرجل الذى يعرف عن البلد اكثر من اى شخص اخر ، فان «رايموند» مازال يتمتع بسمعة واسعة النطاق .

فهمت من احد زوارنا فى إحدى الأمسيات ان «رايموند» قدم طلبا للعمل فى الولايات المتحدة وان طلبه رفض . وكان الزائر رجل ذو لحية وعينان تفيضان بالوضاعة وعدم الثقة فيهما يتحدث كرجل فى صف «رايموند» كان يحاول كذلك ان يكون متأففا لصالح «رايموند» جعلنى ذلك احس انه ربما كان واحدا من هؤلاء الدارسين الذين حدثنى عنهم «ايفيت» والذين يحاولون ان يقرأوا فى اوراق «رايموند» واخذ الفرصة ايضا للمرور عليها كذلك .

ويقول هذا الرجل الملتحى ان الوقت قد تغير منذ السنوات الاولى فى الستينيات وان المتخصصين فى افريقيا لم يعودوا قلة كما كانوا وان الذين اعطوا حياتهم للقارة تم نسيانهم . ولقد وافقت الدول الكبرى فى الوقت الراهن على الاقل الا يتصارعوا على افريقيا واختلفت الاتجاهات نحو افريقيا كنتيجية لذلك . اصبح الناس الذين قالوا ان هذا العقد هو عقد افريقيا هم انفسهم الذين زحفوا للتسلق عند رجال افريقيا العظام ثم اعلنوا يأسهم الآن من القارة .

ورفعت «ايفيت» معصمها ونظرت الى ساعتها باهتمام ثم قالت فيما يمكن اعتباره مقاطعة للحديث ان العقد الافريقى انتهى منذ عشر ثوان . قامت بعمل مثل هذا من قبل حينما كان هناك من يتحدث عن عقد افريقيا وجازت اللعبة مرة ثانية ، وابتسمت هى وضحكنا انا «ورايموند» واخذ الرجل الملتحى هذه اللمحة وترك موضوع الطلب المرفوض دون تعليق .

لكننى احسست باليأس بما سمعته وسألت «ايفيت» حينما جاءت المرة الثانية إلى الشقة : «لكنك لم تقولى لى انك تفكرين فى الرحيل » .

وقالت «الا تفكر انت فى الرحيل؟ ؟

«فى نهاية المطاف . نعم»

« فى نهاية المطاف سوف نرحل جميعا . ان حياتك قد استقرت . وانت من الناحية العملية خطبت ابنة ذلك الرجل كما قلت لى وكل شىء مازال فى انتظارك . لكن حياتى مازالت رجراجة ويتعين على ان اعمل شيئا لأننى لا استطيع البقاء هنا» .

«ولماذا الحديث عن شىء تعرف انه لن يحدث . وانه لاينفعنا بأى صورة لو صار معروفا . هل تعرف ان «رايموند» ليست له الفرصة الآن فى الخارج بأى شكل ؟

«اذن لماذا قدم الطلب؟»

«انا دفعته لذلك لاننى كنت اظن ان هناك امكانية ولايفعل «رايموند» شيئا من هذا القبيل وحده انه مخلص .

اعطى قرب «رايموند» من الرئيس بعض الشهرة وجعل الناس يطلبونه فى المؤتمرات فى العديد من مناطق العالم ـ الى انه قد استبعد الآن من اى اقرار جاد لحالته فى الخارج . وما لم يحدث شىء غير عادى فسوف يتعين عليه ان يستمر فى المكان الذى يشغله وحيث يكون معتمدا على سلطة الرئيس .

وكان مركزه فى املاك الدولة يتطلب منه ان يظهر السلطة لكنه فى المقابل من الممكن ان يجرد فى اى لحظة من هذه السلطة ليصبح لاشىء وبدون اى شىء يستند عليه . ولو كنت فى مكانه فاننى لن افكر اننى

استطيع ان ادعى ان لى اية سلطة رغم ان هذا سوف يكون من اصعب الاشياء بالنسبة لى .

لكن «رايموند» لم يظهر اى درجة من الاهتزاز وكان مخلصا للرئيس ولنفسه ولافكاره ولعمله وماضيه على السواء . ولقد تنامى احساسى بالاعجاب به ودرست خطب الرئيس من المجلات والصحف اليومية التى يتوالى ارسالها من العاصمة وكان ذلك شاهدا على ان «رايموند» ربما يعود للحظوة عند الرئيس مرة ثانية . واذا ما اصبحت انا مشجع «رايموند» بعد ايفيت» واذا ما كانت قد روجت لصورته حتى فى النادى الهللينى بوصفه الرجل الذى يعرف حقا رغم انه لم ينشر كثيرا وبوصفه الرجل الذى يتعين على كل زائر ذكى ان يزوره ويراه فان ذلك لم يكن لاننى لا اريد له ان يذهب ومعه «ايفيت» ولكننى ارده ان يهان . لقد اعجبت بقوانين سلوكه وشخصيته وتمنيت ان يأتى الوقت الذى قد اصبح فيه انا قادرا على ان يكون لى مثل ذلك .

اصبحت الحياة فى مدينتنا لها طبيعة مستبدة جدا . رأت «ايفيت» ان حياتى مستقرة وان كل شىء ينتظرنى فى مكان ما فى الوقت الذى كانت ترى فيه حياتها رجراجة . كانت تحس بانها ليست جاهزة مثل بقيتنا وانه يتعين عليها ان تبحث عن نفسها . ولكن فى المدينة حيث يكون كل شىء له طابع الاستبداد والقانون هو ما يكون فان حياتنا جميعا تصبح غير مستقرة وليس هناك بالنسبة لنا جميعا اية تأكيدات من اى نوع . وبدون ان نعرف دائما ما نقوم بفعله فاننا دائمى المواءمة مع الاستبداد فى الظروف المحيطة بنا وفى النهاية فاننا لانستطيع ان نقول اين نقف نحن .

ومع «ايفيت» ومع «رايڤيت» و«رايموند» معا قد استطعت ان اكتسب حياة عائلية : العاطفة ولوازمها فى الشقة الخاصة بى والأمسية العائلية الهادئة فى المنزل فى أملاك الدولة عن «ايفيت» و «رايموند» .

كانت «ايفيت» هى التى اقترحت بعد ظهر أحد الايام فى الشقة انه يجب على أن اتناول طعام العشاء معهما فى المنزل . فعلت ذلك بدافع الحب واهتمامها بانى سوف اقضى المساء وحين اولم تكن ترى ان هناك آية مشكلات . وكنت مضطرب الاعصاب فلم اكن اظن انه سوف يكون بوسعى

ان اواجه «رايموند» فى منزله بعد لقائى مع زوجته فى شقتى بوقت قصير . ولكن «رايموند» كان فى مكتبته حينما وصلت وبقى حيث كان حتى حان وقت الطعام واختفى احساسى بالعصبية فى احساسى الجديد بالاثارة وانا ارى «ايفيت» التى وقفت عارية امامى منذ وقت قصير وقد افسدها الاحساس باللذة تبدو فى هيئة الزوجة فى منزلها مرة أخرى .

جلست فى حجرة الجلوس واما هى راحت تأتى وتذهب وكانت هذه اللحظات بالغة اللذة بالنسبة لى . كنت احس بالاثارة من كل حركاتها كربة بيت كما احببت ملابسها البسيطة العادية . وكانت تحركاتها فى منزلها اكثر خفة واكثر ثقة وكانت لغتها الفرنسية مع «رايموند» على مائدة الطعام اكثر دقة . وبعدما زال كل احساس القلق ظللت استمع الى «رايموند» كان هناك شعور باللذة ان ارى نفسى وقد ابعدت عن «ايفيت» كما أراها كغريبة وان اعود فانظر الى هذه الغريبة على انها هى المرأة الاخرى التى اعرفها بهذه الحميمية .

رحت اطلب منها الذهاب بالعربة إلى شقتى ولم تكن هناك حاجة لازمة لاختراع حيلة للذهاب فلقد كان «رايموند» يعود فورا إلى مكتبه بعد الأكل مباشرة .

وكانت «ايفيت» تظن اننى أريد ان نطوف بالعربة بعض الوقت لكنها حينما فهمت ما يدور بعقلى صاحت بقوة وتبدى وجهها الذى كان يشبه القناع اثناء مائدة العشاء وقد اعتلته احاسيس اللذة . وظلت طوال الطريق إلى الشقة على وشك الضحك اندهشت برد فعلها حيث اننى لم أرها بمثل هذه البساطة والابتهاج والراحة .

وكانت «ايفيت» تعرف انها جذابة للرجال ولقد نقل الاساتذة الزائرون هذا المعنى الى الخارج . ولكن ان تكون مرغوبة ومادة للحاجة مرة ثانية بعد كل ما حدث اثناء الفترة الطويلة لما بعد الظهيرة فلقد لمسها هذا بطريقة لم تلمسها من قبل . وكانت سعيدة معى وسعيدة بصورة عبثية مع نفسها وكانت تبدو حسنة العشرة معى حتى انها كانت تبدو لى كصديقه فى مدرسة وليست معشوقة .

وحاولت ان اضع نفسى فى مكانها وكانت لى الاوهام عن دخولى لفترة ما إلى جسمها وعقلها وفهم سعادتها وفكرت حينئذ فى انى افهم حياتها واننى اصبحت لدى فكرة عن حاجاتها واواجه حرمانها .

حضر «ميتى» إلى الشقة . وكنت فى الايام الماضية اتباعا لنمط سلوكى القديم احاول ان ابذل الجهد كى اجعل هذا الجزء من حياتى سرا بعيدا عنه أو على الاقل احاول ان اظهر ذلك . ولكن الآن لم تعد السرية ممكنة ولم تعد مهمة كذلك ، ولم نعد انا و «ايفيت» نهتم بوجود «ميتى» فى الشقة بعد هذا .

كان زوار «رايموند» قد اصبحوا اكثر ميلا للنقد . وكان لديهم الكثير ليقولونه عن عبادة «السيدة العذراء الافريقية» . وكانت الاضرحة تقام فى العديد من الاماكن مرتبطة بأم الرئيس ، اما بالنسبة لرحلات الحج الى هذه الاماكن فقد تم اصدار القرارات بشأنها لعدة ايام . كنا نعرف الموضوع الخاص بهذه العبادة لكننا لم نر شيئا كثيرا بشأنها فى منطقتنا . وكانت ام الرئيس قد جاءت من إحدى القبائل الصغيرة فى اسفل النهر بعيدا عن مدينتنا ولم يكن هناك عندنا سوى عدة تماثيل قليلة على النمط الشبيه بالافريقى وبعض الصور للأضرحة والمواكب . لكن الزوار الذين يذهبون إلى العاصمة كان لديهم الكثير للتحدث عنه وكان من السهل عليهم كغرباء ان يكونوا ساخرين .

وكان هؤلاء الزوار يدمجون كلا من رايموند» و «ايفيت» وبعض الناس من امثالى فى سخريتهم . وبدا يظهر اننا فى عيونهم لسنا من افريقيا ولكننا سمحنا لأنفسنا ان نكون أفارقة لنقبل نتيجة لذلك كل ما يقرر لنا .

وبعد شهر تقريبا ارتفعت معنويات «رايموند» و «ايفيت» . حيث قامت «المرأة» بابلاغى ان هناك اسبابا لدى «رايموند» تجعله يعتقد ان المختارات من خطب الرئيس التى اعدها قد وجدت تقديرا فى العاصمة . ابتهجت لهذه الاخبار . كان مدعاة للسخرية اننى وجدت نفسى انظر بطريقة مختلفة إلى صور الرئيس بعد ذلك . ورغم انه لم ترد لـ «رايموند» كلمة مباشرة من العاصمة الا انه عاد الى الحديث بقوة مع الزوار بعد ان

كان فى موقف الدفاع لفترة طويلة اثناء حديثه عن السيدة العذراء وعبادتها ثم اشار فى بعض كلماته بشىء من الحماسة ان الرئيس لديه شىء يخفيه بين يديه سوف يغير به المسار فى البلاد .

وتحدث مرة او مرتين حول احتمال نشر الكتاب الخاص بخطب الرئيس والتأثير الكبير له على الشعب .

وكان الكتاب قد نشر ولكنه لم يكن الكتاب الذى وضعه «رايموند» كما انه لم يكن الكتاب الذى يشتمل على مقتطفات طويلة من خطب الرئيس والتعليق عليها ولكن كان كتابا صغيرا للافكار والمأثورات بواقع اثنين او ثلاثة منها فى الصفحة الواحدة وكل منها تتضمن خمسة سطور تقريبا . وصلت الى مدنيتنا كميات ضخمة من هذا الكتيب وظهرت فى كل المحلات والمكاتب والبارات .

فشل كتيب المأثورات عندنا ولعله لقى نفس المصير فى اجزاء أخرى من البلاد لأنه بعد ان نشر فى الصحف عن الطلب الكبير على اقتنائه عادت الصحف فتخلت عن نشر اى شىء عنه بصورة مفاجئة .

قال «رايموند» وهو يتحدث عن الرئيس : «انه يعرف من يتراجع وكانت هذه واحدة من احسن فضائله كما انه لايوجد خير منه فى فهم طبيعة السخرية القاسية والفكاهة التى تصدر عن الشعب . وقد يحدث ان يقرر الرئيس فى نهاية المطاف انه أسىء اليه النصح .

وظل «رايموند» على انتظاره . ووجدت انا فى نمط سلوكه الذى وضعه لنفسه انه عنيد ومغرور بعض الشىء . ولكن «ايفيت» لم تعد تهتم بعدم اخفائها للاحساس بفقدان الصبر ، ولقد بدأت تحس بالملل من موضوع الرئيس ، ورغم ان «رايموند» لم يكن له مكان آخر يذهب اليه فلقد كانت «ايفيت» تعيش تحت وطأة القلق وكان هذا بادرة سيئة بالنسبة لى .

■ ١٣ ■

كان «ماهيشن» صديقا لى لكنى كنت انظر اليه على انه رجل توقف نموه الطبيعى بسبب علاقته مع «شوبا» زوجته وكان هذا بالنسبة له يعد انجازا كبيرا . لقد كانت «شوبا» تعجب به وتحتاجه ولهذا ظل هو راضيا عن نفسه راضيا عن الشخص الذى تعجب به . وكانت رغبته تبدو على أنها هى كيف يعتنى بها فحسب . وكان يلبس ملابسه من اجلها ويحتفظ بنظراته إليها وحدها . وكنت اعتقد ان «ماهيشن« حينما يتأمل نفسه جسديا فانه لايقارن نفسه بغيره من الرجال او يحكم على نفسه وفقا لمقياس الرجولة ولكنه يرى الجسد الذى يرضى «شوبا» ويرى نفسه كما تراه زوجته مما يدعونى ان افكر ـ رغم كونه صديقى فى ان اخلاصه لـ «شوبا» جعله نصف رجل وشخص وضيع احسست انا نفسى بالحنين الى المغامرة ولجموح العاطفة والتعبير الجسدى لكنى لم افكر ابدا فى ان تأخذنى هذه الاشياء بذلك الشكل وان يتحول تقييمى لنفسى إلى شىء مرتبط بالوضع الذى تستجيب به امرأة ما نحوى . ولكن هكذا كان الحال . ان احترامى لنفسى يجىء من كونى عشيق «ايفيت» ويأتى من اننى اخدمها واسعدها بالطريقة الجسدية الى افعلها .

كان هذا هو مدعاة لفخرى ومدعاة لعارى فى نفس الوقت ذلك ان اختزال رجولتى إلى هذا الحد . وكانت هناك اوقات خصوصا فى الفترة الهادئة للعمل بالمحل حينما اجلس إلى مكتبى و«ايفيت» فى الدرج اوارى نفسى احس بالحداد والحزن . وكان ذلك الحداد وسط الانجاز الجسدى الذى لم يكن هناك ما يعتبر اكثر كمالا منه فى الوقت الذى كانت فيه بعض الشكوك فى ان يكون ذلك ممكنا .

كسبت الكثير من خلال علاقتى بـ«ايفيت» فلقد اتسع نطاق معرفتى وفقدت طريقة رجال الاعمال المغتربين فى عدم الظهور بالاهتمام بالاشياء حولهم والتى كانت تنتهى بالوصول الى التخلف الحقيقى . ولقد حصلت على افكار كثيرة عن التاريخ والسلطة السياسية والقارات الاخرى ورغم اتساع معارفى فلقد كان عالمى اكثر ضيقا مما كان عليه . وفى حالة الحوادث من حولى مثل نشر كتيب مأثورات الرئيس وغيرها فلقد كان همى هو ان انظر الى ما سوف يحدث لعلاقتى بـ «ايفيت» وهل هى مهددة ام انها سوف تستمر .

احسست بالصدمة حينما سمعت ان «نوامون» باع ممتلكاته ورحل الى استراليا . وكان «نوامون» هو اكبر رجل اعـمال وهو اليونانـى الذى له يد فى كل الاعمال والانشطة . ولقد اتى الى البلد كشاب صغير جدا فى

نهاية الحرب للعمل فى إحدى مزارع البن اليونانية فى أعماق الغابة ، ورغم أنه كان يتحدث اليونانية فحسب حينما أتى إلا أنه سرعان ما تقدم فى كل شىء وامتلك مزارع خاصة به ثم محلات للموبيليا فى المدينة ، وبدا أن الاستقلال قد كنسه تماما إلا أنه استطاع أن يستمر ويبقى ، وفى النادى الهللينى الذى يعتبره إحدى مؤسساته الخيرية والذى جعله يستمر فى أوقات بالغة السوء ننننن اعتاد أن يقول أن البلد هى بلده ومنزله .

وفى حالة الرواج كان « نوامون » يعيد استثمار أمواله ويوسع من نطاق عمله ، ولقد كانت له طريقة خاصة فى التعامل مع الموظفين الرسميين وكان ماهرا فى الحصول على عقود الحكومة ومنها تزويد مبانى أملاك الحكومة بالفرش والموبيليا ، والآن فلقد باع ممتلكاته سريا إلى إحدى الوكالات التجارية التابعة للدولة فى العاصمة وقالت الصحف إن الصفقة نوع من التأميم مع تعويض مناسب وعادل .

ترك رحيله الجميع وهم يحسون بأنهم خدعوا وأنهم قد خانهم بعض الشىء كما أحسسنا بالغباء وقلة الحيلة ، وكان من السهل على أى واحد أن يكون حاسما فى فترة اضطراب لكن الأمر يحتاج إلى رجل قوى كى يتصرف فى أيام الرواج ، ولقد حذرنى « نصرالدين » ومازلت أتذكر محاضرته الصغيرة عن الفارق بين رجل الأعمال والرجل الذى لا يعدو أن

يكون رياضيا مغرما بالحساب فحسب ، ذلك أن رجل الأعمال يشترى بسعر عشرة ويكون سعيدا ليبيع بسعر إثنى عشر اما الرياضى فهو الذى يرى العشرة التى اشترى بها ترتفع إلى ثمانية عشر لكنه ينتظر أن ترتفع أكثر إلى عشرين .

وكان رحيل « نوامون » بمثابة النهاية لحالة الرواج لدينا وانتهاء الثقة وكنا كلنا نعرف ذلك ، وفى النادى الهللينى كان « نوامون » يتحدث بطريقته العملية منذ اسبوعين فحسب عن ضرورة تحسين حمام السباحة فى النادى وكان هذا ذرا للرماد فى العيون .

وسمعت أن « نوامون » قد باع نفسه من أجل تعليم أطفاله ، قيل كذلك أنه تعرض للضغط من زوجته وكان يشاع أنه له عائلة أخرى نصف افريقية ، وقال البعض الآخر ان « نوامون » سوف يندم على قراره وأن النحاس هو النحاس وأن حالة الزواج سوف تستمر ومادام الرجل الكبير فى موقع السلطة فإن كل شىء سوف يستمر فى سهولة ويسر ، وإلى جانب هذا فإنه رغم من أن استراليا وأوروبا وأمريكا الشمالية هى أماكن جميلة لزيارتها فإن الحياة فيها ليست وردية كما يعتقد البعض ، وأن « نوامون » بعد حياة طويلة فى افريقيا سوف يكتشف هذه الحقيقة مبكرا جدا . إننا نعيش حياة أفضل هنا ولدينا الخدم وحمامات السباحة وكل أشكال الرفاهية التى لا يحصل عليها إلا المليونيرات فى الأماكن الأخرى .

وبالنسبة لـ « ماهيشن » فلم ألاحظ أى تغير كبير فى أسلوبه ، فمازال هو و« شوبا » يعيشان فى منزلهما المصنوع من الأسمنت وحجرة جلوسهم مليئة بالأشياء اللامعة ، ولكن « ماهيشن » لم يكن يهزل أو يضحك حينما كان يقف بملابسه الأنيقة وراء الماكينة الخاصة بصنع القهوة فى محله وهى الماكينة المستوردة وكان يحس بأنه شىء ما ناجح وتحقق له الكمال وأنه صنع كل شىء بنفسه وليس هناك مكان أعلى ليذهب إليه . وكان محله وحالة الرواج و« شوبا » زوجته قد دمروا إحساسه بالفكاهة وكنت أحس بأنه أحد الزملاء الناجين فى بقائهم هنا .

ولم يكن لى أن أدينه هو أو غيره فأنا كنت مثلهم ، فأنا أيضا أريد أن أبقى مع مالدّى وكنت أكره الفكرة الخاصة بأننى قد أمسك بى ، لكننى لم أكن أقول ، كما يقولون إن كل شىء يسير على مايرام ، وكانت مجرد الفكرة

أن حالة الرواج تجاوزت قمتها وأن الثقة قد اهتزت سببا كافيا ألا أفعل شيئا ، وهكذا كان حديثى إلى « نصرالدين » محاولا شرح الموقف إليه حينما كتب إلىّ من أوغندا .

كان « نصرالدين » يكتب لماما لكنه لايزال يجمع الخبرة ومازال عقله يحسب ويراجع ، وبالرغم من أن خطاباته تصيبنى بالعصبية قبل أن أفتحها فإننى كنت أقرؤها بسعادة لأنه بعيد وبعد إخباره الخاصة فلقد كانت هناك قضية جديدة عامة يحاول « نصر الدين » أن يناقشها ، وكنا لانزال تحت تأثير الصدمة التى أحدثها « نوامون » حتى أننى ظننت حينما أتى « متى » بالخطاب من صندوق البريد أن الخطاب سوف يدور حول موضوع « نوامون » أو يستقبل النحاس ، لكن الخطاب كان عن أوغندا حيث كانت المتاعب قد بدأت تظهر أيضا هناك .

قال « نصرالدين » فى خطابه إن الأحوال سيئة فى أوغندا ، وكان رجال الجيش الذين استولوا على السلطة هناك على مايرام فى بداية الأمر لكن الأمور الآن بدأت تشير إلى وجود علامات واضحة على المتاعب القبلية والعرقية غير أن هذه المتاعب لن تنفجر قريبا ، وقال إن أوغندا بلد جميل وخصب وسهل وليس به فقر وبه تقاليد افريقية راسخة ، وكان من المفروض أن يكون له مستقبل ولكن المشكلة أنه ليس كبيرا بالقدر الكافى ذلك أن هذه الدولة أصبحت صغيرة جدا بالنسبة للنزاعات القبلية فيها ، ولقد جعلت العربة والطرق الممهدة الحديثة من البلاد رقعة صغيرة وكان ذلك مدعاة للمتاعب ، وأصبحت كل قبيلة أكثر إحساسا بأنها مهددة فى أرضها الآن أكثر مما كانت فى الأيام حينما كان كل شخص بما فى ذلك التجار من منطقة الساحل أمثال أجدادنا يسيرون على أقدامهم وحينما كانت كل صفقة تجارية تستغرق عاما بأكمله ، ولعله من الأفضل أن نقرأ الشواهد بصورة صحيحة على أن نأمل أن الأمور سوف تستقيم فى نهاية المطاف .

ولهذا فلقد فكر « نصرالدين » وللمرة الثالثة أن يرتحل ويبدأ بداية جديدة ولكن هذه المرة خارج افريقيا برمتها إلى كندا ، ولكنه يقول فى خطابه إن « حظى قد نفذ وأستطيع أن أرى ذلك فى يدى وكفى » .

وكان الخطاب رغم مافيه من أنباء مزعجة إلا أنه يحمل الطابع الخاص

بـ « نصرالدين » وأسلوبه الهادى كما انه لم يشر إلى نصيحة مباشرة أو اى مطالب مباشرة ، لكنه كان تذكرة لى ـ كما هو مقصود منه وبخاصة فى هذا الوقت من الاضطراب الخاص به ـ بحدود الصفقة مع « نصرالدين » بالاضافة إلى واجبى نحو أسرته وأسرتى . ولقد عمق هذا من اضطرابى غير انه قوّى من عزمى على البقاء دون أن أعمل شيئا فى نفس الوقت .

ولقد كان ردى على خطابه بهذه الطريقة التى أوضحتها حيث ابرزت له متاعبنا الجديدة فى المدينة ، ولقد أخذ ردى عليه بعض الوقت ولكننى حينما كتبت وجدت نفسى أكتب بانفعال وقد أعطيت « نصرالدين » الصورة عن نفسى كشخص عاجز ولا حول له مثل بعض مدمنى الحساب الذين كان يتحدث عنهم ولم يكن هناك ماهو غير حقيقى فيما كتبت ، فلقد كنت بلا حول ولا قوة كما صورت نفسى ولم أكن أعرف إلى أين أذهب ، ولم أكن أظن ـ بعد كل ما رأيته من أحوال « اندار » وغيره من الناس فى أملاك الحكومة ـ اننى لدّى الموهبة أو المهارات التى تجعلنى أستطيع البقاء فى أى بلد أخر .

ويبدو أننى أسرت بما كتبته عن نفسى فى خطابى ولقد زاد اضطرابى وإحساسى بالجرم وأننى أحرك مبررات دمارى الخاص ، وبدأت أحاكم نفسى نتيجة إحساسى بواقعى وحياتى التى تنكمش والتى جعلتنى ضحية الهواجس كلما ازدادت انكماشا ـ وتساءلت مع نفسى هل أنا مملوك أو مسيطر علىّ بمعرفة « ايفيت » أم أننى أصبحت مثل « ماهيشن » بفكرته الجديدة عما كان عليه ـ مملوكا بنفسى وأنا فى علاقتى بـ « ايفيت » ؟ لكن هذه العلاقة وخدمتى لها كانت هى تحققى الذاتى بعد أن جعلتنى حياة المباذل فى دور الدعارة أحس بأنى لا أصلح أن أكون رجلا مع أى امرأة أخرى ، كانت « ايفيت » قد أعطتنى فكرة عن رجولتى التى أصبحت احتاج إليها ، ولهذا كان تعلقى بها هو تعلقى بنفس الفكرة عن نفسى .

كان من الغريب أن ترتبط أسئلتى عن العلاقة بينى وبين نفسى وبينى وبين « ايفيت » بالعلاقة بينى وبين المدينة والشقة والمنزل فى أملاك الحكومة ، والطريقة التى تنظم علاقتنا سويا وغياب المجتمع والعزلة التى نعيش أنا و« ايفيت » ضحايا لها ، ولم يكن من الممكن أن تكون الأمور على

هذا النخو وليس من الممكن أن تكون لنا مثل هذه العلاقة ، وأن نستمر في هذه العلاقة في أى مكان آخر .

وفى المرة الأولى التى أتت فيها إلى الشقة بعد العشاء أحسست بأن لدّى فكرة عن طبيعة حاجاتها وهى حاجات امرأة طموح تزوجت وهى صغيرة وجاءت إلى البلد غير المناسب وقطعت صلاتها بالعالم ، ولم أحس أبدا بأننى بوسعى أن ألبى لها هذه الحاجات .

وعلى حين غرة تركتنا « شوبا » لتذهب كى تزور أهلها فى الشرق ذلك أن والدها مات ويتعين عليها أن تحضر مراسم حرق الجثمان . أحسست بالدهشة حينما أخبرنى « ماهيشن » ، ليس الدهشة من الموت ولكن أن تقوم « شوبا » بزيارة عائلتها وهو مالم أكن قد تعودت أن أعرف عنها ذلك أن « شوبا » صورت نفسها لى على انها إنسانة هاربة بعد أن سلكت سلوكا ضد أحكام مجتمعها بزواجها من « ماهيشن » وأصبحت تعيش فى هذا المكان البعيد لتختفى من انتقام عائلتها .

عندما أخبرتنى أول مرة بقصتها كان ذلك أثناء غداء فى يوم هادىء صامت من أيام التمرد وقالت لى إنها تعيش فى حذر من أى غرباء ـ ولقد خطر على فكرها أن عائلتها تؤجر شخصا ما من أى جنس ليفعل ما هددت العائلة بفعله وهو تشويهها أو قتل « ماهيشن » وعادة ما تكون هذه التهديدات فارغة المدلول وأن الغرض منها هو إرضاء التقاليد ولكن فى بعض الأحوال يمكن أن يتم تنفيذها بالحرف ، وعلى كل حال فلقد توقفت عن الاعتقاد فى هذه الدراما الخاصة بالغريب المأجور من العائلة وذلك بعد ما مر الوقت ونسيت « شوبا » نفسها بعض التفاصيل فى قصتها الأولى ، ومع هذا أخذت موضوع طردها من رابطة العائلة أمرا مسلما به .

عادت « شوبا » بعد ثلاثة أسابيع وبدا أنها قد بدأت الاختفاء عن الأنظار فلم يعد هناك دعوات لى بالحضور للغداء وهكذا أصبح هذا الترتيب الذى يوشك أن يكون تقليدا قد انتهى أمره ، قال « ماهيشن » إنها كرهت الموقف السياسى فى الشرق وأنها لم تحب الأفارقة وعادت وهى غاضبة بسبب الساسة اللصوص وذوى الادعاءات الكبيرة بالاضافة إلى الأكاذيب التى ترددها الاذاعة والصحف وجرائم خطف الحقائب فى النهار والعنف بالليل ، هالها ما أصاب عائلتها التى تظن أن لها وضعا مستقرا وآمنا ، ولقد

تجمع كل ذلك مضافا إليه حزنها على فقد والدها كى يجعلها غريبة الأحوال ، وقال « ماهيشن » إن من الأفضل بالنسبة لى أن أظل بعيدا فى الوقت الراهن على الأقل .

ولكن هذا لم يكن توضيحا كافيا ، هل هناك شىء أكبر من التوتر السياسى والعنصرى وأكثر من الحزن على الوالد الذى جلبت إليه العار فى وقت من الأوقات ؟ أم هل هناك رؤية جديدة للرجل الذى اختارته والحياة التى تحياها ؟ أم هى التحسر على حياة العائلة التى فقدتها وحزنا أكبر على الأشياء التى خانتها منذ زمن ؟

كان جو الحداد الذى أظهره « ماهيشن » مغتبطا به فى غياب « شوبا » قد تحول بعد عودتها إلى حزن عميق وحقيقى ، وأصبح « ماهيشن » وقد ظهرت عليه سنه الحقيقية وتخلى عن إحساسه بالثقة التى كانت مبعث ضيق لى من قبل ، حزنت على أنه تمتع بها وقتا قصيرا ، وأصبح يتحدث بمثل هذه الحدة عن رحيل « نوامون » وعن كبريائه وسعادته بالعيش هنا يقول الآن : « إنها نفاية يا سالم ، لقد عادت كلها وأصبحت نفاية مرة أخرى » .

ولما كنت غير قادر على الغداء معهما أو حتى مجرد زيارة شقتهم فلقد لجأت إلى الذهاب إلى محل الطعام الذى يديرونه فى بعض الأمسيات كى أتبادل بعض الكلمات القليلة مع « ماهيشن » وفى إحدى الأمسيات وجدت « شوبا » .

وكانت تجلس وراء الخزينة مستندة إلى الحائط ، وكان « ماهيشن » يجلس على مقعد عال بالقرب منها حتى بدا أنهما من رواد المحل لا أصحابه .

وحييت « شوبا » لم يكن هناك أى قدر من الحرارة فى ردها كما لو كنت غريبا أو شخصا تعرفه معرفة سطحية ، واستمرت فى بعدها عنى حتى بعد أن جلست بجوار « ماهيشن » وبدا أنها لاتنظر إلىّ فى الوقت الذى ظهر فيه أن « ماهيشن » لم يلاحظ الموقف .

وكنت أعرف الاثنين منذ مدة طويلة ، وكانا جزءا من حياتى غير أن مشاعرى نحوهما تغيرت بعض الشىء ، وكنت أستطيع أن أرى الصرامة والألم وشيئا من المرض فى عيون « شوبا » ولاحظت أن « شوبا » تتصرف

بحركات مسرحية بعض الشيء ، غير أنى أحسست بالجرح وحينما تركتهما لم أسمع الكلمة المعهودة لطلب البقاء من أى منهما وهكذا خرجت من المحل طريدا زائغ البصر .

حينما عدت إلى شقتى سمعت جهاز الراديو مفتوحا وعالى الصوت بطريقة غير عادية ، وحينما صعدت إلى السلالم الخارجية طاف بخيالى أن « ميتى » ربما كان يستمع إلى تعليق إحدى مباريات الكرة من العاصمة ، لكنى بدأت أستمع إلى صوت يتردد بإيقاع مختلف فى النبرة وقوة الصوت وزئير جماعى ووجدت باب حجرة « ميتى » مفتوحا وهو جالس على حافة سريره بالملابس الداخلية وكان ضوء المصباح الكهربائى أصفر وشاحبا وكان صوت الراديو يجلب الصمم ، ونظر « ميتى » إلى أعلى باتجاهى ثم نظر إلى أسفل وقال « الرئيس » .

وأصبح هذا واضحا وبدأت أميز الكلمات وكان هذا هو سبب أن « ميتى » لم يخفض صوت الراديو وكان الخطاب قد أعلن عنه غير أنى نسيت .

وكان خطاب الرئيس باللغة الأفريقية التى يفهمها جميع معظم السكان الذين يعيشون حول النهر ، وفى بعض الأوقات تلقى خطب الرئيس باللغة الفرنسية لكن فى هذا الخطاب لم يكن هناك من اللغة الفرنسية غير كلمتى أيها المواطنون والمواطنات والتى ظلت تتردد كثيرا فى الخطبة من أجل التأثير الموسيقى للكلمات .

وكانت اللغة الأفريقية التى اختارها الرئيس لخطبه لغة بسيطة ، ومختلطة ، وقد زادها هو تبسيطا بأن جعلها لغة البارات ومشاجرات الشوارع التى يستخدمها أحط الناس ، رغم أنه يحرص فى سلوكه على تقليد اتيكيت الملوك وأسلوب ديجول ، وكانت هذه هى جاذبية اللغة الأفريقية فيما ينطق بها الرئيس مرددا باستخدام موسيقى أحط الأساليب اللغوية وأكثر التعبيرات فظاظة وهو ما كان يجذب أناسا مثل « ميتى » .

وكان الخطاب حتى الآن مثل الخطب السابقة التى ألقاها الرئيس ، ولم تكن الأفكار الواردة به جديدة فلقد كانت هناك الدعوة للتضحية من أجل مستقبل مضىء وكرامة المرأة فى افريقيا والحاجة إلى تدعيم الثورة

والحاجة إلى جعل الأفريقيين أفارقة فعلا والعودة إلى الماضى دونما خجل من أجل الأساليب الديمقراطية والاشتراكية وإعادة اكتشاف مميزات الطعام والدواء الذى كان يستخدمه الأجداد وعدم الهرولة وراء السلع المستوردة فى العلب والزجاجات والحاجة إلى اليقظة والعمل ثم النظام قبل كل شىء ، وكان هذا محاولة من الرئيس الاعتراف والسخرية من أوجه النقد الموجهة للنظام بشأن عبادة العذراء الأفريقية أو نقص الأغذية والدواء فى نفس الوقت الذى تتردد فيه المبادىء القديمة .. وكان الرئيس دائما يعترف بالنقد غالبا ما يتنبأ به وكان يجعل كل شىء مناسبا فى مكانه يوحى بأنه يعرف كل شىء ، فيجعل الأمور تبدو أيا كانت حسنة أو سيئة أو عادية بأنها جزء من خطة كبرى .

وكان الناس يحبون أن يستمعوا إلى خطب الرئيس لأنه كانت هناك هذه الأفكار المعروفة ومثل « ميتى » فانهم ينتظرون الفكاهات القديمة ، ولكن كان لكل خطاب أيضا أداء جديد بأساليب درامية خاصة به كما أن لكل خطاب هدفا . وكان لهذا الخطاب أهمية خاصة بالنسبة لمدينتنا ومنطقتنا .

- ١٤ -

كانت هذه هى طريقة الرجل الكبير فى أنه يختار وقته ، أما مايبدو كأنه تحد لسلطته فيتحول فى نهاية المطاف إلى شىء يدعم هذه السلطة ، ولقد عرض نفسه مرة ثانية كصديق للشعب . الشعب الصغير كما يحب أن يسميه كلما عاقب مضطهديه .

ولكن الرجل الكبير لم يزر مدينتنا ، ربما كما قال « رايموند » بسبب أن التقارير التى تصله غير دقيقة أو ناقصة ، وهذه المرة حدث شىء خطأ ، لقد ظننا أن « حرس الشباب » كان تهديدا وكل انسان هنا سعيد بأن يراهم وقد رحلوا عنا ، ولكن الأمور بدأت تسوء فى مدينتنا بعد حل « حرس الشباب » .

وأصبح البوليس وغيره من المسئولين فى منتهى الصعوبة وتعودوا على تعذيب « ميتى » كلما أخذ العربة حتى فى المشوار البسيط إلى الجمارك ، وكانوا يوقفونه مرات ومرات وفى بعض الأحيان بمعرفة إناس يعرفهم وفى الأحيان الأخرى بمعرفة إناس أوقفوه من قبل وكانت مستندات القرية تفحص كل مرة ومعها الأوراق الشخصية الخاصة به ، وفى بعض الأوقات كان يترك العربة فى مكانها ليعود للمحل سيرا على الأقدام ليأخذ شهادة أو ورقة لم تكن معه ولم يكن ينفع أيضا أن يأخذ معه جميع الأوراق .

وفى إحدى المرات وبدون سبب على الإطلاق أخذوه إلى المركز الرئيس للبوليس وعملوا له « فيش وتشبيه » وهو فى صحبة بعض الناس الذين بدت عليهم آثار الاجهاد والضيق مثله والذين قبض عليهم وتركوه ليقضى عصر يوم بأكمله بيدين مسودتين وفى حجرة بها كراسى بلا ظهر وأرضية من الأسمنت المكسور وحيطان زرقاء كالحة اللون وتلمع من كثرة الرءوس والأكتاف التى احتكت بها .

وكانت الأرضية تعلو بضع بوصات قليلة عن الأرض ، وكان الباب مفتوحا والدجاج يتحرك طليقا فى الفناء العارى وكانت الحجرة تشير إلى السجن ، هناك كرسى واحد ومائدة خاصة بالضابط المختص وكانت هذه الهيئة الزرية للأشياء بالحجرة تكشف عن حرمان الجميع فيها .

لم يعجبنى منظر الحجرة وقررت أنه من المستحسن بالنسبة لـ « ميتى » بعد ذلك ألا يستخدم العربة وأن أقوم أنا بعمل الكاتب والسمسار فى تخليص بضاعتى من الجمرك بنفسى ولكن الذى حدث هو أن الموظفين بدأوا يوجهون اهتمامهم نحوى .

قام الموظفون بالنبش فى استمارات الجمارك القديمة التى قد استوفيت بالطريقة المثلى ومنذ زمن جاءوا بها إلى المحل ولوحوا بها فى وجهى ، قالوا إنهم يتعرضون للضغط من رؤسائهم ويريدون إعادة بحث التفاصيل الواردة بالاستمارات مرة أخرى ، وطلب بعضهم مقارنة المخزون من البضائع فى المحل على مستخلصات الجمارك وايصالات المبيعات بينما طلب البعض الآخر منهم التفتيش على الأسعار التى أبيع بها .

وكانت هذه الأمور هى مضايقات مزعجة لا هدف لها سوى النقود قبل أن يتغير كل شىء ، وكان هؤلاء الناس يتشممون رائحة تغيير قادمة أثر حل حرس الشباب الذين وجدوا فيه شواهد ضعف من جانب الرئيس لا شواهد قوة . وفى هذا الموقف فلم يكن هناك من يستنجد المرء به فى هذه الظروف .

وكان كل شىء فى المدينة كما هو : الجيش فى الثكنات الخاصة به وصور الرئيس فى كل مكان والباخرة تأتى فى انتظام من العاصمة لكن الناس فقدوا أو رفضوا فكرة وجود سلطة رقابية وأصبح كل شىء متأرجحا كما كان فى البداية ، أما الآن بعد كل حالة السلم وسنواته والبضائع التى تملأ المحلات أصبح كل واحد أكثر جشعا .

وما كان يحدث لى يحدث لكل رجال الأعمال الأجانب ، حتى « نوامون » لو كان موجودا بيننا لكان حاله مثل حالنا فى المعاناة . وكان «ماهيشن» أكثر إحساسا بالغم وهو يقول : " انك تستطيع أن تستأجرهم لكنك لا تستطيع أن تشتريهم » ، وكان معنى هذا أنه لم يكن من الممكن هنا إقامة

علاقات مستقرة بين رجل الأعمال والموظفين ورجال البوليس وإنما كان الممكن الوحيد هو علاقات يوم بيوم وكان السلام وسط هذه الأزمة شيئا يشترى يوما بيوم ، وكانت نصيحته هى مقاومة هؤلاء ولم يكن هناك شىء آخر يفعله .

وكان شعورى الخاص وعزائى السرى أثناء هذا الوقت هو أن الموظفين أساءوا قراءة الموقف وأن غضبهم كان من صنعهم أنفسهم ، ومثل «رايموند» بدأت أؤمن فى حكمة وقوة الرئيس وكنت واثقا أنه سوف يعمل شيئا ليؤكد به سلطته ، ولهذا ظللت أراوغ ولا أدفع لأنى رأيت أنه لانهاية للدفع إذا ما بدأت فيه .

ولكن صبر الموظفين كان أكبر من صبرى . وليس من المبالغة أن أقول أنه لم يمر يوم الآن بدون أن يأتى إلىّ أحد الموظفين ، حتى أننى بدأت أنتظر هذه الزيارات وكان هذا مضرا بأعصابى ، وفى منتصف ما بعد الظهيرة وإذا لم يظهر أحد منهم كنت أعرق وأصبحت أكره وأخاف هذه الوجوه الخبيثة المبتسمة والتى تقترب منى فى ود ومساعدة ساخرة .

ثم بدأ الضغط يخف ، ولم يكن ذلك لأن الرئيس تعرف كما أتوقع ، ولكن لأن العنف بدأ يظهر فى مدينتنا ، ولم يكن ذلك العنف مجرد أحداث المساء الخاصة بمشاحنات الشوارع والقتل ولكنه هجوم منتظم ليلى فى مناطق متفرقة على رجال البوليس ومراكز البوليس والموظفين ومبانى الموظفين .

وكان الموظفون بلا شك يتوقعون شيئا من هذا القبيل لم أكن أتوقعه أنا وهو ما دفعهم إلى الجشع وإلى أن يخطفوا كل ما يستطيعون كلما كان ذلك ممكنا ، وفى إحدى الليالى أسقط أحد تماثيل السيدة العذراء الأفريقية والطفل من فوق قاعدته وتحطم مثلما حدث من قبل بالنسبة للتماثيل الاستعمارية والنصب الذى كان عند بوابات الرصيف ، وبعد هذا بدأ الموظفون يقللون من شكل ظهورهم ولم يعودوا يقتربون كثيرا من المحل وأصبح عليهم أشياء كثيرة أخرى يعملونها ، وليس لى أن أقول أن الأحوال أصبحت أحسن إلا أن العنف جاء كسبب للإحساس بالارتياح لبرهة ما .

وذات صباح جاء «ميتى» حينما كان يقدم لى قهوة الصباح وكان يبدو متجهما ثم دفع لى بإحدى أوراق المطبوعات مطوية الجوانب ، وكانت

الورقة منشورا عنوانه «الأسلاف يصرخون» وكان صادرا عن جهة تسمى نفسها جيش التحرير وكان المنشور يقول :

« إن الأسلاف يصرخون ، إن العديد من الآلهة الكاذبين قد نزلت بهذه الأرض لكن لم يكن هناك من هم أكثر بهتانا من الآلهة الحاليين ، لقد قتلت عبادة المرأة الأفريقية امهاتنا جميعا ، ولما كانت الحرب هى مجرد امتداد للسياسة فلقد قررنا أن نواجه العدو بالمواجهة المسلحة وإلا متنا جميعا إلى الأبد ، إن الأسلاف يصرخون ومالم نكن صما لسمعناهم . ومعنى العدو هو قوى الامبريالية والشركات متعددة الجنسية والقوى التى تشبه الدمى وتأخذ شكل الآلهة الكاذبة والرأسماليين ، والقسس والمدرسين الذين يلقون بتفسيرات مزورة ، إن القانون يشجع الجريمة والمدارس تعلم الجهل والشعب يمارس الجهل مفضلا له على ثقافته الحقيقية ، وأن جنودنا وحراسنا أعطوا رغبات مزورة وجشعا مزورا والأجانب يصفوننا الآن بأننا لصوص ، إننا جاهلون بأنفسنا وضللنا أنفسنا كذلك حتى أننا نسير باتجاه الموت نسينا القوانين الصادقة ، إننا جيش التحرير لم نتلق أى تعليم ولسنا نطبع الكتب ونلقى الخطب ، ولكننا نعرف الحقيقة فقط وننظر إلى هذه الأرض على أنها أرض الشعب الذى يصرخ الآن أسلافه فوقها ، وعلى شعبنا أن يفهم النضال وأن يتعلم أن يموت معنا .

قال «ميتى» إنه لايعرف من أين أتى المنشور وكل ما يعرفه أن شخصا ما أعطاه له أول أمس ، وكنت أحس أنه يعرف أكثر مما يقول لكننى لم أضغط عليه .

ولم يكن هناك عمال طباعة أو مطابع كثيرة فى المدينة ، ولقد كان من الواضح لى أن المنشور المطبوع بصورة سيئة قد جاء من عمل الطباعة الذى يقوم بطبع الصحيفة الأسبوعية لحرس الشباب ، وكانت هذه الصحيفة حينما كانت تُطبع هى الصحيفة المحلية الوحيدة التى يملؤها ، الكلام الفارغ مثل جرائد الحائط المدرسية وبها إعلانات ساذجة من بعض التجار ورجال الأعمال وبعض فقرات الأخبار التى هى عبارة عن ابتزاز وتهديدات عن الرجال الذين يخلون بقواعد المرور أو الذين يستخدمون عربات الحكومة كتاكسيات بالليل .

وكان هذا يشبه الوقت قبل وقوع التمرد ، لكن لم يكن هناك منشورات أو

زعماء شبان ومتعلمون مثل هؤلاء ، وكان هناك شيء آخر وهو أن المدينة في وقت أحداث التمرد كانت قد بدأت في إعادة البناء وكانت الاضطرابات الأولى قد وقعت بعيدا في القرى بينما الآن كل شيء يحدث في المدينة نفسها ، وكان هناك مزيد من الدم نتيجة لذلك وكان العنف الذى كان موجها نحو السلطات وحدها قد أصبح عاما ، وأصبحت الاكشاك الأفريقية والمحلات في المناطق الخارجية عرضة للهجوم والسلب ، وبدأ الناس يقتلون بطرق رهيبة على أيدى دعاة الشغب والبوليس والمجرمين من حرافيش المدينة .

وكان الأفريقيون والمناطق المتطرفة أولا ثم الأجانب ومنطقة الوسط بعد ذلك ، وكان هذا هو ما أراه يحدث هنا ، وهكذا بعدما هربت من نوع من ابتزاز الموظفين الذى لم يكن هناك مجال للشكوى منه أصبح الآن عليّ أن أفكر في نفسي كرجل عار من القوة وليس لديه ما يستند عليه ، وأخذت هذا الإحساس بالخوف معى إلى الشوارع المألوفة وهو الإحساس بأننى أصبحت عرضة للخطر والموت ، وكانت الشوارع دائما مصدرا للخطر ولكنها لم تكن لى وأنا كدخيل كنت حتى الآن مسموحا لى بأن أكون منفصلا عن العنف الذى أراه .

وكان الاجهاد العصبى كبيرا وقد أفسد كل شيء حتى أننى بدأت أفكر في الهروب ، وكنت لو وجدت منزلا آمنا ينتظرنى في مدينة بعيدة وكانت تسمح لى بالإقامة فيها لما ترددت في الرحيل في هذا الوقت ، ولقد كان هناك في بعض الأوقات السابقة مثل هذا المنزل وكان في بعض الأوقات الأخرى العديد من أمثال هذه المنازل ، ولكن لم يعد يوجد مثل هذا المنزل الآن ، وكانت الأخبار من « نصرالدين » مثبطة للهمة فالسنة التى قضاها في كندا سيئة فاقتلع عائلته مرة ثانية وسافر إلى بريطانيا ، ولم يعد العالم الخارجي يعطينى ملاذا ألجأ إليه وإنما أصبح بالنسبة لى هو العالم المجهول وكان دائما خطرا بالنسبة لى ، ولم أكن في وضع يسمح لى بأن أتعرف وكان عليّ أن أبقى حيث أنا .

وحيث إنى نسيت الأهداف أصبحت أحيا حياتى ، تعلمت هذا منذ عدة سنوات مضت من « ماهيشن » . وحدث أكثر وأكثر في معاملاتى مع الناس الذين أعرفهم جيدا أننى نسيت أن أدرس وجوههم ونسيت خوفى ، وبهذه

الطريقة أصبح الخوف مجرد خلفية وشرط من شروط الحياة يتعين على المرء أن يقبله ، ولقد هدأ من روعى شىء قاله لى أحد الألمان القادمين من العاصمة وهو شخص فى نهاية الخمسينات من عمره أثناء أحد أيام ما بعد الظهيرة فى النادى الهلليني .

قال لى : « إنه فى موقف كهذا لا تستطيع أن تقضى كل وقتك خائفا ، ذلك أن أى شىء قد يحدث ولكن يجب أن تجعل نفسك تنظر إليه على أنه حادث مرور سيىء ، شىء خارج نطاق إرادتك ويمكن وقوعه فى أى مكان » .

ومضى الوقت ولم يقع الانفجار أو الطوفان الجامح مثلما كنت أتوقع فى البداية ، ولم تقع حوادث الحرائق فى منطقة « الوسط ذلك أن وسائل المتمردين كانت ضعيفة ومحدودة ، واستمرت الهجمات وعمليات القتل وكان البوليس يقوم بغاراته الانتقامية وتحقق شيئا مثل توازن القوى بين الجانبين » .

وكان اثنان أو ثلاثة أشخاص يقتلون كل ليلة والغريب فى هذا أن ذلك كان يحدث بعيدا جدا . وكان حجم المدينة وسطحها الممتد وغير المنتظم قد أخفى كل الحوادث ما عدا الحوادث غير العادية ، ولم يعد الناس فى الشوارع والميادين ينتظرون الأنباء ، وكانت الأنباء فى الواقع شحيحة ، ولم يقم الرئيس بتقديم أى بيان أو إعلان كما لم تشر الإذاعة إلى أى شىء أو الصحف فى العاصمة .

وفى وسط المدينة راحت الحياة تمضى كما كانت من قبل ، وكان رجل الأعمال الذى يأتى من العاصمة سواء بالطائرة أو الباخرة ينزل فى فندق الـ فان دير فايدن والذى يذهب إلى المحلات المشهورة والنوادى الليلية والذى لا يسأل أية أسئلة لن يكون هناك لديه الإحساس بأن المدينة فى حالة حرب أو تمرد وأن التمرد له زعماؤه وشهداؤه رغم أن أسماءهم معروفة فقط فى مناطقهم الخاصة .

ولفترة من الوقت كان « رايموند » يعيش مثل رجل مذهول ، وفى لحظة ما بدا أنه قرر لا يعود لأنه رجل مقرب من الرئيس ، وتوقف عن الانتظار عن قراءة الشواهد ، وفى إحدى أمسيات العشاء فى المنزل عنده لم يعد يقوم بتحليل أو شرح الأحداث أو ربطها بعضها بالبعض الآخر .

لم يعد يتكلم عن التاريخ أو عن « تيودور مومس » ولم أعد أعرف ماذا يفعل فى مكتبه ولم تكن «ايڤيت» تخبرنى لأنها لم تكن مهتمة . وفى وقت ما أخذت الانطباع أنه يقرأ بعض الأشياء القديمة التى كان قد كتبها من قبل . وأشار إلى اليوميات التى كان يدونها حينما أتى فى أول الأمر إلى البلد ، ولقد نسى الكثير من الأشياء وقال إن الكثير من الأشياء من المحتم أن تنسى . ثم قال : « غريب أمر هذه اليوميات وقراءتها ، فى هذه الأيام كنت متعودا على أن تحك جلدك لترى إذا ما كنت سوف ترى الدم » .

أضافت أحداث التمرد إلى إحساسه شعورا بالفوضى ، وبعد أن تحطم تمثال السيدة العذراء فى أملاك الدولة أصبح « رايموند » عصبيا جدا ، ولم تكن عادة الرئيس أن يظهر ليدعم رجاله الذين تعرضوا للهجوم ولكنه كان يميل إلى طردهم وهاهو « رايموند » يعيش وسط الخوف من الطرد ، وكان هذا هو ما وصل إليه : الوظيفة والمنزل ومرتبه والإحساس البسيط بالأمن وبدا على « رايموند » أنه رجل مهزوم وأصبح المنزل فى أملاك الحكومة يشبه منزلا للموت .

وكانت الخسارة تشملنى كذلك . فلقد كان هذا المنزل مهما بالنسبة لى وكان الكثير كما أرى الآن يعتمد على حجة وتفاؤل الشخصين الذين يسكنون فيه ، وكان «رايموند» كرجل مهزوم قد جعل أمسياتى معه ومع «ايفيت» شيئا بلا موضوع ، وكانت هذه الأمسيات جزءا لا يتجزأ من علاقتى بـ«ايڤيت» ولا يمكن ببساطة أن تنقل إلى موقع أخر وكان هذا يعنى جغرافيا جديدة ونوعا آخر من المدينة ونوعا آخر من العلاقة غير تلك التى تقوم بيننا .

وكانت العلاقة بينى وبين « ايڤيت » تعتمد على الصحة والتفاؤل بالنسبة لثلاثتنا جميعا ولقد ادهشنى هذا الاكتشاف ، ولقد اكتشفت ذلك أولا مع نفسى حينما كنت أعيش تحت ضغط الموظفين فلقد كنت أريد أن اختبىء منها آنذاك ، وكنت أحس أننى أستطع أن أذهب إليها أو أكون معها بالطريقة التى أريدها حينما أكون قويا كما كنت أذهب إليها ، لم أستطع أن أقدم نفسى إليها كرجل يثقله العذاب والضعف بواسطة رجال آخرين . ولقد كان لها سببها الخاص للاحساس بالقلق وكنت أعرف هذا لكننى لم أكن أحتمل فكرة أن نلتقى معا طلبا للراحة .

وفى أثناء ذلك الوقت بدأنا نوسع الفواصل بين كل لقاء بيننا ، وكانت الأيام الأولى بدون « ايفيت » أيام عزلة وهدوء كانت مدعاة للارتياح دائما ، كما أننى أستطيع أن أدعى أننى كنت رجلا حرا وكان هذا ممكنا بدون « ايفيت » .

حينئذ كانت تقوم هى بالاتصال التليفونى معى وكانت معرفتى بأننى مازلت مادة للحاجة تعطينى الاحساس بالرضا الكافى ثم تتحول أثناء انتظارى لها فى شقتى إلى الاحساس بالضيق والتقزز الذى يستمر حتى اللحظة التى تأتى فيها بعد ضبط السلالم الخارجية الى حجرة الجلوس وكل الاجهاد الناجم عن علاقتها بـ«رايموند» والأيام التى تتخللها مرسومة على وجهها . وأصبحت الآن أعرفها جسديا معرفة جيدة حيث ترتبط كل مناسبة بالتى سبقتها .

وأصبحت الآن تحدثنى فى التليفون كل عشرة أيام ، وكانت الأيام العشرة هى الحد الذى لا تستطيع أن تتجاوزه ، ولقد خطر لى فى أحد هذه الأيام بعد ما قامت هى بتسوية السرير وبدأت فى وضع الماكياج على وجهها ، تنظر إلى نفسها فى مرآة التسريحة قبل عودتها إلى منزلها فى أملاك الدولة أن هناك شيئا بلا دماء فى علاقتنا فى هذه اللحظة بالذات ، أحسست أننى ربما أكون أبا أو زوجا طيعا لها أو حتى حديقة تراقبها وهى تعد نفسها للقاء عشيق .

وكانت فكرة كهذه مثل حلم ساطع تؤكد خوفا لم نكن نحن الاثنان نريد أن نعترف به وله وقع الإلهام ، كنت أفترض أننى ضحيتها ، أن «ايفيت» بدورها شخص مهزوم وقع فى شرك المدينة وتحس بالغثيان من نفسها ومن استهلاك رصيدها كجسد مثلما أحس أنا بالغثيان من نفسى ومن مبررات قلقى أيضا ، وكنت وأنا أنظر إليها وهى أمام مرآة التسريحة أرى أنها مشرقة بما هو أكثر مما أعطيتها بالفعل وأحس بمدى الخطأ الذى وقعت فيه .

وفيما بعد جاء هذه الفاصل بلا دماء حينما تمت تسوية السرير الكبير بهذه اللمسة من لمسات ربة البيت بعدما كان يعد عاطفة مشبوبة ، وكنت واقفا وكانت هى واقفة كذلك تنظر إلى شفتيها فى المرآة .

وقالت لى : « أنت تجعلنى أبدو طيبة للغاية ، وماذا أفعل بدونك ، وكان

هذا ايماءة أدب بالغة اللطف ، ولكنها أضافت : « " رايموند " سوف يمارس معى الجنس حينما يرانى وأنا بهذا الشكل » . وكان ذلك شيئا غير عادى .

وقلت لها : « هل هذا يثيرك ؟ »

وقالت : « الرجال الأكبر فى السن ليسوا مدعاة للتقزز كما يبدو أنك تتخيل ، وأنا امرأة رغم كل شىء فإذا ما قام رجل بعمل بعض الأشياء لى فإننى أستجيب » .

ولم تكن تريد أن تجرحنى ولكنها فعلت : وفكرت فى ذلك قائلا لنفسى أنها محقة فى ذلك ، أن « رايموند » كطفل أخذ « علقة » لم يعد لديه سوى أن يفعل ذلك الآن .

وقلت لها : « أظن أننا جعلناه يعانى » .

وقالت : « رايموند » ؟ لا أعلم ولست أظهر ذلك ، إنه لم يبد أى إشارة على ذلك ، ولكن طبعا ربما كان يقول لنفسه شيئا أخر الآن »

ولقد كان بعد عدة أيام حينما فكرت كيف كان غريبا بالنسبة لنا أن نتكلم عن « رايموند » فى هذه اللحظة ، لقد تكلمت عن الأم « رايموند » حينما فكرت فى آلامى وتكلمت « ايڤيت » عن حاجات « رايموند » حينما كانت تفكر فى حاجاتها ، ولقد بدأنا نتكلم فى اتجاهات متضادة على الأقل بصورة غير مباشرة نكذب ولا نكذب نحاول صنع هذه الاشارات نحو الحقيقة التى يرى الناس فى بعض المواقف المعينة أنها جد ضرورية .

وبعد أسبوع وكنت مضطجعا فى السرير وأنا أقرأ فى إحدى مجلاتى الموسوعية عن أصل الكون ، وكان موضوعا مألوفا لى وكنت أحب أن أقرأ فى موسوعتى عن الأشياء التى قرأتها فى موسوعات أخرى . ولم تكن هذه القراءات لهدف المعرفة وإنما أقرأ كى أذكر نفسى بصورة سهلة وممتعة بكل الأشياء التى لا أعرفها ، وكانت نوعا من العقاقير تدفعنى إلى الحلم بزمن مستحيل المستقبل حيث تجعلنى فى وسط كل شكل من أشكال السلام أبدا مع بداية كل الموضوعات وأن أخصص أيامى ولياليّ للدراسة وحدها .

سمعت صوت باب عربة يصطفق وعرفت قبل أن أسمع وقع الخطوات على السلام أنها « ايفيت » التى جاءت بمثل هذا الجمال فى هذه الساعة المتأخرة دونما سابق انذار ، أسرعت الخطو فوق الدرج وكانت ملابسها وحذاؤها يحدثان صوتا غير عادى فى الردهة ثم دفعت باب حجرة النوم .

بدت أنها لبست ملابسها بعناية وكان وجهها محمرا ولابد أن امرا من الأمور جعلها تأتى على هذا النحو ، دخلت بملابسها هذه ثم ألقت بنفسها على السرير وعانقتنى ، وقالت :

« غامرت بالمجىء ، كنت أفكر فيك طيلة وقت العشاء ولقد دلفت إلى هنا فى أول فرصة سمحت بها الظروف . ولم أكن متأكدة أنك سوف تكون هنا لكننى غامرت بالمجىء

كنت أستطيع أن أشم رائحة العشاء والمشروب فى أنفاسها . وتحول جو الحجرة الفارغة ، ودمعت « ايفيت » فى هذا الجو النفسى المعربد والمبتهج وأنا أذرف الدموع .

قالت : « لن أستطيع البقاء . سوف أعطى الإله قبلة ثم أمضى » .

وبعد بعض الوقت تذكرت ملابسها التى أهملتها هذه الفترة من الزمن ثم قامت برفع الجونلة كى تشد البلوزة وهى واقفة أمام المرآة وبقيت أنا تحت إصرارها فى السرير .

قالت وهى تميل برأسها إلى جانب كتفها ناظرة إلى المرآة : « ظننت أنك قد تكون فى إحدى أماكنك القديمة » .

وبدا أنها تتحدث بصورة ميكانيكية الآن وأن الحالة النفسية التى أضفتها على الحجرة قد ذهبت ، وأخيرا بدا أنها مستعدة ، وحينما نظرت إلىّ من المرآة بدت سعيدة بنفسها وبى كما بدت سعيدة بمغامرتها الصغيرة كذلك ، وقالت :

« اننى آسفة فأنا مضطرة للذهاب » وحينما وصلت إلى الباب تقريبا استدارت وابتسمت ثم قالت : « انك لا تخفى امرأة فى الدولاب ، أليس كذلك ؟ »

وكان هذا شيئا غريبا على شخصيتها ، وكان ذلك هو على أكثر الأحوال

نوع الحديث الذى سمعته من المومسات اللاتى كن يدعين إظهار الغيرة كى يكونوا أكثر مدعاة للمتعة ، وانفجرت اللحظة وامتلأت المتناقضات فى الحوار . فهذه المرأة فى الدولاب وهذا الشخص الآخر فى الخارج ، وهذه الرحلة من أملاك الدولة وهذه الرحلة فى طريق العودة ، والحب قبل الخيانة وعدت لأذرف بعض الدموع .

وانفجر حينئذ كل ما كان يعتمل فى نفسى منذ بدأت تسوى ملابسها وقمت من السرير لأقف بينها وبين الباب ، وقلت لها : « هل تظنين أننى « رايموند » ؟

واستبد بها الإحساس بالذهول .

كررت عليها السؤال : هل تظنين أننى « رايموند » ؟

ولم أترك لها فرصة الرد ، ووجدت نفسى أضربها ضربا مبرحا حول الوجه ، وبين ذراعيها المرفوعتين للحماية عن نفسها وترنحت للخلف ثم وقعت على الأرض ، ثم استخدمت قدمى حينئذ من أجل جمال حذائها وساقيها والجونلة التى رفعتها وانحناءة الأرداف ، ثم تركت وجهها على الأرض وبقيت كذلك لبرهة ثم بدأت تبكى وتحول هذا البكاء إلى صياح ثم إلى نشيج عال الصوت ، وهكذا ظل الوضع فى الحجرة لعدة دقائق .

وجلست بين الملابس فوق كرسىّ المستدير الظهر ملامسا للحائط ، وكان بطن يدى منتفخا متصلبا وظهر يدى من الأصبع الأصغر حتى المعصم ممتلأ بالألم ، قامت « ايفيت » وكانت عيناها مجرد خط منحرف بين مآقيها وعيونها حمراء متورمة بالدموع ثم جلست على حافة السرير وهى تنظر إلى الأرض ، قد تركت بطن يديها فوق ركبتيها ، كنت أحس بأننى بالغ التعاسة والجرم .

قالت بعد فترة : « لقد جئت لأراك وكنت أظهر أن هذا شىء طيب ولكنى كنت مخطئة »

ثم لم تقل شيئا بعد ذلك .

وهزت رأسها ببطء ، لقد تحطمت الأمسية ويأست فيها ولكن كيف تم ذلك ببساطة ، ذهبت هذه الايماءة بهذا الرأس من جانبها والتى تجعلنى

ادخل إلى عالم الفرح وأصبح خطأى أننى أصبحت مستعدا لأن أنظر إليها كشخص مفقود .

وقامت بخلع حذائها قدما بقدم ثم وقفت وفكت جونلتها وألقت بها ثم دخلت إلى السرير وشعرها يقف عاليا وعليها البلوزة ثم غطت نفسها بالملاءة وأراحت رأسها على الوسادة ثم أعطتنى ظهرها ، وقعت مجلاتى فوق الارض ظللنا فى مشهد الوداع فى هذه اللمسة من حياة العائلة ثم قالت هى بعد هنيهة : « ألن تأتى ؟ »

وكنت فى حالة عصبية تمنعنى من الحركة أو الحديث .

ثم استدارت نحوى وقالت ثانية : « هل ستظل جالسا فى الكرسى ؟ »

وذهبت وجلست على السرير بجانبها وكان جسدها ناعما وريانا ودافئا كما لم أعرفه إلا مرة أو مرتين من قبل ، حينئذ قمت بإمساك ساقيها وفجأة بدأت أبصق عليها حتى لم يعد لدىَّ مزيد من البصاق وتحول جمالها الناعم إلى ثورة من الغضب وهى تصيح : « لن تستطيع أن تفعل هذا ! ! » وبدأت يداى وعظامها تضرب على عظام جسمها حتى أصبحت أحس بالألم فى يداى ثم لفت هى بنفسها إلى الجانب الآخر من السرير وقامت وأخذت التليفون بين يديها ولم أعرف من سوف تقوم بالحديث فى مثل هذه الساعة ؟ وإلى من سوف تلجأ ومن تكون مطمئنة إليه »

وأدارت قرص التليفون وهى تقول « رايموند » أوه يا « يارايموند » لا . لا اننى على مايرام اننى آسفة سوف أتى على الفور » .

ثم لبست جونلتها وحذاءها ودلفت إلى الردهة عبر الباب الذى تركته مفتوحا دون أن تتوقف أو تتردد ، وبدأت أسمع خطواتها وهى تدق على السلالم ، أى صوت الآن ، وكان السرير فى الحالة من الفوضى وكانت هناك آثار رأسها على الوسادة والملاءة ، ألقيت بنفسى فى المكان الذى كانت نائمة فيه لأحس برائحتها التى تركتها وراءها .

وخلف الباب وقف « ميتى » وهو ينادى « سالم » ثم كرر نداءه وجاءنى فى ملابسه الداخلية .

قلت له « على أوه على حدثت أشياء مرعبة هذه الليلة لقد بصقت عليها ، لقد جعلتنى أبصق عليها » .

قال « ميتى » الناس عادة يتشاجرون ، لكن بعد ثلاثة أعوام فإن الأشياء لا تنتهى بمثل هذه النهاية »

« على ، أنها ليست كذلك لم أستطع أن أفعل معها شيئا ، لم أعد أريدها ، هذا ما لا أستطيع احتماله . لقد ذهب كل شىء » .

« يجب ألا تظل بالداخل ، هيا إلى الخارج ، سألبس بنطلونى وقميصى كى أمشى معك ، سوف نمشى معا سوف نمشى إلى النهر ، سوف أمشى معك » .

وقلت لنفسى : النهر . النهر بالليل ، لا . لا .

قال : « إننى أعرف الكثير عن عائلتك أكثر مما تعرف يا سالم ، من الأفضل أن تضيع تأثير هذا بالمشى هذه هى أحسن طريقة »

قلت : « سوف أبقى هنا » .

ووقف لهنيهة قصيرة ثم ذهب إلى حجرته ، لكننى كنت أعرف أنه ينتظر ويترقب ، وكان ظهر يدى منتفخا ومؤلما لى وكان أصبعى الصغير يبدو ميتا .

« وكنت مستعدا حينما دق التليفون » .

قالت : « سالم . لم أرغب فى الرحيل ، كيف حالك ؟ »

« بشع . وأنت حر »

« حينما مشيت بدأت أسوق العربة بهدوء ثم بدأت أسوق بسرعة كبيرة بعد الكوبرى حتى أصل إلى هنا وأتحدث بالتليفون إليك »

« كنت أعلم أنك سوف تفعلين وكنت منتظرا ذلك »

« هل تريد منى أن أعود ، الطريق خال وأستطيع أن آتى إليك فى عشرين دقيقة ، أوه يا سالم أننى أبدو مخيفة ، وجهى فى حالة بشعة وسوف يتعين على أن أختفى عن الناس لعدة أيام »

« سوف تبدين بالنسبة رائعة على الدوام . إنك تعرفين ذلك » .

« كان يجب أن أعطيك بعض أقراص « الفاليوم » حينما رأيت حالتك ،

فكرت فى ذلك ، وأنا فى العربة ، يجب أن تحاول النوم ، أعمل لنفسك بعض الحليب الدافىء وحاول أن تنام إن مشروبا ساخنا سوف يساعدك ، دع « ميتى » يعمل لك بعض الحليب الدافىء .

ولم تكن هى بمثل هذا القرب من قبل أو بمثل هذه الصورة كزوجة أكثر من هذه اللحظة ، وحينما أنتهت المكالمة بدأت أترقب الزمن طيلة الليل منتظرا قدوم الضوء ومكالمة ثانية ، وكان « ميتى » قد نام وترك باب حجرته مفتوحا وكنت أسمع صوت أنفاسه .

أضاءت أشعة الضياء النوافذ المطلية باللون الأبيض ، وتغيرت هيئة الحجرة المضطربة ، ولم يكن هناك من آثار الليلة الماضية غير يدى التى تؤلمنى وشعرتين من شعر رأسها ، ولبست ملابسى ونزلت على السلالم وغيرت فكرتى عن المشى فى الصباح ، وبدأت أسوق عربتى فى وسط المدينة التى توشك ان تصحو وأنعشتنى الألوان وقلت لنفسى أن الرحلة بالعربية كل صباح مبكر شىء يجب أن يتم فحصه كثيرا .

ذهبت إلى وسط المدينة ثم إلى مطعم « ماهيشن » الـ « بيج برجر » وكانت هناك أكوام متراصة من القمامة التى لم تجمع ملقاة على الرصيف ، وكان الصبى « الدفونس » هناك وتبدو جاكتته قديمة كديكور المحل ، ويشرب البيرة فى مثل هذه الساعة المبكرة شأنه شأن الأفارقة ، يحتاج إلى القليل من هذه البيرة الحقيقة حتى ينتشى ، يعرفنى منذ عدة سنوات وكنت أنا أول زبائنه لكنه لم يبد عليه أنه تعرف علىّ ، وناديت عليه فأتى إلىّ بكوب من القهوة وسندوتش من الجبنة المطبوخة وكان ثمن هذه الوجبة مائتى فرنك أو ما يعادل ستة دولارات وهكذا أصبحت الأسعار مثيرة للسخرية فى هذه الأيام .

وقبل أن تأتى الساعة الثامنة جاء « ماهيشن » وكان دائم الاعتزاز بصغره وخفته ، لكنه لم يكن خفيفا كما بدا لى من قبل حتى أنى أستطيع أن أراه الآن كشخص صغير ممتلىء ، وكان تأثيره على الصبى « الدفونس » تأثيرا كهربائيا . ثم بدأت تزول منه النظرة المحملقة بتأثير البيرة وبدأ يقفز فى مشيته مبتسما وهو يرحب بالزبائن المبكرين ومعظمهم من فندق الـ « فان دير فايدن » .

وكنت آمل أن يلاحظ « ماهيشن » حالتى لكنه لم يشر إلى شيء كما أنه لم يبد أى دهشة من رؤيتى . قال :

« شوبا » تريد أن تراك يا « سالم » .

« وكيف هى الآن ؟ »

« إنها أحسن أعتقد أنها أفضل ، تريد أن تراك ، يجب أن تأتى إلى الشقة ، تعال إلى الأكل . تعالى إلى الغداء ، إلى الغداء غدا » .

ساعدتنى « زابت » أن أتجاوز ساعات الصباح ، وكان هذا يومها فى شراء حاجاتها ، وكانت تجارتها قد انخفضت منذ وقوع التمرد وأصبحت أخبارها هذه الأيام عن الاضطرابات فى القرى حيث كان يتم اختطاف بعض الشبان هنا وهناك بمعرفة البوليس والجيش ، هذا هو تاكتيك الحكومة الجديدة ، ورغم أنه لم ينشر شيئا عن هذا فى الصحف إلا أن الغابة أصبحت فى حالة حرب الآن ، وبدا أن « زابت » كانت فى صف المتمردين لكننى لم أكن متأكدا من هذا ، وحاولت أن أكون محايدا بقدر المستطاع .

سألت عن « فيردناند » وكانت فترة بقائه بالعاصمة كمتدرب إدارى قد انتهت وأصبح مؤهلا الآن لمنصب كبير قبل أن يمضى وقت طويل . وكان آخر ما سمعته من « زابت » أنه كان مرشحا كخليفة للمأمور المحلى للمدينة الذى تم فصله بوقت قصير بعد قيام الانتفاضة ، وكانت الأصول المختلطة القبلية لـ « فيردناند » تجعله اختيارا صالحا لهذا المنصب الصعب .

قالت « زابت » وهى تتحدث عن اللقب الكبير بهدوء تام : « ان فيردناند » سوف يصبح مأمورا يا « سالم » إذا سمحوا له بالحياة ، وقلت : « إذا عاش يا « زابت » ؟

قالت : إذا لم يقتلوه ، لا أعرف ما إذا كنت سوف أحب له أن يأخذ هذا المنصب ، إن الجانبين يريدان أن يقتلوه ، والرئيس يريد أن يقتله أولا كأضحية ، أنه رجل غيور يا « سالم » . أنه لن يسمح لأحد أن يكبر فى المركز ، وأنظر إلى الصحف تجد لا شيء غير صورته فى كل مكان وصورته أكبر من أى صورة لأى شخص آخر كل يوم .

كانت صحيفة اليوم السابق والواردة من العاصمة فوق مكتبى وكانت

الصورة التى أشارت إليها « زابت » للرئيس وهو يخطب فى بعض موظفى الحكومة فى الاقليم الجنوبى .

قالت زابت : « انظر يا « سالم » أنه ضخم جدا والآخرون فى منتهى الضآلة حتى أنك لا تستطيع أن تراهم أو أن تعرف منهم أحدا

وكان المسئولون يلبسون الزى الذى حدده الرئيس لهم ، وكانت « زابت » تشير إلى شخص آخر أنها مهتمة بالمسافة الفعلية بين الأشخاص المختلفين داخل الصورة المطبوعة ، تشير إلى شىء لم ألاحظه من قبل وهو أن الزوار الأجانب لهم فى الصورة مساحة متساوية مع صورة الرئيس أما مع الشخصيات المحلية فكانت صورته تبدو كشخص عملاق بالنسبة لهم وهم مجرد بقع صغيرة متشابهون فى الملبس والحجم .

قالت : « إنه يقتل هؤلاء الرجال يا « سالم » يصرخون فى أعماقهم ، وهو يعرف أنهم يصرخون ، ولسوف أخبرك شيئا عن الرئيس ، أن له رجلا يسير أمامه أينما ذهب ، وهذا الرجل يقفز من العربة قبل أن تقف وكل شىء سيىء يراد بالرئيس يصيب هذا الرجل ويترك الرئيس حرا ودعنى أقول لك إن هذا الرجل الذى يفعل كل هذا هو رجل أبيض » .

قلت لها : « الرئيس لم يأت إلى هنا يا « بيت » .

لكنها قالت : « لقد رأيته يا « سالم » لاتقل لى أننى لم أره » .

ومضى الوقت فى قفزات وكلما استيقظت وجدت نفسى مضطربا لم يبد أن ضوء ما بعد الظهيرة أو الظلام الملىء بالأصوات كان هو الوقت المريح لى ، ومضت الليلة الثانية ولم يدق التليفون لم أطلب أنا أحدا بالتليفون ، وفى الصباح أتى « ميتى » بالقهوة .

وذهبت إلى « ماهيشن وشوبا » للغداء وبدا لى أننى ذهبت إلى محل الـ بيج برجر وتلقيت الدعوة من « ماهيشن » منذ فترة طويلة مضت .

كانت الشقة مسدلة الستائر كى تحجب الضوء الشديد وكانت هناك السجاجيد العجمية والنحاس وغيرها من القطع الصغيرة ذات البريق كما أتذكرها تماما دون تغيير ، كان غداء صامتا ولم يكن غداء اندماج أو مصالحة ، ولم نتحدث عن الأحداث الأخيرة . وكان موضوع قيمة العقارات

المفضلة لـ « ماهيشن » قد أصبح مملا للجميع ، ثم دار الحديث عن الأشياء التى نأكلها ، وفى نهاية الجلسة سألت «شوبا» عن « ايفيت » وكانت هذه هى المرة الأولى التى تفعل فيها ذلك ، وأعطيتها فكرة ما عن طبيعة الأحوال وقالت هى : « إننى أسفة ، إن شيئا مثل هذا يجب ألا يحدث لك مرة أخرى خلال عشرين سنة . وبعد كل هذا الذى أظنه حول «شوبا» ووسائلها التقليدية وخبثها أحسست بالذهول لتعاطفها وحكمتها .

أخلى « ماهيشن » المائدة وأخذ يعد القهوة ولم أر حتى هذه اللحظة أيا من الخدم ، وشدت «شوبا» بعض الستائر لتدع مزيدا من الضياء يدخل إلى المكان . ثم جلست فى الجانب المضىء على الأريكة الحديثة وطلبت منى الجلوس بجوارها وقالت : « هنا يا « سالم » .

ونظرت إلىّ باهتمام وأنا أهم بالجلوس ثم رفعت رأسها قليلا وهى تعطينى جانب وجهها وقالت : « هل ترى شيئا على وجهى ؟ » .

ولم أفهم السؤال .

وقالت : « سالم » ثم عادت بوجهها كله نحوى وتركته مرفوعا إلى أعلى وقد ثبتت عينيها على عينىّ ثم قالت « هل ما أزال مشوهة بصورة سيئة ؟ أنظر حول عينىّ وخدى الأيسر وبخاصة خدى الأيسر . ما الذى ترى ؟

ووضع « ماهيشن » عدة القهوة على المائدة المنبسطة وكان واقفا إلى جوارى ينظر معى وقال : « إن « سالم » لا يستطيع أن يرى شيئا »

وقالت هى : «دعه هو يتكلم عن نفسه ، انظر إلى عينى اليسرى وانظر إلى الجلد تحت العين وفوق عظمة الخد» ورفعت وجهها بإزائى .

وأجهدت نفسى فى النظر وأنا أحاول أن أرى ما تريد هى أن أراه ورأيت ما كنت أظنه لونا من الاجهاد أو المرض تحت عينيها ورأيت كذلك بقعة لونية خافتة فوق الجلد واصفرارا باهتا فوق خدها الشاحب اللون .

ورأيت ما كنت لم أره ولم أعد أستطيع أن أتجنبه ورأيت ما تعده هى تشويها ورأت هى أننى رأيت حينئذ بدا عليها الحزن والسكون .

وقالت « شوبا » حينما أخبرت عائلتى أننى سوف أذهب للعيش مع « ماهيشن » هددنى أخوتى بأن يلقوا على وجهى الأحماض ، وتستطيع أن

تقول إن هذا شيء مضى . وحينما مات والدى بعثوا إلىّ ببرقية وأخذت هذا على أنه دعوة منهم إلىّ للذهاب إلى المنزل للاشتراك فى طقوس الجنازة ، وكان هذا شيئا رهيبا لأن أذهب ، وكان والدى قد مات والبلد فى مثل هذه الأحوال والأفريقيون أصبحوا شيئا بشعا ، ورأيت الجميع على شفا حفرة لكننى لم أستطع أن أقول لهم هذا ، وكنت حينما تسألهم عما سوف يفعلونه فإنهم يقولون لك إن كل شىء على مايرام تماما وأنه ليس هناك ما يدعو إلى القلق . وأنا أسأل : لماذا نحن كذلك ؟ »

وفى صباح يوم لم أعرف ماذا سيطر علىّ ، وكانت هناك فتاة من السند التى درست فى انجلترا كما تقول قامت بفتح محل للكوافير وكانت الشمس مضيئة بشدة فى هذه الهضبة الجبلية هناك وكنت قد سقت عربتى بكثرة لكى أزور بعض قدامى الأصدقاء بالاضافة إلى التنزه بعيدا عن البيت . وكنت أحس بالكراهية لكل الأماكن التى أحبها وأحب أن أراها ، وظننت أن قيادة السيارة طيلة هذا الوقت أصابت جلدى بالسواد وبعض البقع وذهبت إلى هذه الفتاة السندية فى محلها وطلبت منها إذا ما كان يوجد لديها بعض الكريم أو أى شىء يزيل هذه البقع ، قالت إن هناك شيئا ، وبدأت تستعمله فوق وجهى وأخذت أصرخ طالبة منها أن تتوقف ذلك أنها استعملت حمضا اسمه « البيروكسيد » ، وذهبت جريا إلى منزلى ووجهى محترق من أثر الحمض وهكذا أصبح منزل الموت هو منزل الحزن الحقيقى بالنسبة لى .

لم أستطع أن أبقى بعد ذلك ، وأصبح علىّ أن أختبىء بوجهى عن الناس . ثم أتيت إلى هنا لأختبىء أيضا وها أنا لا أستطيع أن أخرج إلى أى مكان ، إننى أخرج بالليل فى بعض الأحيان بعد ما تحسن شكلى بعض الشىء لكننى يجب أن أكون حذرة ، لا تقل لى شيئا يا « سالم » أريد كثيرا أن أخرج وأذهب بعيدا . ونحن نملك النقود لذلك ، لتكن نيويورك أو لندن أو باريس . هل تعرف باريس ؟ أن هناك خبير تجميل يقولون إنه يستطيع أن يقشر جلدك بأحسن الوسائل ولسوف يكون هذا شيئا جميلا لو ذهبت إلى هناك . وحينئذ أستطيع أن أذهب إلى أى مكان مثل « سويس » مثلا . ماذا تنطقها بالانجليزية ؟

وقلت لها : « سويسرا » .

ومضت تقول : ها أنت ترى أننى وأنا أعيش فى هذه الشقة أنسى كذلك

اللغة الانجليزية ، إنها سوف تكون مكانا جميلا ، إننى أظن دائما لو أستطعت أن تأخذ تصريحا بالسفر إليها .

وكان « ماهيشن » طيلة الوقت ينظر إلى وجهها نصف مشجع لها ونصف متبرم بالضيق منها ، وكان قميصه القطنى الأحمر الأنيق بياقاته الصلبة مفتوحا عند الرقبة وكان هذا جزءا من التأنق الذى تعلمه منها .

ولقد سعدت أن أذهب بعيدا عنهما وعن جو القتامة الذى فرضاه علىّ فى حجرة الجلوس عندهما ، وظللت أحس بعدم الراحة من جراء فكرة تقشير الجلد التى تحدثت هى عنها طويلا .

وكان الوسواس الذى يساورهم شيئا أكبر من مجرد الخوف من البقع والبثور ، لقد انعزلوا بأنفسهم ، مما كانوا فى وقت ما مستندين بفكرتهم عن تقاليدهم العظيمة التى يطبقها فى مكان ما بعيدا عن غيرهم من الناس والآن أصبحوا هم يعانون من الخواء فى افريقيا بلا حماية لهم وبدون شىء يستطيعون الاستناد إليه ولهذا بدأوا يتعفنون . وأنا مثلهم وإذا لم أبادر بعمل شىء فإننى سوف ألقى نفس المصير . وبدأت أدرك أن السؤال المستمر للمرايا والعيون وإرغام الآخرين على محاولة اكتشاف البثور والبقع التى تحتجزك داخل مكان للاختباء هو الجنون بعينه فى حجرة صغيرة .

قررت أن أعيد علاقتى بالعالم وأن أحطم الجغرافيا الضيقة للمدينة وأن أقوم بواجبى نحو الذين يعتمدون علىّ ، كتبت إلى « نصرالدين » أننى سوف أتى إلى لندن فى زيارة تاركا له أن يفسر هذه الرسالة البسيطة ، وأى قرار هذا حينما لم يعد باقيا لى أى اختيار آخر وحينما لم يكن فى الواقع أى وجود للأسرة والمجتمع وحينما لايكون للواجب أى معنى تقريبا وحينما لايوجد أى منزل آمن .

وأخيرا سافرت على متن طائرة متوجهة إلى الشرق فى القارة قبل أن تتحول نحو الشمال ، وكانت هذه الطائرة تتوقف فى مطارنا ولم يكن علىّ أن أسافر إلى العاصمة للركوب فيها ، وهكذا أصبحت العاصمة شيئا مجهولا بالنسبة لى .

ونمت أثناء الطيران الليلى متوجها إلى أوربا ، وأيقظتنى سيدة تجلس بجوار النافذة ، وقامت واحتكت بقدمىّ أثناء مرورها فى طرقة الطائرة . فكرت أنها « ايفيت » وأنها معى وأننى سوف أنتظر عودتها إلى جوارى ، وانتظرت وأنا مستيقظ لمدة عشرة ثوان لكننى سرعان ما عرفت أن هذا كان مجرد حلم من أحلام اليقظة . وكان إحساسى بالألم أننى أدركت أننى وحيد وأننى أطير إلى غاية مختلفة تماما .

لم أسافر بالطائرة من قبل ، ولقد تذكرت الآن بعض الشىء ما قاله « اندار » عن السفر بالطائرة حيث قال بصورة أو بأخرى إن الطائرة ساعدته أن يتأقلم مع إحساسه بعدم وجود وطن له ، بدأت الآن أفهم ماكان يعنيه حينما وجدت نفسى فى افريقيا فى أحد الأيام ثم فى أوربا صباح اليوم التالى ، أنها شىء أكبر من مجرد السفر بسرعة ، أنها مثل أن تكون فى مكانين فى وقت واحد ، استيقظت فى لندن ومازال علىّ بعض آثار افريقيا مثل تذكرة ضريبة المطار التى أعطاها لى موظف كنت أعرفه وسط نوع آخر من الزحام فى مبنى آخر وفى مناخ آخر كذلك ، وكان المكانان هما أشياء واقعية وغير واقعية فى نفس الوقت ، تستطيع أن تضرب أحدهما بالآخر دون أن تكون قد اتخذت قرارا نهائيا مثل قرار رحلة أخيرة عظيمة رغم أنى حصلت فقط على تذكرة سفر بتأشيرة دخول كزائر يجب على أن أعود فى غضون ستة أسابيع .

كانت أوربا التى نقلتنى إليها الطائرة غير أوربا التى عرفتها طيلة حياتى ، فحينما كنت طفلا حكمت أوربا عالمى بعد أن هزمت العرب فى افريقيا وسيطرت على مناطق الداخل فى افريقيا كما حكمت الساحل وكل دول المحيط الهندى التى كنا نتبادل التجارة معها كما أنها كانت تمدنا بالبضائع . ولقد كنا نعرف من نحن ومن أين أتينا لكن أوروبا هى التى أعطتنا لغة جديدة .

ولم تعد أوروبا تحكم ولكنها مازالت تطعمنا بمئات الوسائل والطرق بلغاتها كما أنها ترسل لنا سلعها الجميلة بصورة متزايدة والأشياء التى تضيف لنا فى غابة افريقيا عاما بعد عام وإلى تصورنا عما نكون نحن وأعطت لنا فكرة عن حداثتنا وتطورنا وجعلتنا نعرف أوروبا أخرى هى أوروبا المدن العظيمة والمحلات العظيمة والمبانى العظيمة والجامعات

العظيمة . وإلى هذا النوع من أوروبا كان أصحاب التميز أو الموهوبون هم وحدهم الذين يسافرون إليها ، وهذه هى أوربا التى سافر إليها « اندار » حينما ترك بلاده ذاهبا إلى الجامعة الشهيرة ، وهذه هى أوربا التى تحلم بها واحدة مثل « شوبا » حينما كانت تتكلم عن السفر إلى الخارج .

لكن أوروبا التى جئت إليها أنا والتى كنت أعرف منذ البداية أننى سأجىء إليها لم تكن أوروبا القديمة ولا هى الجديدة ، إنها شىء منكمش صغير ومحرم ، أنها أوربا التى قاسى فيها « اندار » بعد أن قضى أعوامه فى الدراسة ، بجامعتها الشهيرة وحاول أن يصل إلى قرار بشأن مكانه فى العالم وحيث لجأ إليها « نصرالدين » وعائلته وحيث فرض مئات الآلاف من الناس مثلى أنفسهم عليها من شتى بقاع الأرض كى يعملوا ويعيشوا فيها .

وعن أوربا هذه فإننى لا أستطيع أن أكوّن أى صورة عقلية أما فى لندن فإنه لا يمكن عدم إدراكها ذلك أنه ليس هناك أى غموض ، فتأثير هذه الأشكاك والمحلات الصغيرة ومحلات البقالة التى يديرها ناس مثلى هو أن هؤلاء الناس اعتصروا أنفسهم فيها أنهم يتاجرون فى وسط لندن مثلى يتاجرون فى وسط افريقيا ورغم أن البضائع تسافر مسافة قصيرة إلا أن علاقة التاجر ببضائعه مازالت هى هى نفسها ، وفى شوارع لندن أرى هؤلاء الفتيات يبعن علب السجائر فى منتصف الليل وهن كالمسجونات فى أكشاكهن أو كالدمى فى مسرح العرائس ، وبدا عليهن أنهن قد انقطعن عن تيار الحياة للمدينة العظيمة التى أتين إليها ليعشن فيها وتعجبت من خواء حياتهن القاسية ولا معنى رحلتهن الصعبة كذلك .

وهنا يجب أن نتذكر هذه الأوهام التى كانت افريقيا تعطيها إلى هؤلاء الذين يأتون من الخارج ، ففى افريقيا فكرت فى غريزتنا وقدرتنا على العمل على أنها شىء بطولى وإبداعى حتى تحت أقسى الظروف ، ولقد قابلت بينها وبين اللامبالاة والانسحاب لأفريقيا القرية .

ولم يحس « نصرالدين » بالدهشة من خطبتى لإبنته « كاريشا » ذلك أنه كان متمسكا دائما كما بدا لى بفكرته عن إخلاصى التى رآها فى كفى أثناء قراءته منذ عدة سنوات ، كما أن « كاريشا » نفسها لم تكن مندهشة

والحقيقة أن الشخص الوحيد الذى نظر إلى الحادثة بشىء من الدهشة كان هو أنا نفسى الذى تعجبت من وقوع هذا التحول فى حياتى بمثل هذه البساطة .

جاءت الخطبة تقريبا فى أخر وقتى المقرر فى لندن وكانت شيئا معروفا من البداية . وكان من المريح لى فى هذه المدينة الكبيرة والغريبة بعد هذه الرحلة السريعة التى قمت بها أن تتسلمنى « كاريشا » وأن تنادينى باسمى طيلة الوقت ولن تقودنى خلال أماكن لندن بخبرتها التى تشتمل على الحياة فى كل من أوغندا وكندا من قبل بينما أنا أمثل دور البدائى .

وكانت « كاريشا » صيدلية وكان هذا جزئيا من صنع والدها « نصرالدين » حيث أن تجربته مع التغيرات والاضطرابات الهائلة المفاجئة جعلته يفقد ايمانه فى الممتلكات والتجارة كشىء يكن له حماية الأسرة الخاصة به وهو ما حدا به إلى أن يدفع بأولاده أن يحصلوا على المهارات التى تصلح فى كل مكان ، ولعل وظيفة « كاريشا » هى التى أعطتها نقاءها وصفاءها وهو أمرا غير عادى بالنسبة لفتاة فى الثلاثين غير متزوجة تعيش فى مجتمعنا أو لعل حياتها العائلية الكاملة ونموذج والدها « نصرالدين » الذى يحب تجاربه العديدة ويسعى إلى آفاق جديدة ، لكننى أحسست أزيد وأزيد أن جولات « كاريشا » هناك كان لها طابع رومانسى ، وكان هذا شيئا جديدا بالنسبة لى ، ذلك أن تجربتى مع النساء محدودة ، أحسست بالسعادة الغامرة لعاطفة « كاريشا » وحبها وكان هذا مدعاة للرضا بصورة ساحرة .

كان يتعين علىّ أن أعود إلى فندقى الذى لم يكن بعيدا عن شقة « نصرالدين » ورحت أواجه الإحساس بالوحدة لكم كنت أكره هذه الحجرة بالفندق التى تجعلنى أحس بأننى لست فى أى مكان . لقد فرضت علىّ مشاعر القلق القديمة ، وأضافت مشاعر جديدة من القلق بشأن لندن وبشأن هذا العالم الكبير الذى يتعين علىّ أن أسير فيه ، وكنت أسأل نفسى من أين أبتدأ ؟ حينما أفتح التليفزيون أحس بمدى الغرابة العظيمة فى الخارج وأتعجب كيف تم اختيار هؤلاء الرجال الموجودين على الشاشة من وسط هذا الزحام ، وكانت هناك فى مخيلتى دائما الفكرة المريحة لأن أعود وأن أخذ طائرة أخرى أو ألا أكون موجودا هنا وكانت القرارات

ونماذج السعادة التى أحسها فى وسط النهار والمساء المبكر تعود فتلغى من ناحيتى أثناء الليل .

قال « اندار » عن الناس من أمثالى أننا حينما نأتى إلى مدينة عظيمة فإننا نغلق عيوننا وكل ما يشغلنا هو محاولة إظهار أننا لسنا منبهرين ، وكنت أنا مثل هذا تقريبا حتى مع « كاريشا » التى تقودنى هنا ، كنت أستطيع أن أقول أننى فى لندن لكننى لم أعرف حقيقة أين أنا ، ذلك أنه لم تكن لدى القدرة على الإمساك بالمدينة أو الإحاطة بها ، وكنت أعرف فقط أننى فى شارع « جلوشستر رود » وكان هناك فى هذا الشارع فندقى وشقة « نصرالدين » كذلك وكنت إذا نسيت فى هذا الشارع وهو الوحيد الذى أعرفه فى أحد الاتجاهات فإننى أجىء إلى العديد من المبانى والطرق حيث أتوه . وإذا ما مشيت فى الاتجاه المضاد فإننى أصل إلى عدة أماكن سياحية مثل المطاعم وعدة مطاعم عربية ثم أصل فى النهاية إلى المنتزه ، وكان هناك فى أعلى المنحدر وسط المنتزه بحيرة كبيرة تبدو صناعية لكنها مليئة بالطيور مثل البجع وأنواع مختلفة من البط وهذا شىء غريب أن هذه الطيور لا يهمها أن تكون هناك .

وكان الناس فى أوقات العصر يطيّرون الطائرات الورق فى المنتزه وفى بعض الأوقات كان العرب من السفارات يلعبون كرة القدم تحت الأشجار ، وكان هناك دائما الكثير من العرب البيض البشرة ، عرب حقيقيون وليس العرب أنصاف الأفريقيين الذين كانوا على الساحل فى افريقيا ، هناك منصة للصحف والمجلات العربية عند محطة جلوشستر رود . ولم يكن كل العرب أغنياء أو نظيفيين وكنت أرى فى بعض الأحيان مجموعات صغيرة من العرب الفقراء فى ملابس كئيبة معسكرين فى المنتزه على العشب أو على رصيف الشوارع وكنت أظن أنهم من الخدم وبدا هذا لى شيئا مثيرا للخجل ، لكننى بعد ذلك رأيت سيدة عربية ومعها أحد الأشخاص التابعين لها .

تعرف على هذا الشخص فورا وكان يلبس جلبابه الأبيض البسيط معلنا للناس جميعا عن وضعه الاجتماعى وكان يحمل حقيبتين لحاجات البقالة من سوبر ماركت ويت روز فى طريق جلوشستر وكان يمشى متقدما سيدته بعشر خطوات منتظمة وكانت سيدته بدينة بالصورة التى تحب السيدات

العربيات أن يكن على هذا الشكل . وكانت هناك بعض الخطوط الزرقاء على وجهها الشاحب الذى يختفى تحت حجاب شفاف أسود ، وكانت سعيدة بنفسها ذلك أنها بمنظرها هذا فى قلب لندن وتقوم بمشترياتها مع ربات البيوت الآخرين فى سوبر ماركت ويت روز وكان هذا شيئا مثيرا بالنسبة لها ، وللحظة خاطفة ظنت أننى عربى ونظرت إلىّ من تحت حجابها الشفاف وكانت تتمنى أن أرد على نظرتها بنظرة من الموافقة والاعجاب .

وكنت سوف أذهب إلى محل ويت روز كى أحضر هدية من النبيذ إلى « نصرالدين » الذى لم يفقد ذوقه الحساس نحو النبيذ والطعام الجيد .

وكان « نصرالدين » يحس بالسعادة أن يكون دليلى فى هذه الأمور ، والحق أنه بعد السنوات التى قضيتها فى شرب النبيذ البرتغالى فى أفريقيا والأبيض منه الذى لا معنى له والأحمر الحريف الطعم فإن تعدد أصناف النبيذ فى لندن كان شيئا مثيرا لى كل يوم ، وفى العشاء فى شقة « نصر الدين » وقبل فتح التليفزيون الذى كان يشاهده لعدة ساعات أخبرت « نصرالدين » على الخادم الذى كان يلبس الجلباب الأبيض ، وقال أنه غير مندهش ذلك أن هذا الموضوع كان صورة جديدة من صور الحياة فى شارع جلوشستر رود .

وأضاف « نصرالدين » أنه فى الأيام الماضية كانت تحدث ضجة إذا ما ضبطت وأنت ترسل بعض الأشخاص الى المنطقة العربية فى قارب والآن فإنهم يحصلون على جوازات السفر وتأشيرات الدخول مثل أى شخص آخر ، ويعاملون بالهجرة مثل أى شخص آخر ولا يبدو أن هناك من يعبأ بالأمر .

لكننى أحس بالخوف الأسطورى من العرب ، لقد أعطانا العرب وأعطوا نصف العالم ديننا الإسلامى لكننى لا أستطيع أن اقاوم الإحساس أنه فى حالة قيام بعض العرب بمغادرة بلادهم فإن أشياء رهيبة تعتبر وشيكة الوقوع فى العالم ، أنه يتعين عليك أن تفكر من أى جئنا نحن .. من بلاد إيران أو الهند أو افريقيا وأنظر ماذا حدث هناك .. والآن أوروبا ، أن العرب يضخون البترول ثم يمتصه المال بعد ذلك ، يضخون البترول لكى يجعلوا نظام العالم يستمر ثم يمتصون المال ثم يرسلونه لكى يتحطم ، إنهم

يحتاجون إلى أوروبا فهم يريدون البضائع والعقارات ويحتاجون مكانا آمنا لأموالهم ، لكنهم يدمرون المال ويقتلون الأوزة التى تبيض ذهبا .

« وهم ليسوا وحدهم فى هذا ، فعلى مدار العالم كله تجرى رءوس الأموال هاربة ، وهناك يريد رجال الأعمال الذين جمعوا أموالهم أن يهربوا من هذه الأماكن الرهيبة التى عملوا فيها كى يجدوا مكانا فى بلد آمن وجميل ، كنت أنا واحدا فى هذا الزحام الذى يضم كوريين وفلبينيين وناس من هونج كونج وتايوان وجنوب افريقيا وايطاليين ويونانيين وناس من أمريكا الجنوبية مثل الأرجنتينيين والكولمبيين والفنزويليين والبوليفيين والعديد من السود والصينيين من كل مكان ، والجميع يتحركون هربا وهم خائفون من الحريق ولهذا يجب عليك ألا تظهر أن الناس يهربون من افريقيا وحدها » .

ومعظمهم هذه الأيام ومنذ أن أغلقت سويسرا أمامهم يتوجهون إلى الولايات المتحدة وكندا ، وهناك يجدون من ينتظرهم ليأخذهم إلى حيث يتم غسل رأس مالهم ، وهناك يقابلون الخبراء ويجد رجال أمريكا الجنوبية رجالا من بنى وطنهم وبين الآسيويين أسيويون واليونانيين يونانيون مثلهم وفى تورنتو وفانكوفر وكاليفورنيا ومنيامى يجدون مؤسسات الغسيل الكبيرة هناك .

وكنت أعرف ذلك قبل أن أذهب إلى كندا ولهذا لم أدع أحدا يبيع لى فيللا بمليون دولار فى كاليفورنيا أو مزرعة برتقال فى أمريكا الوسطى أو قطعة من الأرض البور فى فلوريدا ، هل تعرف ماذا اشتريت بدلا من هذا ؟ لن تصدق . اشتريت جزءا من حقل للبترول ، وكان الرجل صاحب المشروع جيولوجى قدمه لى شخص يدعى « أوفانى » وقالوا لنا أنهم يريدون عشرة أشخاص منا ليكونوا شركة بترول خاصة وهم يريدون جمع مائة ألف دولار بواقع عشرة آلاف لكل شخص ، وكان رأس المال المصرح به أكبر من ذلك بكثير وكان الترتيب هو أنه إذا عثرنا على البترول فإن الجيولوجى سوف يقوم بشراء بقية الأسهم بأسعار أسمية عالية . وكان هذا عدلا وكانت مغامرته وعمله فى نهاية الأمر .

حينما جئت إلى بريطانيا كانت كل غرائزى منصبة على العمل فى الأعمال الهندسية الخفيفة المتعلقة بالطرق والسكك الحديدية والطاقة وكل

أشكال الخدمات الصناعية ، وكان تفكيرى أنه إذا وجدت منطقة ما وعثرت على المعدات الجيدة واستخدمت الآسيويين فإنك لن تخسر أبدا ، أن الأوربيين أصابهم الملل من الماكينات والمصانع بينما الآسيويون يحبونها حتى انهم يفضلونها على حياتهم العائلية ، لكننى بعد ماحدث لى فى كندا فقدت قوة أعصابى وفكرت أن ألعب فى أشياء آمنة ثم فكرت فى العمل فى العقارات وهكذا كان مجيىء إلى شارع جلسوشستر رود . ذلك أنه واحد من مراكز تجارة السياحة فى لندن كما ترى ، وها هى لندن تدمر نفسها من أجل تجارة السياحة وهو ما تستطيع أن تراه هنا ، ولقد تم اخلاء مئات من البيوت وآلاف الشقق لكى تصبح فنادق ودورا للضيافة السياحية والمحلات والمطاعم ، وقلت لنفسى لا يمكن أن أخسر ثم قمت بشراء ست شقق فى إحدى العمارات واشتريت فى قمة حالة الرواج وانخفضت الآن الأسعار بنسبة ٢٥٪ وارتفعت فى الوقت نفسه أسعار الفائدة من ١٢٪ إلى ٢٠٪ وإلى ٢٤٪ . هل تتذكر الفضيحة التى قامت فى الساحل الأفريقى حينما عرف أن عائلة « اندار » تقرض النقود بفائدة ١٢٪ ؟ أحس بأننى لم أعد أفهم فى صناعة الأموال وأن العرب موجودون بالشوارع فى الخارج » .

ومضى « نصرالدين » هذا المكان ضخم ومشغول دائما ويتعين عليك أن تقضى بعضا من الوقت كى ترى أن أشياء قليلة تحدث ، أن كثيرا من الناس تم مسحهم تماما وفى هدوء ، ولا توجد هناك أموال جديدة أو حقيقية وهذا يجعل كل الناس على مشارف الإحساس باليأس ، جئنا هنا فى الوقت الخطأ ، لكن لا عليك من هذا فإنه فى كل مكان آخر تسود حالة الوقت الخطأ كذلك ، وحينما كنا فى افريقيا فى الأيام الماضية نفحص الكتالوجات ونطلب البضائع ونراقب السفن وهى تفرغ حمولتها فى الميناء ، لم نكن نظهر أن الأحوال سوف تكون هكذا فى أوروبا أو أن جوازات السفر البريطانية التى حصلنا عليها كحماية لنا ضد الأفريقيين سوف تأتى بنا إلى هنا »

وعقبت « كاريشا » على قصة أبيها قائلة : « اننى آمل أن تعرف أنك كنت تسمع قصة رجل سعيد » ولم أكن فى حاجة إلى من يخبرنى بذلك .

كان « نصرالدين » يبدو بخير ، ونجح أن يجعل نفسه كأنه فى بيته فى جلوشستر رود ، ولقد كانت خلفية لندن شيئا غريبا لكن « نصرالدين » يبدو

كما كان دائما من قبل ، تحول الآن من سن الخمسين إلى سنوات الستين ، لكنه لم يبدو كبيرا بشكل واضح . ولم يكن هناك ما يثير ضيقه ويجعله يتكلم عن أن حظه قد بدأ يتركه إلا عدم نشاطه الفعلى ، لكنه وجد فى مسافة النصف ميل فى شارع جلوشستر رود بين محطة السكة الحديد تحت الأرض وبين المنتزه المهجع المثالى للراحة لنفسه .

وكان يقوم بشراء صحيفته اليومية من أحد المحلات ليقرأها فى مقهى صغير فى المنتزه مع قهوة الصباح ثم يقوم بجولة صغيرة فى المنتزه ويذهب للتسوق من كل ما لذ وطاب فى محلات الطعام المتعددة ، وفى بعض الأحيان يعطى نفسه متعة تناول الشاى أو أى مشروب آخر فى الردهة الكبيرة والعتيقة الطراز فى أحد الفنادق المصنوع من الطوب الأحمر بالقرب من المحطة ، وفى بعض الأحيان الأخرى يذهب إلى حجرة الرقص فى بعض الأماكن العربية والايرانية وهناك المتعة المثيرة لمشاهدة التليفزيون كل ليلة فى شقته ، وكان سكان جلوشستر رود هم خليط عالمى الهوية يتغير دائما مع وجود ناس من جميع الأعمار ، وكان الشارع مكانا وديا للاجازات والعطلات وكانت أيام « نصرالدين » مليئة بالمقابلات والملاحظات الجديدة المتجددة ، قال عن جلوشستر رود أنه أعظم شارع فى العالم وأنه ينوى البقاء فيه مادام سمح له بذلك .

اختار شيئا طيبا مرة ثانية ، وكانت موهبته دائما أن يوحى بأنه قد اختار اختيارا طيبا ، وكنت فى بعض الأوقات أحس بالقلق من أجل أن أجد العالم الذى وجده هو ، كان نموذج « نصرالدين » أو الطريقة السرية التى فسرت بها تجربته قد ساعد على الرغم من كل شيء فى تشكيل حياتى ، وهنا فى لندن ورغم سعادتى لأن أراه فى حالة معنوية عالية إلا أن موهبته أصابتنى بالكآبة ، وجعلتنى أحس بعد كل هذه الأعوام أننى لم أستطع أن أجاريه فى السباق وأننى لن أستطيع أيضا فى المستقبل وأن حياتى سوف تظل دائما غير مرضية وكان هذا الاحساس يدفعنى للذهاب إلى حجرتى فى الفندق فى عذاب من الوحدة والتخوف ، ثم أعود إلى أن أتذكر فكرتى الملهمة ، عن حاجة الناس لأن يعيشوا فقط وعن وهمية الألم ، ولقد قمت بالمواجهة بين كل من لندن وافريقيا حتى أصبح كليهما غير حقيقيين بالنسبة لى وحتى جاءنى المنام ، وبعد فترة من الوقت لم يعد يتعين علىّ أن أستدعى هذا الالهام وهذه الحالة النفسية للصباح الأفريقى كما كان من قبل .

ولقد كنت فى مثل هذه الحالة من اللامبالاة وعدم المسئولية ، وقبل هؤلاء الناس الذين يتحدث عنهم « نصرالدين » فى شارع جلوشستر رود حينما قمت باتخاذ قرارى بالخطبة إلى « كاريشا » .

وكان هذا الإلهام الذى استندت إليه حول وحدة التجربة ووهمية الألم جزءا من نفس الطريقة للشعور ، وكنا نقع فيه ـ أناس مثلى ومثل « اندار » لأنه كان الأساس فى طريقة حياتنا الماضية ، لكننى رفضت هذه الطريقة للحياة فى الوقت المناسب ، ولم يكن هناك مجال للرجوع إلى الوراء أصبحنا نحن ما صنعنا العالم الخارجى وعلينا أن نعيش فى العالم كما يوجد بالفعل ، لقد كان « اندار » الشاب أكثر حكمة حينما قال « استخدم الطائرة ودس على الماضى وتخلص من فكرة الماضى نفسها واجعل من مناظرة الخسارة الشبيهة بالحلم شيئا عاديا » .

هكذا كانت حالتى النفسية والعقلية حينما تركت لندن و« كاريشا » لكى أعود إلى افريقيا ولأحزم الورى فيها وأعرف ماذا لدى بقدر المستطاع ثم أقوم بمحاولة بداية جديدة فى مكان آخر .

ذهبت إلى بروكسل بعد الظهر المتأخر ، وكانت الطائرة المسافرة إلى افريقيا سوف تقوم فى منتصف الليل ، وأحسست من جديد بدراما السفر بالطائرة ، اختفت لندن ، وافريقيا سوف تأتى وبروكسل الآن ، وقمت بتناول العشاء ثم ذهبت إلى أحد البارات بعد ذلك وكان مكانا به نساء ، وكانت الإثارة كلها فى فكرة المكان وليست فى المكان نفسه ، وكان ماحدث فيما بعد شيئا موجزا وبلا معنى ومطمئنا فى نفس الوقت حيث أنه لم يقلل من قيمة ما كان لى فى افريقيا ولم يكن وهما ولكنه ظل حقيقة ، وأزال الشك الخاص الذى كنت أحس به نحو موضع خطبتى إلى « كاريشا » التى لم أكن قد قبّلتها حتى الآن .

ووقفت إحدى النساء عارية أمام مرآة طويلة وهى تنظر إلى نفسها وكانت لها افخاذ بدينة وبطن مستديرة وأثداء غليظة وقالت لى : « بدأت ألعب اليوجا مع مجموعة من الأصدقاء ولنا أستاذ يعلمنا فهل تلعب اليوجا أنت ؟ »

قلت لها : « إننى ألعب الأسكواش » .

لم تهتم وقالت : استاذنا يقول إن القدرة النفسية التى تتدفق للرجل تستطيع أن تغلب امرأة ، ويقول مدرسنا أنه بعد لقاء خطير فإن المرأة تستطيع أن تستعيد نفسها ثانية بأن تصفق بأيديها أو بأن تأخذ نفسا عميقا ، فأى طريقة توصى بها ؟ وقلت لها « صفقى بيديك »

حينئذ واجهتنى كما تواجه مدرسها فى اليوجا ثم استجمعت نفسها وأغلقت عينيها بنصف إغلاق ثم شدت ذراعيها للخلف وبدأت تصفق فى عنف ، ثم فتحت عينيها على وقع الصوت الذى هز الحجرة الصغيرة المزدحمة بالفرش وبدا عليها الأندهاش ابتسمت كأنها تلقى نكتة ، منذ وقت وقالت « اذهب » . وحينما وصلت إلى الخارج فى الشارع أخذت نفسا عميقا ثم ذهبت مباشرة إلى المطار لكى أستقل طائرة منتصف الليل .

معركة

- ١٦ -

أتى الفجر مفاجئة وكان الغرب أزرقا شاحبا أما فى الشرق فكان هناك اللون الأحمر مع أعمدة افقية كثيفة من السحاب الداكن ولقد ظل هكذا عدة دقائق طويلة ، ويا الروعة والعظمة أن تكون على ارتفاع ستة أميال فوق سطح الأرض ! نزلنا ببطء النور فى الأعالى ، وكانت افريقيا تبدو تحت السحاب الكثيف كأرض مبتلة داكنة الخضرة ، وتستطيع أن ترى أن الفجر بزغ هناك من هنيهة قليلة أما الغابات والخلجان الضيقة فمازالت فى ظلام تام ، وكانت أرافى الغابات تمتد تحت ضوء الشمس الذى بدأ يضرب أسفل السحب وكانت الدنيا قد شع فيها الضياء حينما هبطنا إلى أرض المطار .

هكذا جئت إلى العاصمة أخيرا ، كانت طريقة غريبة لأن أصل إليها بعد هذه الرحلة المعقدة ، مدت العاصمة بتلال ضخمة وغنية عن مدينتى عند ملتقى النهر لكنها تحكى بعد أوروبا وحيث مازالت لندن قريبة فى المخيلة فلقد بدت العاصمة مهلهلة رغم حجمها .

كان الركاب ذوى التجربة من الأوروبيين لا يعبأون بالصورة الضخمة للرئيس بعصا الزعيم فى يده ، وبدأوا يتدافقون فى قوة على موظفى الجمارك والهجرة وبدا كما لو كانوا يفتحون طريقهم بعنوة إلى الأمام ، ولقد تعجبت من ثقتهم ، كان معظمهم رجال يتمتعون بالحماية مثل رجال السفارات والعاملين فى مشروعات حكومية ، والعاملون لدى الشركات الكبرى ، وكان مرورى بطيئا بالقياس بهم ، وحينما وصلت إلى النهاية ، كان مبنى الصالة قد أصبح فارغا تقريبا ولم يعد هناك من ينظر إلى إعلانات شركات الطيران أو صور الرئيس وكان معظم الموظفين قد اختفوا وكنا قد أصبحنا فى بداية النهار .

كانت رحلة طويلة للوصول إلى المدينة بالسيارة تشبه الرحلة من أملاك الدولة إلى وسط المدينة فى مدينتى الخاصة ، لكن الأرض كانت صعبة التضاريس هنا وكان كل شىء موجود على نطاق أوسع من مدينتى حيث كانت هنا أتوبيسات قطار سكة حديد بعربات مفتوحة على النظام القديم كما كانت هناك مصانع ، على طول الطريق مسطحات خشبية يعلو عشرة أقدام مدهونة بصورة موحدة عليها عبارات من الأقوال المأثورة للرئيس وكانت بعض الصور المرسومة للرئيس تماثل فى حجمها حجم أحد المنازل ، ولم يكن لدينا فى مدينتنا الصغيرة أى شىء مثل هذا وكان كل شىء عندنا كما أدركت أنا على نطاق صغير.

كان الطريق إلى الفندق مزروعا بالصور والأقوال المأثورة وتماثيل العذراء الأفريقية ولو قدر لى أن أكون قد جئت إلى العاصمة من مدينتى لأحسست بالاختناق ، ولكن بعد أوروبا وبعدما رأيته من البلاد وأنا فى الجو فإن إحساسى بفقر العاصمة كان مختلفا كان هناك عنصر من عناصر الشجن أو العاطفة فى هذه الأقوال المأثورة أو الصور أو التماثيل وفى هذه الرغبة لرجل الغابة الذى يسعى لأن يكون ضخما بعمل مثل هذه الأشياء الفجة كما أحسست ببعض التعاطف البسيط لهذا الرجل الذى يستعرض نفسه بمثل هذه الصورة .

فهمت الآن لماذا كان الكثيرون من الزوار المتأخرين لأملاك الدولة يجدون بلدنا وخوفنا من الرئيس شيئا مضحكا ، وما رأيته أنا على الطريق ابتداء من المطار لم يكن يبدو مضحكا رغم هذا فلقد أحسست بأنه صرخة أكثر من أى شىء آخر ، ولأننى جئت توا من أوروبا فلقد رأيت المقارنة واضحة .

وفى غضون يوم واحد استبدلت قارة بقارة وكان التعاطف الغريب مع الرئيس وهذه الرؤية لاستحالة ما كنت أظهر أنه يحاول أن يفعله .. كلما جاءت فى لحظة واحدة عند الوصول .. وتآكل التعاطف بعد أن أصبحت المدينة أكثر ألفة ، وأصبحت أنظر إليها على أنها نسخة مكبرة من مدينتى عند النهر ، بدأ التعاطف يتآكل بالفعل عند الوصول إلى الفندق الضخم الجديد وكان مكيف الهواء وبه محلات فى الردهة الكبيرة وحمام سباحة لا يستخدمه أحد إلا أنه كان مكتظا برجال البوليس السرى ، لم أستطع أن

أتخيل أن لهم عملا ما فى هذا المكان . وكانوا هناك فى هذا المكان ليستعرضوا أنفسهم للزوار بالاضافة أنهم يحبون أن يكونوا فى هذا الفندق الجديد الأنيق ، ولقد كان هذا شيئا مؤثرا أومدعاة للفكاهة ان شئت ، ولكن هؤلاء الرجال ليسوا مضحكين دائما ولقد عادت لى بالفعل توترات افريقيا وللإحساس بها .

هذه إذن مدينة الرئيس ، المكان الذى نشأ فيه عملت فيه والدته كخادمة فى أحد الفنادق هذه هى المدينة التى أعطته خلال الأيام الماضية لعهد الاستعمار فكرة عن أوربا ، هذه هى المدينة الاستعمارية الممتدة أكثر من مدينتنا وبها الكثير من الأحياء السكنية الغنية بالأشجار اليانعة والمزينة على امتداد الطريق . ومع أوروبا هذه كان الرئيس يرغب أن يتنافس معها فى المبانى التى ينشئها ، وكانت المدينة التى تتعفن فى وسطها بالشوارع القذرة وأطنان القمامة خلف الشوارع الرئيسية فى عهد الاستعمار كانت رغما عن هذا مليئة بالمنشآت الجديدة العامة وأصبحت مساحات ضخمة بالقرب من النهر قد تحولت إلى منتجعات للرئيس وقصور ذات جدران هائلة والعديد من المبانى الحكومية لجميع الأغراض .

كانت هناك الحدائق التابعة للرئيس بالقرب من الشلالات التى تنافس الشلالات فى مدينتنا على بعد ألف ميل من منحنى النهر ، وقد تم استبدال تمثال المكتشف الأوروبى الذى وضع خريطة النهر والذى استخدم ... باخرة للملاحة فيه بتمثال هائل الحجم لأحد رجال القبائل الأفريقية ومعه الرمح والدرع ومنحوت على الطريقة والنمط الأفريقى ، وكان هناك بجانب هذا التمثال تمثال صغير آخر ، للعذراء الأفريقية برأس منحنى وعليه عجاب ، وكان بالقرب من هذا مقابر الأوربيين الأوائل وهى مستعمرة صغيرة للموتى والتى انبثقت منها مدينتنا ، وكانوا قوما بسطاء يتاجرون فى أشياء بسيطة وسلع بسيطة ولكنهم كانوا وكلاء لأوروبا مثل الذين كانوا معى فى الطائرة .

وفى اليوم الثانى عدت إلى المطار لأخذ الطائرة العاملة على الخطوط المحلية ، أصبحت الآن على علاقة توافق مع المكان وتركت المساحة المنبسطة للمدينة أثرها الكبير على نفسى ، هناك على امتداد طريق المطار بعض المستوطنات الجديدة وكنت أتعجب كيف يعيش هؤلاء ؟ وهل كانت هناك بعض الغابات ؟ وكانت الأعمدة التى تستند إليها الألواح الضخمة

لأقوال الرئيس مقامة من الصلصال العارى وكانت الألواح نفسها ملطخة بالطين من أثر الطريق والأتربة المثارة وكانت جزءا من الأهمال والبعد عن الاهتمام وهو الأمر الذى لم ألاحظه بالأمس .

وفى المطار وفى الصالة المخصصة للرحلات الداخلية كانت لوحة الوصول والمغادرة تعلن عن رحلتى ورحلة أخرى ، وكانت اللوحة تعمل بالكهرباء وكانت من صنع ايطاليا كما تشير إلى ذلك احدى الإشارات وكانت هذه اللوحة إحدى المعدات الحديثة تشبه اللوحات التى رأيتها فى كل من لندن وبروكسل . ولكن كان هناك بجوار مكاتب الفحص وآلات الميزان هذه الضجة المعتادة وازدحام الأشياء التى تم فحصها مع الصياح والفوضى .

كانت معى تذكرتى سليمة ، لكن اسمى لم يكن فى قائمة المسافرين ، وكان لابد من دفع بضعة فرنكات ، ولكنى وبينما كنت أتهيأ إلى الدخول لركوب الطائرة استوقفنى أحد رجال الأمن فى ملابس مدنية وطلب منى فحص أوراقى بمعرفته ثم قرر أن يتم فحصها ثانية وبطريقة دقيقة ، وبدا عليه أنه غاضب جدا وأرسلنى لكى أنتظر فى حجرة صغيرة خالية وكان هذا سلوكا نمطيا يعنى بعد الغضب والنظرة المتجهمة والحجرة الخاصة أن هذا الموظف المتوسط المرتبة يريد أن يأخذ منك بعض النقود ! !

لكن هذا الرجل لم يأخذ شيئا لأنه تصرف بغباء حقيقى وتركنى فى الحجرة الصغيرة منتظرا لمدة طويلة دون أن يأتى لأخذ مايريد حتى أنه تسبب فى تأخير الرحلة حيث جاء أحد رجال الطيران الذى يعرف على ما يبدو مكانى واندفع إلى الغرفة وصاح إلىّ طالبا من أن أخرج على الفور جريا على طريق الأسفلت إلى الطائرة وكنت آخر راكب كما كنت محظوظا كذلك بعد أن لحقت بالطائرة .

وكانت رحلة بسيطة تستغرق ساعتين بما فى ذلك التوقف فى منتصف الطريق ، وبدا لى من خبرتى بالطيران الدولى أننا بدأنا لتونا فى الطيران فوق السحاب الأبيض حينما بدأنا النزول نحو هذه المحطة للتوقف . ورأينا أننا كنا نسير بحذاء النهر الذى بدا بنى اللون بدوائر وتعاريج وكانت تحطه من على الارتفاع الذى كنا نحلق فيه العديد من القنوات التى تمشى بين جزر نحيفة من الخضرة .

وحينما هبطنا أخبرونا بأنه يتعين علينا أن نغادر الطائرة ، وذهبت إلى مبنى صغير على حافة المطار وبينما نحن هناك رأينا الطائرة تدور وتمشى ثم تطير بعيدا ، وكان السبب أنها مطلوبة لخدمة الرئيس وأنها سوف تعود بعد انتهاء هذه الخدمة ، وكان علينا أن ننتظر منذ العاشرة صباحا حتى ما بعد الظهر ونحن فى حرارة الجو نعانى القلق والضيق لكننا استسلمنا للانتظار .

وكنا فى وسط إحدى الغابات المحيطة بالأرض الممهدة للمطار على البعد هناك الأشجار الكثيفة تحدد مسار النهر . كشفت الطائرة كيف أن المسار معقد وكيف أن من السهل أن يتوه فيه الانسان حينما تضيع منه الساعات فى الابحار فى قنوات تأخذك بعيدا عن المجرى الرئيسى للنهر . وهناك وليس ببعيد عن النهر ببضع أميال يعيش الناس فى قرى كما كانوا يعيشون منذ عدة قرون بصورة أو بأخرى ، ومنذ أقل من ثمان وأربعين ساعة كنت فى الشارع المزدحم لـ « جلوشستر رود » حيث يتلاقى العالم ، والآن ولمدة ساعات فإننى أظل أحملق فى الغابة وأنا لا أعلم كم من الأميال تفصلنى عن العاصمة وعن مدينتى أيضا ؟ وكم من الوقت يتعين علىّ أن أقضيه للوصول إلى أى منهما برا أو بحرا ؟ كم من الأسابيع وربما الشهور ووسط أى مخاطر محتملة ؟

بدأت السحب تغطى السماء ثم تحولت السحب والغابة إلى اللون الداكن . وبدأت السماء تضطرب بالبرق والرعد ثم جاءت الأمطار والرياح لتدفعنا من الردهة الخاصة بالمبنى الصغير ، واختفت الغابة بين الأمطار والعاصفة وكانت هذه الأمطار هى التى تغذى هذه الغابات التى تجعل العشب والحشائش الخضراء تلتف حول مبنى المطار هكذا ، ثم خفت حدة الأمطار وانقشعت السحب قليلا وعادت الغابة لتكشف عن نفسها من جديد خطا من الأشجار وراء خط بين الألوان القاتمة والرمادية للسماء والأفق .

وحينما دخلنا القاعة هربا من المطر والرياح وجدنا زجاجات البيرة الفارغة على الموائد المعدنية ولم يكن هناك كثير من الناس يتحركون فى المكان حيث وجد كل واحد المكان الخاص بى للبقاء ولم يكن هناك من يتحدث كثيرا . وكانت السيدة البلچيكية التى وجدناها فى المبنى منتظرة رحلتنا لتلحق بنا مستغرقة فى قراءة إحدى الروايات حتى أنها نسيت كل شىء عن الغابة والطقس وعاشت بخيالها فى مكان آخر .

وتوقفت السماء عن المطر لكنها ظلت داكنة اللون فى ظلمة ما بعد الظهيرة ثم بدأت الطائرة فى الظهور فى السماء كخط من الدخان البنى أول الأمر حتى نزلت أرض المطار المبتلة ثم توافدنا عليها بعد طول الانتظار .

وارتفعت بنا الطائرة مرة ثانية ورأينا النهر وهو يعكس البقية الباقية من الضياء وكان يبدو أحمرا ذهبيا وظللنا نتابعه على مدى عدة أميال حتى تحول إلى خط صاف داكن بين الغابات الداكنة ومضينا فى رحلتنا ، وكانت هذه الرحلة التى بدت فى الصباح رحلة بسيطة تحولت الآن إلى شىء بعيد المسافة والوقت حتى أننى أحسست أننى أسافر منذ عدة أيام وحينما نزلنا إلى مدينتنا أحسست بالدهشة من أننى كانت لدىّ الشجاعة أن أعيش طيلة هذا الوقت فى مكان بعيد كل هذا البعد .

وأخذنى سائق التاكسى عبر طريق المطار ثم مررنا بأحد الأبنية المحترقة والتى كانت فى الأصل مدرسة ابتدائية لم أكن قد لاحظت هذه البقعة المخربة لولا أن أشار إليها السائق ، وكانت الانتفاضة وجيش التحرير مازالا قائمين ، لكن هذا لم يقلل من إحساسى بالراحة ، لوجودى فى المدينة وأنا أرى بنفسى بعد الوصول فى شارعى الخاص حقيقيا وعاديا كما كنت دائما رغم لمسة الكآبة التى ظلت عالقة بى من جراء مشاهدة الغابة .

ولقد صدمت من مقابلة « ميتى » لى ذلك أننى كنت أتوقع منه ترحيبا حارا وكنت أتوقع منه أن ينزل إلى أسفل المنزل بمجرد سماع صوت التاكسى واغلاق الباب وحديثى مع السائق غير أنى وجدت « ميتى » واقفا خارج حجرته ثم قال لى حينما رآنى : « أننى لم أكن أتوقع أن أراك ثانية ياسيدى » وهكذا تحولت الرحلة كلها إلى مذاق مر .

وكان كل شىء فى الشقة على ما يرام من الترتيب وكانت حجرتى الجلوس والنوم الخاصة بى مرتبة أكثر من اللازم وهو ما جعلنى أحس أن « ميتى » قد مد من نطاق حياته داخل المنزل فى غيبتى ، غير أن البرقية التى بعثت بها إليه من لندن عن حضورى جعلته يتراجع عن ذلك .

وجاءنى « ميتى » بقهوة الصباح ثم قال لى : « أننى أفترض أنك تعرف لماذا عدت ثانية يا سيدى »

وقلت له : « لقد قلت هذا ليلة أمس »

وقال : « لأنه لم يعد لك شيء تعود إليه ، ألا تعلم ذلك ؟ ألم يخبرك أحد في لندن ؟ ألم تقرأ الصحف ؟ انك الآن لا تملك شيئا ، لقد أخذوا منك المحل وأعطوه إلى المواطن « تيوتيم » . لقد ألقى الرئيس خطابا منذ أسبوعين وقال أنه يتحرك في سياسته إلى الثورة وأنه قرر أن يأخذ كل شيء من كل الناس وكل الأجانب ، وفي اليوم التالي وضعوا أحد الأقفال فوق الباب وبعض الأبواب الأخرى كذلك ، ألم تقرأ هذا في لندن ؟ أنه لم يعد لديك أي شيء وأنا لم يعد لديّ أي شيء كذلك ، لا أعرف لماذا جئت ثانية ، انني لا أعتقد أن ذلك كان من أجلي أنا » .

كان « ميتي » في حالة سيئة وكان وحده وحيدا وكان منزعجا وينتظر عودتي إليه ولهذا كان يحاول أن يستثير ردا غاضبا كما كان يحاول أن يدفعني إلى إعلان إيماءة تعين له الإحساس بالحماية لكنني كنت ضائعا مثلما كان هو كذلك .

كنت قد لاحظت كلمة « التحول الثوري » منذ يومين في العاصمة في إحدى الصحف لكنني لم أتوقف عندها ، ظننت أنها كلمة أخرى ضمن الكلمات العديدة لدينا التي نسمع عنها ، والآن فقط أستطيع أن أفهم أن كلمة « التحول الثوري » كانت حدثا ضخما وجديدا .

كانت كما قال « ميتي » أن الرئيس قد قفز في إحدى قفزاته المفاجئة ، هذه المفاجئة تخصنا نحن أنا وآخرين مثلي قد تم تأميم ممتلكاتنا ، وتوقفت أعمالنا عن أن تصبح خاصة بنا بحكم القانون ثم تحويل هذه الممتلكات بأمر الرئيس إلى مالكين آخرين يطلقون عليهم اسم « أوصياء الدولة » ولقد تحول المواطن « تيوتيم » إلى وصي على ممتلكاتي وقال « ميتي » أن الرجل كان يقضي أيام الأسبوع الأخير داخل المحل الخاص بي .

وقلت له : « ماذا يفعل في المحل ؟ »

قال « ميتي » أنه ينتظرك أنه سوف يعينك مديرا للمحل ، أليس من أجل هذا جئت يا سيدي ، ولكنك سوف ترى لاتتعجل فإنه لا يبدأ العمل في وقت مبكر .

حينما ذهبت إلى المحل وجدت مخزون البضائع التى أتت خلال الأسابيع الستة الماضية قد وضعت فى المحل بالطريقة التى كنت أفعلها دون تغيير ، لكن مكتبى تغير مكانه الذى كان بجوار العمود فى مدخل المحل إلى حجرة المخزن فى داخل المحل وقال « ميتى » أن ذلك قد حدث منذ اليوم الأول وأن المواطن « تيوتيم » قد جعل المخزن هو مكتبه لأنه يحب هدوء الوحدة .

انتظرت « تيو » . وحينما أتى استطعت أن أرى كم بدا مرتبطا وكانت لغته الأولى حينما رآنى من خلال الزجاج هو أن يمشى خارج الباب ، كنت أعرفه منذ عدة سنوات كميكانيكى للعربات الخاصة بمديرية الصحة ، ثم ارتفع سياسيا إلى درجة ما ليست عالية جدا بسبب بعض ارتباطاته القبلية ، وهو يجد صعوبة أن يكتب اسمه ، وكان عمره حوالى الأربعين وليس هناك ما يميز شكله غير وجهه العريض الداكن اللون والذين يبدو كقطعة من الأسفنج من تأثير الشراب ، أنه سكران الآن من شرب البيرة وليس من شرب الويسكى ، ولم يكن يلبس الملابس الرسمية المخصصة لمنصبه وهى السترة ذات الأكمام القصيرة وربطة العنق واكتفى بلبس البنطلون والقميص وكان يبدو عليه أنه رجل متواضع .

كنت أقف حيث كان مكتبى سابقا وكنت أرى كيف أن قميص « تيوتيم » كان مبللا بالعرق وكان منظره مثل رجل أضاف مزيدا من الشراب بعد آثار شراب سابق قال لى :

« مستر سالم ، سالم أيها المواطن ، عليك ألا تأخذ هذا الموضوع بصفة شخصية ، لقد جاء رغم أى رغبة خاصة بى ، تعلم أننى احتفظ لك بعظيم الاحترام ، لكنك تعلم طبيعة الموقف ، أصبحت « الثورة » متعفنة بعض الشىء بعد صبر شبابنا كان هذا ضروريا ، كنا نتوقع الكثير من الرئيس ولم يكن هناك أحد يريد أن يضطلع بالمسئولية ، وها هى المسئولية قد فرضت على الناس ، ولكنك لن تعانى بأى شكل ذلك أن تعويضا كافيا سوف يتم دفعه وسوف تعد بنفسك تقدير قيمته كما سوف تستمر كمدير للأعمال ، وسوف يستمر العمل كما كان فى السابق ، الرئيس يصر على ذلك لن يعانى وسوف يكون مرتبك عادلا ، وبمجرد وصول المفتش العام فسوف تتم الاجراءات .

وبعد هذه البداية المترددة والتى تكلم فيها بصورة شبه رسمية كما لو كان قد أعد هذه الكلمات بدت عليه ثانية علامات الارتباك وكان ينتظر منى أن أقول شيئا لكنه غير رأيه وذهب إلى مكتبه فى مخزن المحل ومضيت أبحث عن « ماهيشن » فى محله القديم .

وكان العمل يجرى فى محل « ماهيشن » كالمعتاد وكان « ماهيشن » يدير ماكينة صناعة القهوة ، وكان مساعده « فونس » يتحرك فى خفة لخدمة طالبى الأفطار المتأخرين ، أصابتنى الدهشة لما رأيت .

قال « ماهيشن » : هذا المحل كان شركة افريقية منذ عدة سنوات ، ولا يمكن تطبيق قوانين الثورة عليها أكثر من ذلك . اننى أدير المحل لـ « فونس » ونفر قليل آخرين ، لقد كونوا هذه الشركة الأفريقية وأعطونى جزءا بسيطا منها كمدير لها ثم اشتروا العقد منى وكان هذا خلال أيام الرواج ، وهم مدينون للبنك بالكثير ، حدث هذا فى العديد من الأماكن بعد أن باع « نوامون » إلى الحكومة أعطانا هذا فكرة عن كيف تهب الريح وفى أى اتجاه وقرر بعضنا تعويضا مقدما وكان هذا شيئا سهلا حينذاك وكانت البنوك تفيض بالأموال .

قلت له : « لكن لم يخبرنى أحد بهذا »

« لم تكن هذه هى نوع الموضوعات التى يتحدث عنها الناس كثيرا كما أن أفكارك كانت متجهمة إلى غير ذلك »

وكان هذا صحيحا حيث كانت هناك جفوة باردة بيننا فى ذلك الوقت وبخاصة بعد رحيل « نوامون » .

قلت : « وماذا عن محله يتقولى » كل معدات المطبخ الحديثة هناك وهو يستثمر كثيرا جدا » .

« أنه مشلول بالديون ولا يوجد افريقى فى عقله السليم يود أن يكون وصيا على هذا المحل » .

وقضيت بقية الصباح فى محل « ماهيشن » البيج بيرجر ، وكان غريبا منى أن أضيع يوم عمل فى الثرثرة وأنا أعطى الأنباء وأطلب الأنباء اراقب الداخلين والخارجين من المحل وفندق فان دير فايدن على الطريق وكنت أحس طيلة الوقت أننى منفصل عن حياة المدينة .

لم يكن لدى « ماهيشن » الكثير ليقول لى عن « شوبا » فلم يكن هناك أى تغيير فهى مازالت تختبىء نتيجة التشوه فى شقتها لكن « ماهيشن » لم يعد يحارب ضد هذا الموقف ولم يصبح متضايقا بسببه ، ولم يكن موضوع سفرى إلى لندن قد جعله غير سعيد كما كنت متخوفا ، بعض الناس يسافرون وبعضهم يذهب بعيدا ولكنه لا يفعل مثلهم ، وكان الموضوع بالنسبة له على هذا القدر من البساطة .

أصبحت مديرا لـ « تيوتيم » وبدا عليه أنه سعيد ومرتاح لهذا ولقد وافق على الأجر الذى حددته لنفسى ، وقمت بشراء منضدة وكرسى ووضعتهما مكان المكتب القديم بجوار العمود فى واجهة المحل ، وقضيت عدة أيام أجمع الفواتير القديمة وأفحص المخزون من البضاعة وأعد قائمة الجرد .

ذكرتنى قائمة الجرد ما خسرته فى نهاية المطاف ، كان لى فى أحد بنوك أوروبا حوالى ثمانية آلاف دولار جاءت من تعاملاتى بالذهب فى الأيام الماضية ، تركت هذا المبلغ حتى تعفن وفق قيمته ، وكأننى هناك . أيضا الشقة فى المدينة التى لم يوجد لها مشتر ولكن العربة تستطيع أن تأتى بعدة آلاف من الدولارات . كما أن لى حوالى نصف مليون فرنك فى العديد من البنوك بما يساوى حوالى ١٤ ألف دولار بالسعر الرسمى ، هذا هو كل شىء لم يكن شيئا كبيرا ، ويتعين علىّ أن أعمل أكثر من ذلك . وبأسرع ما يمكن حتى أذهب بعيدا عن البلاد .

وبصفتى مديرا للمحل أتيحت لى بعض الفرص ولكنها لم تكن غير عادية ، وهكذا بدأت أعيش فى شىء من الخطر وبدأت أتعامل فى الذهب والعاج وكنت أشترى وأخزّن وأبيع أو أنوب عن متعاملين كبار الذين كانوا يدفعون لى فى حسابى فى أوربا مباشرة ، وكان متعهدى البيع لى من الموظفين الرسميين أو رجال الجيش وكان هؤلاء ناس من الخطر التعامل معهم ، ولم يكن العائد كبيرا كذلك .

وكان من الممكن عمل النقود ولكن موضوع اخراجها من البلد كان شيئا أخر ، وكان اخراج النقود من بلاد كهذه ممكنا إذا ما كنت تتعامل فى كميات كبيرة جدا ولديك بعض كبار الموظفين أو الوزراء الذين يساعدون فى مقابل نسبة فى المائة كفائدة لهم . ولم يكن هناك نشاط كبير فى العمل فى هذا الوقت ولذلك أعتمدت على الزوار الذين يحتاجون العملة المحلية

لبعض الأغراض وكان علىّ أن أثق فى هؤلاء لأن يدفعوا لى المقابل بالعملة الأجنبية حينما يعودوا إلى أوروبا أو أمريكا .

وكان هذا النوع من التعامل بطيئا ومهينا ، وأود أن أقول أننى اكتشفت بعض القوانين عن السلوك الإنسانى وأصبحت أعرف بالتجربة أن الناس من طبقة وبلد معين جديرين بالثقة وأن طبقة وبلدا آخر ليسو جديرين بهذه الثقة ، وهو ما كان يعنى فى نهاية المطاف مجرد المقامرة ولقد نتج عنها أننى خسرت ثلثى أموالى بهذه الطريقة أعطيتها للغرباء .

وفى إحدى المرات كنت فى أملاك الدولة التى أزورها كثيرا للتعامل مع الأجانب فيها رأيت أن منزل « رايموند » و« ايفيت » قد سكنه شخص جديد وهو افريقى ، وكان المنزل مغلقا منذ عودتى ولقد ذهب « رايموند » و« ايفيت » ولم يعرف أحد بما فى ذلك « ماهيشن » إلى أين أو فى أية ظروف كان ذهابهم .

ولقد أحسست بالسعادة من أجل « رايموند » لأنه سافر بعيدا لأنه ما كان ليحس بالأمان لا فى أملاك الدولة ولا داخل المدينة فى الوقت الراهن ، ولقد كانت الشهرة المثيرة عنه والتى التصقت به أخيرا من أنه هو الرجل الأبيض الذى يمشى قبل الرئيس والذى يأخذ على نفسه الأشياء السيئة التى تقع على الرئيس كفيلة بتشجيع جيش التحرير على قتله وبخاصة الآن حينما يتردد أن الرئيس يخطط لزيارة المدينة وأن المدينة تتخذ الاستعدادات المناسبة لهذه الزيارة .

ثم نقل تلال القمامة بعيدا عن وسط المدينة كما تم رصف وتسوية الشوارع المليئة بالنتوءات والحفر ، أضف لذلك الدهان حيث كان هناك فى وسط المدينة لطلاء الأسمنت والخشب والمصيص ، بينما يتقاطر الدهان على الأرصفة ، ويحدث هذا والغابة فى حالة حرب وقتال والمدينة فى حالة انتفاضة وتمرد ويشهد الليل الحوادث يوميا ولكن وسط المدينة يتحول فجأة إلى ما يشبه الكرنفال .

- ١٧ -

كان المواطن « تيوتيم » يأتى كل صباح بعيون محمرة وسحنة معذبة مسرعا إلى بيرة الافطار ومعه بعض الكتب الفكاهية والروايات المصورة ليتسلى بها على مدى ساعات العمل بالمحل ، وكان هناك فى المدينة نظام غير رسمى لتبادل المجلات مما جعل « تيو » يأتى ومعه شىء جديد دائما ينظر إليه . وكان - ويا للغرابة - يأتى بمجلاته ورواياته وقد طواها بصعوبة وقد ظهرت عليه أمارات السلطة كرجل أعمال حينما يدخل إلى المحل ، وكان يدخل مباشرة إلى حجرة المخزن ويستمر هناك طوال فترة الصباح دون أن يخرج مرة واحدة ، وفى بداية الأمر كنت أظن أنه يفعل ذلك كى يترك لى الفرصة للعمل دون ازعاج أو مشكلات . ولكنى أدركت فيما بعد أنه لا يعانى أى صعوبة فى عمل ذلك وأنه يحب أن يظل فى حجرة المخزن المظلمة دون أن يعمل شيئا غير النظر فى مجلاته كلما أحس بالرغبة فى ذلك مضيفا إلى هذا شرب البيرة فى صمت .

وفيما بعد حينما أصبح أكثر صراحة وأقل خجلا منى بدأت حياته داخل المخزن تصبح أكثر امتلاء بدأت تزوره بعض السيدات وكان ذلك إرضاء لرغبته أن يأتوا ويرونه كمدير حقيقى له موظفين تابعين له ومكتب وكان ذلك يسعد السيدات كذلك ، وكانت بعض الزيارات تستغرق وقت ما بعد الظهيرة كله ويقضيها « تيوتيم » وضيفته فى الثرثرة كما يفعل الناس أثناء سقوط الأمطار وهم يحتمون منها مع بعضهم البعض ويتخلل ذلك فترات من الصمت والحملقة فى اتجاهات مختلفة .

كانت هذه الصورة من الحياة حياة سهلة لـ « تيوتيم » لم يكن يحلم بها حينما كان ميكانيكيا فى وزارة الصحة . ولكنه بعدما حصل على الثقة فى نفسه وفق إحساسه بالخوف أن المحل لن يأخذه منه الرئيس مرة ثانية أصبح صعب المراس .

بدأ يحس بالقلق وعدم الراحة أنه بوصفه مديرا لا يحصل على سيارة وربما أتته هذه الفكرة من قبل إحدى السيدات أو ربما كان ذلك بسبب إحساسه بالحاجة لأن يكون مثل بقية الأوصياء أو ربما كان مصدر هذه الفكرة هي المجلات الفكاهية التي يتصفحها ، ولأني امتلك عربتي الخاصة فلقد بدأ يطلب مني توصيله إلى بعض الجهات ثم بدأ يطلب مني أن احضره من وإلى البيت . كان في وسعي أن اقول له لا ولكنني قلت لنفسي انها شيء بسيط وأستطيع به أن أضمن سكونه وسكوته ، وأصبح هذا المشوار يتكرر أربع مرات في اليوم الواحد ذهابا وإيابا وكان يجلس في المرات الأولى في المقعد الأمامي ثم تعود بعد ذلك أن يجلس في المقعد الخلفي . لكنه لم يستمر على سكونه طويلا ربما ذلك بسبب تبسطي ورغبتي أن أظهر بمظهر الشخص المهان ، وهكذا بدأ في البحث عن طرق جديدة لتأكيد ذاته ، وكان أصعب مافي الأمر الآن أنه لم يعرف ماذا يفعله وربما يحب أن يمارس دوره وأن يستولى على إدارة المحل أو ان يحس على الأقل بأنه يدير المحل إلى جانب استمتاعه بحياته في حجرة المخزن بين المجلات والبيرة .

وكان شيئا غريبا . أنه يريد في أن أظهر اعترافي به كرئيس في العمل وإدارة المحل ، يريد مني الاحترام والصبر على تحمله وحتى إحساسه بالشفقة له . يظهر لي الكثير من أشكال السلطة إذا ما حاولت أن أعطيه الإحساس بأنني تابع له ، قمت بعرض احد المستندات البسيطة عليه وكان يأمل على أقل الفروض في أن يحصل من جراء إظهار هذه السلطة عليّ أن يحصل مني على بعض التنازلات مثل ماحدث في موضوع العربة ، لم يكن الموضوع مجرد فكاهة وكنت قد قررت أن أحتفظ بهدوئي بشأن موقفي الجديد داخل المحل وأن أركز جهدي على الهدف الذي خططته لنفسي لكن الأمر لم يعد هينا عليّ وأصبح المحل مكانا كريها لا يطاق بالنسبة لي .

وكان الموضوع بالنسبة لـ « ميتي » أكثر سوءا ، وكانت الخدمات الصغيرة التي يقوم بها لـ « تيوتيم » قد أصبحت أشياء مقررة ثم بدأت تزداد وتزداد ، وبدأ « تيوتيم » يرسل « ميتي » في مهمات بلا معنى تقريبا من أجل إظهار سلطته فحسب .

وفي إحدى الأمسيات حينما عاد إلى الشقة بعد زيارته لعائلته جاء

« ميتى » إلى حجرتى وقال : « لن أتحمل المزيد يا سيدى . سوف افعل شيئا رهيبا يوما من الأيام إذا لم يتوقف « تيوتيم » عن أعماله معى أننى سوف أقتله ولسوف أفضل الفلاحة بالفأس على أن أكون خادمة .

قلت له : « الأمر لن يستمر طويلا »

قال « ميتى » وهو مشحون بالانفعال وقد أوشك على البكاء : « ماذا تعنى بذلك ؟ ماذا تعنى بذلك ؟ » ثم ذهب إلى حجرته .

ذهبت فى الصباح لأحضر « تيوتيم » بعربتى إلى المحل ، وكان « تيوتيم » كرجل ميسور الحال وذى نفوذ له ثلاث أو أربع عائلات فى أماكن مختلفة من المدينة .

كنت حينما أضرب الكلاكس له يخرج جمع حاشد من النساء والأطفال من العديد من المنازل ليشاهدوا « تيوتيم » يمشى إلى العربة ومعه المجلات الفكاهية المطوية تحت ذراعه ثم يتظاهر بمظهر من يتجاهل هؤلاء النظارة ليبصق على الأرض مرة أو مرتين ويمشى بعينين محمرتين من تأثير البيرة ثم يبدو عليه أنه مهموم الوجه .

قلت له وأنا أسوق العربة وسط الشوارع الرئيسية التى أصبح كل منزل فيها مدهونا بلون واحد لكل المنزل بنوافذه وأبوابه وواجهته بينما المنزل الآخر قد دهن بطلاء مختلف استعدادا لمقدم الرئيس : « أريد أن أحدثك عن المواطن « تيوتيم » وعن واجباته فى المؤسسة الخاصة بنا ، أنه كما تعلم مساعد لمدير المؤسسة وليس موظفا عموميا »

وكان « تيوتيم » مستعدا لهذا وقال لى كما لو كان قد أعد خطابا خاصا بالموضوع : « أنك تدهشنى أيها المواطن ، أننى أنا الوصى الحكومى المعين من قبل الرئيس ، والمواطن « ميتى » هو مستخدم داخل هذه المؤسسة الحكومية وأنا وحدى الذى أقرر لهذا المخلط ماذا يعمل » وأصبحت ألوان المبانى المختلفة الزاهية هى ألوان لغضبى وإحساسى بالغم من جراء إجابة « تيوتيم » .

بدأت أصبح صغيرا وأصغر فى عيون « ميتى » والآن فإننى خذلته تماما ولم يعد فى وسعى أن أمنحه الحماية البسيطة التى كان يطلبها منى ،

وهكذا أصبح العقد غير المكتوب بينى وبين « ميتى » أو بين عائلته وعائلتى قد انتهى أمره ، بدا عليه أن يفهم هذا وهو ما جعله يفقد توازنه .

بدأ يقول لى : سوف أقوم بعمل شىء فظيع يا « سالم » ويجب عليك أن تعطينى بعض المال ، أعطنى المال ودعنى أذهب بعيدا ذلك أننى أحس انى سوف أفعل شيئا فظيعا .

وواصل « ميتى » الذهاب إلى المحل وإلى « تيوتيم » واستمر فى إحساسه المتزايد بالألم ، وحينما طلب منى فى إحدى الأمسيات أن أعطيه نقودا كى يذهب بعيدا قلت له وأنا أستعرض لنفس الموقف فى المحل محاولا أن أجد كلمات مهدئة لغضبه : « الأمر لن يستمر إلى الأبد يا « ميتى » حينئذ صاح قائلا : « سالم » ثم لم يأت لى بالقهوة فى صباح اليوم التالى ولأول مرة .

حدث هذا فى بداية الأسبوع ، وبعد ظهر يوم الجمعة وبعد إغلاق المحل وتوصيل « تيوتيم » إلى حوش منزله عدت إلى الشقة وقد باتت مكانا محزنا لى الآن ولم أعد أفكر فيها على أنها ملكى ، وكنت أحس بالغثيان من هذه الألوان الجديدة المبهرجة للمدينة منذ ذلك الصباح الذى كنت أوصل « تيوتيم » فيه بالعربة ، وكانت هذه ألوان مكانا أصبح غريبا بالنسبة لى كما أحسست بأننى بعيد عن كل مكان آخر . امتد هذا الإحساس بالغرابة إلى كل شىء فى الشقة ، وكنت أفكر فى الذهاب إلى النادى الهيللينى أو مابقى منه حينما سمعت صوت اصطفاق أبواب إحدى السيارات .

نزلت إلى الدور الأرضى ورأيت البوليس فى حوش المنزل ، وكان هناك أحد الضباط الذى يدعى « بروسبر » وكنت أعرفه ، وكان معه رجلان يحمل أحدهما جاروفا والآخر مذراة كانوا يعرفون ما أتوا إليه وكانوا يعرفون بالتحديد اين سوف يحفرون تحت السلم الخارجى وكان هناك بعض قطع العاج من سن الفيل .

كان عقلى يعدو محاولا ربط الموضوعات ، قلت لنفسى فى التو « ميتى » ! ! آه يا « على » ماذا فعلت بى ؟ وأدركت أنه مهم أن يعرف شخص ما بالموقف . وكان « ماهيشن » ولا أحد غيره وهو موجود الآن فى شقته ، ذهبت إلى حجرة النوم وتحدثت فى التليفون . ورد « ماهيشن » ولم يكن لدى من الوقت أكثر كى أقول له : « إن الأمور سيئة هنا » . ذلك قبل أن

أسمع صوت الأقدام قادمة إلى أعلى ، ثم وضعت السماعة وذهبت لأرى « بروسبر » ذا الوجه المستدير وهو يصعد إلىّ مبتسما ، تراجعت وأنا أرى الوجه المبتسم وهكذا تحركنا دون أن نقول شيئا إلى الممر قبل أن أقود « بروسبر » إلى حجرة الجلوس البيضاء ، لم يستطع أن يخفى سعادته ولمعت عيناه ولم يكن قد قرر بعد ما سوف يفعله أو ما سوف يطلبه منى .

قال : « سوف يأتى الرئيس فى الأسبوع القادم ، هل تعرف هذا ؟ . الرئيس مهتم بالمحافظة على الطبيعة وهو ما يجعل الأمر بالنسبة لك بالغ الخطورة . قد يحدث لك أى شىء إذا ما أرسلت تقريرى وهذا سوف يكلفك بضعة آلاف . بدا هذا شيئا متواضعا فى تقديرى ولكنه أحس بارتياحى فاستطرد ليوضح الموضوع وقال : « لا أتحدث عن الفرنكات ولكن الدولارات .. نعم أن هذا سوف يكلفك ثلاثة أو أربعة آلاف دولار .

وكان هذا شيئا مثيرا للغضب وكان الضابط يعلَم هذا ، وفى الأيام الماضية كانت خمسة دولارات تعتبر شيئا طيبا وفى فترة الرواج كنت تستطيع أن تقضى حاجات كثيرة فى مقابل خمسة وعشرين دولارا . وتغيرت أشياء كثيرة منذ وقوع الانتفاضة بطبيعة الحال وأصبحت بالغة السوء بعد الخط الثورى وأصبح كل واحد أكثر طمعا ويأسا فى الطلب ، وكان هناك الإحساس بأن كل شىء يتدهور سريعا وأن حالة من الفوضى باتت وشيكة كما بدأ بعض الناس فى التعرف على أن النقود لم تعد لها أى قيمة ، وحتى هذا فلم يكن الموظفين من أمثال « بروسبر » يتحدثون عن أرقام تتجاوز المائة دولار أو عدة مئات .

قلت له : « لا أملك مثل هذه النقود » .

قال لى : « لقد فكرت فى أنك سوف تقول هذا ، الرئيس قادم فى الأسبوع المقبل ، ونحن نقوم بأخذ عدد من الناس فى الحجز الاحتياطى . وهذا ما سوف يحدث لك ، إننا سوف ننسى موضوع العاج فى الوقت الراهن ولكنك سوف تبقى فى الحجز حتى يغادر الرئيس المدينة ، واعتقد أنك سوف تقرر حينئذ أنك تمتلك النقود »

قمت بجمع بعض الأشياء على عجل ووضعتها معافى قطعة من القماش ثم قادنى « بروسبر » بعربته اللاندروفر عبر الشوارع المتلألئة الألوان إلى

مقر البوليس وهناك تعلمت الانتظار ثم قررت أن أبعد كل أفكارى عن المدينة وأن أتوقف عن التفكير فى الوقت وأن أقوم كلما استطعت بتفريغ عقلى تماما من كل شىء .

كانت هناك مراحل متعددة فى تسلسل موضوعى داخل المبنى وابتدأت أنظر إلى « بروسبر » على أنه دليلى فى هذا الجحيم الخاص . وكان يتركنى لفترات طويلة جالسا أو واقفا فى حجرات أو ممرات تلمع بلون الدهان الجديد ، وكان مجيئه إلىّ قد أصبح تقريبا مدعاة لارتيابى بخدوده الممتلئة وحقيبته الأنيقة .

وأصبح الوقت هو المغيب تقريبا حينما قادنى إلى الملحق بالحوش فى خلفية المبنى وهو المكان الذى حضرت إليه مرة لانقاذ « ميتى » والذى أصبح علىّ أن أبقى فيه لعمل الفيش والتشبيه وقبل أن يأخذونى إلى سجن المدينة ، وكانت الوان الحيطان أزرق مغبر كما أتذكر ولكنها الآن أصفر فاتح الصفرة وكانت جملة « النظام قبل كل شىء » قد دهنت مجددا بحروف سوداء كبيرة ، وتركت نفسى لأتأمل الحروف غير المنتظمة ثم صورة الرئيس والسطح غير الناعم للحائط الأصفر وبقايا اللون الجاف فوق الأرضية المحطمة .

كانت الحجرة مليئة بالشبان الذين تم احتجازهم ولقد مضى وقت طويل قبل أن يأخذوا بصماتى ، كان الرجل الذى يشرف على هذه العملية يتصرف كرجل مشغول حتى أنه لا ينظر إلى وجوه هؤلاء الذين يأخذ بصماتهم .

سألت ما إذا كان من الممكن أن أزيل الحبر من على يدى ولم تكن رغبة النظافة هى دافعى كما فكرت بعد ذلك بقدر ما كانت الرغبة فى أن أظهر بمظهر الهدوء وعدم الاحساس بالمهانة وأن الأمور تسير فى شكلها الطبيعى ، وقال الرجل : « نعم » ثم أعطانى طبقا من البلاستيك وقطعة من الصابون المسودة الحافة وطلب منى أن أذهب إلى الحوش لاغسل يدىّ ، واستبد بى الغضب حينما عدت لأرد الصابونة إلى الرجل الجالس على المنضدة وحينما رأيت الآخرين الذين كانوا ينتظرون معى فى الحجرة الصفراء .

لو كانت هناك خطة لكان لهذه الأحداث معنى ما ولو كان هناك قانون لكان أيضا لهذه الأحداث معنى ، ولكن لم تكن توجد هناك لا خطة ولا قانون ، ولكن الموضوع هو إيهام مسرحى ومضيعة للوقت .

يقع السجن على الطريق المؤدى إلى أملاك الدولة وفى الفراغ الموجود فى المقدمة توجد مستعمرة سكنية ، وكان الحائط الأسمنتى للسجن لايزيد فى ارتفاعه على سبعة أو ثمانية أقدام وكانت خلفيته بيضاء اللون حتى انه لم يكن يبدو أنه سجن حقيقى ، وهناك شىء مصطنع وغير مألوف فى هذا السجن الجديد فى هذه المستعمرة الجديدة شىء خشن فى هذا المظهر المؤقت للسجن :

والآن فى نهاية الحارة وبعد أن أطفأت الأنوار وأصوات الراديو الموجودة فى الأكواخ والاكشاك والخمارات فتح باب السجن كى أودع فيه ، وكانت الجدران الخارجية للسجن تلمع تحت الأنوار الكهربية بدهان أبيض جديد ولكن كانت هناك أيضا عبارة « النظام قبل كل شىء » وكتبت بحروف سوداء كبيرة على ارتفاع قدمين ، وأثارت هذه الكلمات الاحساس باللعنة والسخرية فى نفسى وكان هذا هو المتوقع منى وكنت أقول لنفسى اى أكذوبة معقدة قد أصبحت هذه الكلمات ، وكم من الوقت سوف تستغرق عملية الرجوع عن هذه الأكاذيب المتراكمة إلى العمل بما هو بسيط وحقيقى ؟ ! !

هناك خلف بوابات السجن فى الداخل مجرد الصمت والفراغ وحوش كبير وعار وملىء بالغبار فيه أبنية قصيرة خشنة من الأسمنت والحديد على هيئة مربعات .

كانت نافذة زنزانتى التى تمتد فيها قضبان الحديد تطل على حوش عار تضيئه المصابيح الكهربية العالية فوق الأعمدة ، ولم يكن هناك سقف لزنزانتى ولكن غطاء من الحديد المضلع . وكان اليوم هو مساء الجمعة وكان هو اليوم المخصص لالقاء القبض على الناس ولن يحدث شىء أثناء عطلة الأسبوع ، وكان علىَّ أن أتعلم الانتظار داخل سجن أصبح حقيقيا بصورة مفاجئة ومفزع الآن بسبب بساطته الشديدة .

وفى زنزانة مثل زنزانتى تزداد معرفتك بجسدك حتى أنك تبدأ فى

كراهيته ، كما أن جسدك هو كل شيء تملكه وكانت هذه هى الفكرة التى ظلت تطفو خلال غضبى وثورتى .

وكان السجن ممتلئا بالناس وهذا ما اكتشفته صباح اليوم التالى . وكنت منذ فترة قد عرفت من « زابت » وغيرها عن عمليات الاختطاف التى تحدث فى القرى لكننى لم أكن أشك فى أن مثل هذا العدد الكبير من الشبان والصبية قد تم القاء القبض عليهم ، وفى الصحف لم يكن هناك شيء عن الانتفاضة وجيش التحرير لكن السجن أو الجزء الخاص به الذى أنا فيه كان يتعلق بهذا الموضوع وكان هذا شيئا فظيعا .

وبدا السجن فى الصباح المبكر مثل فصل دراسى من نوع ما حيث كان النزلاء يتعلمون بعض القصائد على أيدى العديد من المدربين الذين كانوا من الحراس الذين يلبسون الأحذية ذات العنق ويمسكون بالعصّى ، وكانت هذه القصائد هى أناشيد لمديح الرئيس والعذراء الأفريقية وكان هؤلاء النزلاء الذين يرغمون على ترديد الأناشيد هم الشبان والصبية القادمين من القرى وكان الكثير منهم قد سبق وألقى به فى الحوش حيث تعرضوا إلى سوء المعاملة التى لا أريد أن أوصفها .

وكان هؤلاء وجوه افريقيا ! ! هذه الأقنعة التى تتسم بالهدوء الطفولى الذى أتى بالضربات من العالم ومن الأفريقيين كذلك مثل ما يحدث فى السجن ، ولقد أحسست أننى لم أر هذه الوجوه بمثل هذا الوضوح من قبل ، ورغم أن هذه الوجوه لاتبالى بالمراقبة ولاتبالى بالعطف ولا تبالى بالازدراء فإنها لم تكن فارغة أو سلبية أو مستسلمة .

وطوال اليوم خلال الحرارة المرتفعة للشمس والتى تنخفض كانت تستمر هذه الأصوات حيث كان هناك السوق فيما بعد الحائط الأبيض حيث يوجد العالم الخارجى ، وكانت كل صورة لدىّ عن هذا العالم الخارجى يسممها لنفسى كل ما كنت أراه حولى ، وكان السجن يبدو شيئا غير مألوف لى . وكنت أظن أن الحياة داخل السجن سوف تضارع حياة السوق فى الخارج . توقفت فى إحدى الأمسيات أنا و« ايفيت » أمام أحد الأكشاك اشترى بطاطس حلوة ، وكانت كل هذه الحياة تجرى فى الخارج بينما كان الشبان والصبية هنا يتعلمون النظام والأناشيد للرئيس . وكان هناك سبب لاشتعال غضب الحراس والمدربين ، فلقد سمعت أن حالة إعدام هامة

سوف تجرى وأن الرئيس شخصيا سوف يحضرها حينما يأتى إلى المدينة وأنه حينئذ سوف يستمع إلى الأناشيد التى يغنيها أعداؤه .

جاء الضابط « برسبر » إلىّ يوم الاثنين صباحا وكنت أتوقع أحدا أن يأتى لكننى لم اكن أتوقع « بروسبر » أنه لم يبدو سعيدا . وكانت ومضة الرغبة فى النهب قد اختفت من عينيه ، وجلست بجواره فى سيارته اللاندروفر وقال بنبرة كما لو كانت فيها شىء من الصداقة ونحن نسير بين بوابات السجن : « أرى هذا الموضوع من الممكن تسويته عند يوم الجمعة لكنك جعلته أسوأ بالنسبة لك ، أن المأمور قد قرر أن يهتم اهتماما خاصا بقضيتك ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننى آمل أن تسير الأمور سيرا حسنا بالنسبة لك » .

لم أعرف حينئذ ما إذا كانت هذه أخبار طيبة أم سيئة ، وربما كان هذا المأمور هو « فيردناند » فلقد تم إعلان تعيينه منذ وقت مضى لكنه لم يظهر فى المدينة حتى الآن وربما ألغى تعيينه كذلك ، أما إذا كان هو « فيردناند » على أى حال فإنه لم يكن هذا هو أفضل الأشكال الذى ألقاه بها .

راح « فيردناند » يخطو إلى التقدم إلى العالم ولقد قبل كما أتذكر كل أدواره وعاش فيها جميعا كطالب بالليسيه وكطالب بالمعهد الفنى وشاب جديد من افريقيا وراكب بالدرجة الأولى فى الباخرة وبعد أربع سنوات قضاها كموظف إدارى مبتدىء فى هذه العاصمة التى يسيطر عليها الرئيس فأين سيكون بعد ذلك ؟ وماذا يكون قد تعلم ؟ وأى فكرة سوف يأخذها عن نفسه كواحد من موظفى الرئيس ؟ وفى عينيه ارتفع شأنه وانحط مكانى وقدرى أنا ، وكانت هذه الفكرة تجعلنى أتململ قليلا داخل نفسى وهى معرفة ازدياد الفجوة بيننا كلما تقدم فى السن ، وكنت أفكر غالبا كيف أن الحياة قد أصبحت بالنسبة له جاهزة وسهلة هذا الصبى القروى الذى ابتدأ من لاشىء .

وسلمنى « بروسبر » إلى الموظفين فى المكتب الرئيسى للسكرتارية . وكانت هناك ردهة عريضة حول الفناء الداخلى وكانت الردهة تحجبها من النواحى الثلاث عن الشمس ستائر من البوص ، وكانت هذه الردهة والستائر تعطينى إحساسا غريبا وأنا أمشى بين خطوط الضوء والظلال

مراقبا لها وهى تتحرك فوقى وأنا أمشى ، وأخذنى جندى المراسلة إلى حجرة تتراقص فيها بقع الضوء ثم أدخلت بعد ذلك إلى المكتب الداخلى .

كان « فيردناند » غريبا فى ربطة العنق المنقطة والسترة القصيرة الأكمام وكان منظره العام عاريا بصورة غير متوقعة ، كنت أنتظر شيئا من الأناقة الخاصة أو عاطفية اللقاء وشىء من الصلف أو الاستعراض ، لكن « فيردناند » بدا هادئا ومريضا مثل رجل قد شفى من الحمى ولم يهمه أن يؤثر فى نفسى بسلوكه .

كانت هناك فوق الحائط الأبيض المدهون حديثا صورة كبيرة لوجه الرئيس تملؤه الحياة والصحة ، وتحت هذا الوجه كان « فيردناند » يبدو منكمشا بلا ملامح أو شخصية فى زيه الرسمى الذى جعله يظهر مثل كل هؤلاء الموظفين الذين يظهرون فى الصور الجماعية فى الصحف . رغم كل شىء مثل كبار الموظفين ، تعجبت من تصورى أن يكون « فيردناند » شخصا مختلفا ، وكان هؤلاء الرجال الذين يعتمدون على عطف الرئيس فى كل شىء هم مجرد حزمة من الأعصاب ، وكانت القوة الضخمة التى يظهرونها تسير جنبا إلى جنب مع الخوف الدائم من أن يلحقهم التدمير مما كان يجعلهم غير مستقرين ونصف موتى .

قال « فيردناند » : « أخبرتنى والدتى أنك ذهبت بعيدا ولقد أدهشنى أن أسمع أنك مازلت هنا » .

وقلت له : « إننى ذهبت إلى لندن لمدة ستة أسابيع ولم أر والدتك منذ أن عدت إلى هنا »

ورد علىّ : « لقد تركت العمل ويجب عليك أنت أن تفعل ذلك ، يجب عليك أن تذهب ، يجب عليك أن تذهب فورا فليس هناك شىء لك ، هنا ، أخذوك الآن إلى السجن وهو ما لم يفعلوه من قبل ، هل تعرف معنى ذلك ؟ أنه يعنى أنهم سوف يأخذونك مرة ثانية وثالثة ولن أكون هنا دائما لاخراجك من السجن ، لا أعلم كم يطلب منك « بروسبر » والآخرون ولكن المرة القادمة سوف تكون أكثر ، وها هو ما فى الأمر الآن هل تعرف هذا » تجنبوا أن يفعلوا بك أى شىء فى السجن ذلك لأنه لم يخطر ببالهم أن يفعلوا ولاءهم كانوا لايزالون يفكرون أنك لست هذا النمط من الرجال ، أنك أجنبى وهم

غير مهتمين بك من هذه الناحية ذلك أنهم يضربون رجال الغابة ، ومثلهم يوما ما سوف يعاملونك بفظاظة وحينئذ سوف يكتشفون أنك مثل كل الباقين غيرك ثم تحدث لك أشياء سيئة جدا ، يجب عليك أن تذهب وإنسى كل شيء واذهب ، ليست هناك طائرات ذلك أن كل الطائرات والمقاعد قد تم حجزها للمسئولين القادمين من أجل زيارة الرئيس ، لكن هناك باخرة سوف تقوم يوم الثلاثاء أنها غدا فخذها ذلك أنها قد تكون الأخيرة .. ذلك أن المكان سوف يكون غاصا بالمسئولين ولا تجعل الانتباه ينجذب إليك . ولا تأخذ كثيرا من المتاع ولا تقل لأحد ولسوف أجعل « بروسبر » ينشغل فى المطار »

قلت له : « سوف أفعل ما تقوله ، كيف حالك أنت يا « فيردناند » ؟

قال لى : « عليك ألا تسأل ، يجب عليك ألا تفكر لأنه شيء سيء بالنسبة لك وشيء سيء بالنسبة للجميع ، أنه شيء مرعب ، إنه سيء بالنسبة لـ « بروسبر » وسيء بالنسبة للرجل الذى أعطوه محلك وسيء لكل الناس ، ليس لأى شخص أن يذهب إلى أى مكان ، سنذهب جميعا إلى الجحيم ، وكل شخص يعرف هذا فى عظامه ، نقتل وليس هناك معنى لأى شيء ، وهذا هو السبب أن كل إنسان يبدو مهوسا بنفسه وكل إنسان يريد ان يحصل على أمواله ، ويذهب بعيدا فى فرار ، ولكن إلى أين ؟ هذا ما يجعل الناس يصابون بالجنون حيث يمسون بأنهم فقدوا المكان الذى يريدون الفرار إليه ، ولقد بدأت أحس بنفس الإحساس حينما كنت تلميذا متدربا فى العاصمة ، أحسست بأنه تم استغلالى وأحسست بأننى قضيت العمر فى التعليم من أجل لاشيء ، وأحسست بأننى خدعت كمغفل ، وأن كل ما أعطى لى كان من أجل تدمير نفسى ، وبدأت أحس بأننى أتمنى أن أكون طفلا من جديد وأن أنس كل ما يتعلق بالكتب . أن الغابة تحكم نفسها لكن ليس هناك مكان للذهاب إليه ، لقد كنت فى جولة فى القرى لكنها كانت كابوسا ، إن كل المطارات التى بناها الرجل وكل الشركات الأجنبية التى بناها ليست آمنة فى أى مكان .

كان وجه « فيردناند » كالقناع فى البداية لكنه الآن كشف عن غضبه .

قلت له : « وماذا سوف تفعل أنت ؟ »

« لا أعرف وسوف أفعل ما يجب عليّ أن أفعله » ، ثم واصل حديثه معي : « أما أنت فيجب أن تذهب وتحصل على تذكرة الباخرة ، هناك التقينا أنا وأنت لآخر مرة ، كنت أفكر دائما فى هذا اليوم ، كنا أربعة أشخاص فى منتصف النهار ، شربنا البيرة فى البار ، كانت هناك زوجة المدير التى ذهبت أنت معها ، هناك المحاضر الذى كان صديقا لك . ولقد سافر معى وكان هذا أحسن الأوقات اليوم الأخير يوم الرحيل وكانت رحلة طيبة أصبحت شيئا مختلفا فى نهايتها ، لقد رأيت علما يا « سالم لقد رأيت حلما فظيعا »

ثم استطرد قائلا : « إن عملية إعدام سوف تجرى فى السابعة من الصباح وهذا هو السبب الذى من أجله اجتمعنا ، سوف نشاهد عملية الإعدام ولكن الذى سوف يعدم هو واحد منا لا يعرف ذلك ، أنه يظن أنه سوف يشارك فى مشاهدة الإعدام ، أننا نجتمع فى مكان لا أستطيع وصفه ، ربما يكون مكانا لعائلة ، أحس بحضور والدتى وأحس بالاضطراب . لقد أصبت بالقذارة شيئا بطريقة مخجلة ، وأحاول الآن بكل شكل أن أنظفه أو أخفيه لأننى يجب أن أكون فى مشهد الإعدام فى الساعة السابعة ، ونحن ننتظر الرجل ونحييه بطريقة عادية ، والآن هنا المشكلة فى الحلم ، هل سوف نترك الرجل وحيدا حيث يقاد إلى ساحة الإعدام ، أو أننا سوف تكون لنا الشجاعة على أن نكون معه وأن نتحدث سويا بطريقة ودية حتى النهاية ، وهل سوف نأخذ عربة واحدة أو سوف نمضى كل منا فى عربة منفصلة ؟ »

قلت له : « يجب أن تذهبوا فى عربة واحدة ، لأنكم لو ذهبتم فى عربتين فإن هذا يعنى أنكم قد أصبحتم فى منتصف الطريق لأن تغيروا موقفكم »

قال فى نهاية المطاف : « اذهب واحصل على تذكرة الباخرة »

كان مكتب الباخرة مشهورا بساعاته العصيبة ، جلست على المسند الخشبى خارج الباب حتى أتى الرجل وفتح النافذة ، وكانت الكابينة اللوكس فارغة ولقد حجزتها لنفسى ، وأخذ هذا معظم وقت الصباح ، وكان السوق خارج بوابات الميناء قد بدأ يزدحم ذلك أن الباخرة سوف تصل بعد ظهر اليوم .

فكرت فى أن أذهب إلى رؤية « ماهيشن » لكننى قررت ألا أذهب ،

فالمحل الخاص به مفتوح جدا وفى موقع مركزى من المدينة ، وهناك يوجد الكثير من المسئولين فى وقت الغداء كان غريبا أن افكر فى المدينة بهذا التصور .

تناولت سندويتشا فى محل الـ « تيفولى » الذى بدا فى صالة سيئة هذه الأيام كما لو كان ينتظر القرارات الثورية ، لكنه مع ذلك ظل يحتفظ بجوه الأوربى وكان هناك فنيون أوربيون ومعهم عائلاتهم أمام الموائد وكان هناك بعض الرجال يشربون البيرة فى البار ، وفكرت مع نفسى عما سوف يحدث لهؤلاء الناس ولكنهم كانوا فى حماية ، ثم قمت بشراء بعض الخبز والجبن وبعض المعلبات الغالية وكان هذا آخر رحلة شراء لى فى المدينة ثم قررت أن أقضى بقية الوقت فى الشقة ولم ولن أعمل شيئا آخر ، ولم تكن لدى الرغبة فى أن أذهب إلى أى مكان أو أنظر إلى أى شىء أو أن أتحدث إلى شخص ، حتى مجرد الفكرة فى أن أتحدث بالتليفون لـ « ماهيشن » بدت عبئا نفسيا علىّ .

وبعد الظهر سمعت خطوات على السلم الخارجى وكان « ميتى » ولقد اندهشت فلقد كان يقضى هذا الوقت عادة مع أسرته .

وجاء إلى حجرة الجلوس وقال : « سمعت أنهم أطلقوا سراحك يا « سالم » .

بدا عليه البؤس والاضطراب ، لابد أنه عاش أياما سيئة منذ أن أخطر عنى « بروسبر » وكان هذا هو ما يريد الحديث عنه لكننى لم أكن أريد أن أتحدث عن هذا ، ولقد ذهبت صدمة هذه الأيام الثلاث وبدا أن رأسى مليئة بأشياء أخرى .

لم نتحدث وسرعان ما بدا أنه ليس هناك شىء نتحدث عنه . ولم يكن هناك صمت مثل هذا بيننا من قبل ، قام لبرهة ثم ذهب إلى حجرته ثم عاد ليقول : « عليك أن تأخذنى معك يا « سالم »

قلت له : « إننى لن أذهب إلى أى مكان »

« ولكنك لن تتركنى هنا »

« وماذا عن عائلتك ؟ وكيف لى أن أخذك معى يا « ميتى » ؟ العالم ليس

هكذا فى هذه الأيام فهناك التأشيرات والجوازات . وأستطيع بصعوبة أن أدير هذه الأشياء لنفسى ، لا أعرف الى أى مكان سوف أذهب أو ماذا سوف أفعل ، ليس لدّى المال الكافى وأننى أجد صعوبة فى تدبير أمورى »

قال لى : « الأمور سوف تكون بالغة السوء هنا يا « سالم » لاتعرف ماذا يتحدثون عنه فى الخارج . ولسوف تسوء الأمور أكثر حينما يأتى الرئيس . أولا سوف يقومون بقتل رجال الحكومة وحدهم ، والآن فإن جيش التحرير يقول أن ذلك ليس بكاف ، يقولون انه يتعين عليهم أن يفعلوا ما فعلوه فى المرة السابقة ، ولكن بطريقة أحسن هذه المرة . أولا سوف يقومون بعقد محاكمات شعبية وقتل الناس فى الميادين . والآن يقولون أنهم سوف يقومون بعمليات قتل أكثر وان كل شخص سوف يغمس يديه فى الدماء ، ولسوف يقتلون كل من يعرف القراءة والكتابة وكل من لبس جاكتة وربطة عنق ، ولسوف يقتلون كل السادة ، وكل الخدم وحينما ينتهون فإن أحدا لن يعرف أنه كان هناك مكان كهذا هنا . ولسوف يقومون بالقتل والقتل لأنهم يقولون أن هذه هى الوسيلة الوحيدة للعودة إلى البدايات قبل أن يفوت الوقت ، ولسوف يستمر القتل لعدة أيام ويقولون أنه من الأفضل القتل لمدة أيام بدلا من الموت إلى الأبد ، ولسوف يكون الموضوع فظيعا حينما يأتى الرئيس » .

حاولت أن أهدىء من روعه وقلت له : « دائما يتكلمون هكذا منذ وقوع الانتفاضة يتحدثون عن الصباح حينما ينفجر الوضع كله ككرة من اللهيب ، يتحدثون هكذا لأن هذا هو ما يتمنون حدوثه ، ولكن لايوجد أحد يستطيع أن يعرف ما سوف يحدث ، والرئيس ذكى وحصيف . وأنت تعرف هذا ، لابد أن يكون قد عرف بأنهم يعدون شيئا له هنا ، ولهذا قد يتركهم فى إثارتهم ثم قد لا يجىء ، أنك تعرف الرئيس وتعرف كيف يلعب على الشعب .

قال « ميتى » : « ان جيش التحرير ليس مجرد هؤلاء الصبية فى الغابة يا « سالم » أن كل شخص عضو داخل الجيش كل شخص تراه ، وكيف سوف أدبر الورى وحدى ؟ »

قلت له : « يتعين عليك أن تخاطر فهذا ما فعلناه جميعا أن كل واحد هنا

قد فعل ذلك ، ولست أظن أنهم سوف يضايقونك فأنت لاتخيفهم ، إخفى العربة ولا تغريهم بها ، ومهما قالوا عن العودة للبدايات فإنهم سوف يهتمون بالعربة ، وإذا تذكروا وسألوك عنها قل لهم أن يسألوا « بروسبر » وتذكر دائما أن المكان سوف ينهض مرة ثانية » .

قال « ميتى » : « كيف يتسنى لى الحياة إذن ؟ فى الوقت الذى لا يوجد فيه محل ولست أملك أى نقود ؟ أنك لم تعطنى أية نقود لقد أعطيتها للناس بعيدا عنى حتى حينما كنت أطلب منك » .

قلت له : « يا على ! لقد وزعتها بعيدا أنك على صواب أعرف لماذا فعلت هذا ولقد كان بوسعى أن أعطيك بعضا منها . ولست أدرى لماذا لم أفعل ، لم أفكر أبدا فى هذا لم أفكر فيك على هذا النحو ، بدأت لتوك أن تجعلنى أفكر فى هذا ذلك قد يدفعك إلى الجنون . لماذا لم تخبرنى ؟ »

ظننت أنك تعرف ما تفعل يا « سالم » .

« لا . لم أفعل ولست أعرف الآن ، ولكن بعد أن ينتهى الأمر فلسوف يكون لديك الشقة والعربة ، ولسوف تساوى العربة الشىء الكثير إذا ما احتفظت بها ، ولسوف أرسل لك نقودا من خلال « ماهيشن » وسوف يكون ذلك سهل التدبير » .

ولم تريحه هذه الكلمات رغم هذا ، لكن ذلك كان هو كل ما أستطيع أن أفعله الآن ، أحس هو بذلك ولم يستمر فى الضغط علىّ أبعد من هذا ثم قام وذهب إلى عائلته ..

وفى النهاية لم أقم بالحديث بالتليفون إلى « ماهيشن » وقدرت أننى سوف أكتب اليه فيما بعد ، وكانت اجراءات الأمن فى أرصفة الميناء صباح غد عادية تقريبا ولكن الموظفين كانوا متوترين ، ويبدون كناس لهم وظيفة ليعملونها ، هذا لصالحى ، فلقد كانوا أقل اهتماما بأجنبى يغادر المدينة أكثر من اهتمامهم بافريقى غريب فى منطقة السوق حول النصب التذكارى وبوابات الميناء ومع ذلك فلقد استوقفونى عدة مرات .

قالت إحدى الموظفات وهى تعطينى أوراقى ثانية : « لماذا ترحل اليوم ؟ » الرئيس سوف يأتى بعد الظهر ، ألا تريد أن تراه ؟ » وكانت امرأة

محلية ولست أدرى ما إذا كانت هناك نغمة تهكم وسخرية فى صوتها ولكننى حرصت أن أنزع كل سخرية من صوتى وقلت لها : « أريد ذلك أيتها المواطنة لكنه يتعين علىّ أن أمضى : « فابتسمت وأشارت لى بالمرور » .

وصعدت في نهاية المطاف إلى الباخرة بدت المقصورة اللوكس الخاصة بى حارة وكان الباب يواجه النهر الذى يلمع وكانت الشمس تسقط على سطح الباخرة ، وذهبت إلى الجانب الظليل الذى يطل على الرصيف ولم تكن هذه فكرة طيبة .

بدأ أحد الجنود على الرصيف ينظر إلىّ . والتقت عيوننا وبدأ يزحف متسلقا الممر إلى الباخرة ، قلت لنفسى : يجب ألا أبقى وحيدا معه يجب أن يكون هناك شهود .

حينئذ ذهبت إلى البار وكان البارمان يقف أمام الأرفف الخاوية وكان هناك رجل بدين بذراعين ضخمة ملساء وكان يبدو كأنه أحد موظفى الباخرة ، وكان يشرب على إحدى الموائد ، ثم جلست على مائدة فى وسط البار وسرعان ما ظهر الجندى عند الباب ، وتوقف هناك للحظة وبدا أنه تضايق من وجود الرجل البدين لكنه تغلب على إحساسه بالضيق ومشى إلى مائدتى وأنحنى على وهو يهمس بالفرنسية : « أننى أنا الذى جهزت لك كل شىء »

وكان هذا طلبا باسما للنقود من رجل كان من الممكن أن يحارب معركة ، لكنى لم أفعل شيئا وحملق الرجل البدين ، وأحس الجندى أن مخلقة الرجل البدين قد بعدت عنه فقال مبتسما وبإيماءات أننى يمكننى أن أنسى طلبه ، لكنى أخذت بعد ذلك احتاط من إظهار نفسى .

غادرنا الميناء فى منتصف النهار ولم يكن الصندل مربوطا بالباخرة هذه الأيام ذلك أنهم يعتبرون ذلك اجراء استعماريا وسرعان ما خلفنا وراءنا المدينة لكن الشاطىء ظل لعدة أميال وكان تبدو فيه آثار العقارات المبنية والمنازل العظيمة .

وبعد حرارة الصباح تحول الجو إلى طقس عاصف وفى آثار العاصف الفضية الضوء كان الشاطىء المعشوشب أخضر رائع الخضرة فى

مواجهة السماء السوداء الداكنة ، وكان هناك أسفل الخضرة الأرض بلونها الأحمر المتوهج ، وهبت الريح أضاعت انعكاسات الظلال من فوق سطح النهر بالقرب من الشاطىء ولم تستمر الأمطار التى بدأت بعد ذلك لفترة طويلة وتعدتها الباخرة فى سيرها ، وسرعان ما بدأنا نبحر وسط غابة حقيقية وكان هناك بين الوقت والآخر قرية نمر بها وقوارب نلتقى بها واستمر هذا طيلة فترة ما بعد الظهيرة ونمشى الضباب السماء وكانت الشمس النازلة للغروب تبدو برتقالية ، تنعكس فى خط متكسر فوق المياه الموحلة ، ثم بدأنا نسير فى وهج ذهبى ومضيفا ونزول الظلام .

توقفنا فى الظلام فجأة وعلت أصوات متداخلة وكانت هناك صيحات من الصندل والقوارب والباخرة ومن أجزاء عديدة منها الملكى بعض الشبان المسلحين وسط الباخرة وحاولوا الاستيلاء عليها ، لكنهم فشلوا وظهر أحدهم ينزف فوق قنطرة الباخرة ، وظل الرجل البدين وقائد الباخرة على سيطرتهم عليها وهذا ما عرفناه فيما بعد .

مر وقت لم يكن هناك غير الأضواء الكاشفة للباخرة ، تلقى بنورها فوق شاطىء النهر وفوق صندل المسافرين الذى انفصل وأصبح يسير بزاوية خلال كثافة السنبل البرى عند حافة النهر . وأضاءت الأنوار الكاشفة ركاب الصندل الذين كانوا قابعين وراء القضبان والأسلاك والحراس والذين لم يكونوا يعرفون أنهم منساقون وحدهم مع التيار . ثم جاءت طلقات الرصاص وأطفأت الأنوار الكاشفة ولم يعد الصندل يمكن رؤيته ، واستمرت الباخرة ثانية وأبحرت بدون أنوار عبر النهر بعيدا عن منطقة المعركة ، وأصبح الهواء مملوءا بالحشرات الطائرة وكشفت الأنوار عن الآلاف منها وقد بدت بيضاء فى النور الأبيض .

انتهت بحمد الله وتوفيقه